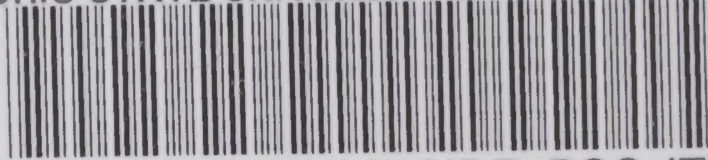





OHIO STATE
UNIVERSITY
LIBRARIES

History of the Patriarch Gerigery

شعاع الفضائل

في ترجمة ورثاء

الحبر الجليل الاكبر والعلاَّمة المفضال الأَبرّ والطيب العين والأَثر كيريوس كيريوس

بطرس الجريجيري

بطريرك انطاكية واسكندرية واورشليم وسائر المشرق

وهو البطريرك المئة والسادس والاربعون من عهد ولاية بطرس الرسول والرابع بهذا الاسم

قدَّس الله نفسهُ

طبع في المطبعة الادبية في بيروت سنة ١٩٠٢

الترجمة

عند انبثاق الفجر لليوم الثامن عشر من شهر آب سنة ١٨٤٠ (الموافق ٦ آب يوم عيد التجلّي حساباً شرقياً) وُلد صاحب الترجمة في مدينة زحلة من عمل لبنان من أبوَين روميين ملكيين هما نعمة ووردة الجربجيري . وفي ٢٧ ايلول من السنة ذاتها اقتبل سرّ العماد ودُعي بشارة .

ولما شبَّ وتلقَّى من أبوَيهِ مبادئ التربية المسيحية سلّماه الى مدرسة المرسلين اليسوعيين في زحلة فتخرَّج في القراءة والكتابة بالعربية على المعلمين موسى البعقليني والاخ حبيب مقصود (وكلاهما دخلا الرهبانية بعد حين) ثم خرج من المدرسة وضوى الى المرحوم خليل مقصود فدرس عليه فنّ الحساب وبعد ذلك أخذَ يزاول بعض اعمال كتابية ويدوية طلباً للنفع المادّي ليتسنى له مساعدة والديهِ وفي خلال اعمالهِ كان يتردَّد الى المرسلين اليسوعيين لسماع شرح التعليم المسيحي والارشادات الروحية وفي ايام الآحاد يذهب من قبلهم الى القرى المجاورة ليعلّم الاهلين مبادئ الدين . ولقد طالما حضَّهُ ذووهُ على ممارسة احدى الحرف ليتعيش منها فلم يصغِ الى اقوالهم الا مكرهاً مدة ستين يوماً عمل فيها بحرفة الصياغة ثم عاد الى ما تعوَّد من العكوف على الاعمال الدينية

وبينا هو على هذه الحال إذ دعاه اليه المرحوم السيد مكاريوس حداد مطران القلاية الانطاكية فسافر الى الشام في ١٨ تشرين الاول سنة ١٨٥٦ واقام بمعية المطران في الدار البطريركية الى ٢٠ تموز سنة ١٨٥٧

حيث رجع الى وطنه . وعقب احد عشر يوماً اقامه الآباء اليسوعيون معلماً للاحداث ومعاوناً للاعمال الكتابية في ديرهم في زحلة ورسولاً للارشاد في القرى القريبة منها . وفي ١٥ شباط سنة ١٨٥٩ اقاموهُ مديرًا لديرهم ومدرستهم في معلقة زحلة وفي ١ ايار من هذه السنة استُبدِل رئيس دير زحلة بغيره فاستدعاه الرئيس الجديد اليه وجعله في معيته لما سمعه عنه وعرفه فيه من الحذق والذكاء والورع

وفي ١٥ آب من السنة نفسها ذهب بمهمة الى بكفيا و بيروت وغزير ثم عاد الى بلدته . وفي ٥ تشرين الاول استصحبه البادري اغناتيوس فنك الى بكفيا و بيروت وعكاء وشفا عمر وفي البلدة الاخيرة قابلا الطيب الذكر السيد غريغوريوس يوسف مطران عكاء لذلك العهد (وهو البطريرك غريغوريوس الاول سابق صاحب الترجمة) فنالا منه حظوةً ثم توجها الى حيفا وصعدا الى الكرمل فزارا ادياره ورجعا بعدئذٍ الى عكاء ومنها توجها الى قرى صفد و بلاد بشارة فوصلا الى قانا في ٢٠ تشرين الثاني وهناك استقرَّ صاحب الترجمة لتعليم الاحداث وللرسالة على انه في فسحة الميلاد والفصح الشريفين كان يقصد صور وصيداء فيقضي فيهما بهجة الاعياد و يعود الى مكانه

وفي اوائل شباط سنة ١٨٦١ استأذن في الذهاب الى زحلة فصرف عندهم فسحة الفصح ولبث بين عاملين يتنازعان حواسَّهُ الشريفة إمَّا البقاء مع اهله لتعزيتهم ومواساتهم وإمَّا العود الى صيداء لجرّ مغنم يساعدهم به على المعيشة فغلب عليه العامل الثاني وانطلق الى صيداء في اوائل آب فلقي البادري انريكوس في انتظاره فطافا سوية في الداخلية وغرضهما القيام بفرض الرسالة وتوزيع الصدقات ومرَّا بعدة قرى حتى وصلا الى جرجوع والزهو ومنهما انقلبا نحو مرج عيون و بانياس ووادي التيم وحاصبيا وراشيا و بقاع العزيز ومشغرة وفي البلدة الاخيرة افترق الرفيقان فذهب

البادري الى جزين وصيداء وسار صاحب الترجمة الى زحلة فمكث عند اهله برهةً . وفي اول تشرين الاول اخذه البادري بولس ريكادنا الى معلقة زحلة وجعله كاتم سرّه

وفي اثناء اقامته في زحلة وفي غربته عنها كان يزداد تمسكاً بعروة الدين الوثقى فانه لم ينقطع عن سماع الارشادات التقوية والاختلاء للرياضات الروحية الاّ في شؤون الرسالة واعمال البرّ ودام كذلك الى ان صمم النية على وقف نفسه لخدمة الله والانتظام في سلك الكهنوت وأَسرَّ بالامر الى البادري ميخائيل كوبن اليسوعي وهو يومئذٍ في زحلة فرغّبه في اتمام ما وقف النفس له وبدأ يعلمه اللاهوت الادبي ووعده بالسعي لدى السيد البطريرك ومطران الابرشية في نيل امنيتهِ رغماً عن حداثة سنّهِ وتعاهدا اخيراً على ان يسيحا سوية في بلاد نجد وفارس والعراق في رحلةٍ علمية على نفقة المرحوم نابوليون الثالث امبراطور فرنسا

وعلى ما تقدم بيانه ترك زحلة في ١٠ شباط سنة ١٨٦٢ ميمماً بيروت مع البادري ميخائيل وفي ١٢ منه شخص الاخير مع البادري لويس كنوتي رئيس دير اليسوعيين في بيروت الى الدار البطريركية فمثلا لدى الطيّب الذكر السيد البطريرك اكليمنضوس بحوث والسيد باسيليوس شاهيات مطران الفرزل وزحلة والبقاع وعرضا عليهما مسألة صاحب الترجمة فاجابهما الى المسؤول وفي ٢٠ منه رسمه السيد باسيليوس شاهيات بالاربع الرسامات الصغرى وتكنى باسم بطرس . وفي ١ اذار اختلى برياضة روحية وفي ٩ منه رسمه المطران المذكور آنفاً شماساً انجيلياً وفي ١٦ منه رسمه كاهناً وهذه الرسامات جميعها تمّت بمظاهر الاحتفال في كنيسة النبي الياس الكاتدرائية في مدينة بيروت

ومن ثمّ بادر البادري ميخائيل وصاحب الترجمة الى التأهب للرحلة ولما استتبّ لهما تدبير حاجياتهما ودّعا بيروت ومن فيها ورحلا في اول

القس بطرس الجريجيري

اهله برهة . وفي اول تشرين الاول اخذه البادري بولس ريكادونا الى معلمته زحلة وجعله كاتم سره

وفي اثناء اقامته في زحلة وفي غربته عنها كان يزداد تمسكاً بعروة الدين الوثقى فانه لم ينقطع عن سماع الارشادات التقوية والاختلاء للرياضات الروحية الا في تقلبه الرسالة واعمال البرّ ودام كذلك الى ان عزم النية على وقف نفسه لخدمة الله والانتظام في سلك الكهنوت وأسرّ بالامر الى البادري عمانوئيل كوبن اليسوعي وهو يومئذ في زحلة فرغّبه في اتمام ما عقد النية له وبدأ يعلمه اللاهوت الادبي ووعده بالسعي لدى السيد البطريرك ومطران الابرشية في نيل امنيته رغماً عن حداثة سنه [illegible] في بلاد العجم وفارس والعراق في رحلة [illegible]

وبعد ما تقدم بيانه [illegible] زحلة في ١٠ شباط سنة ١٨٦٢ [illegible] مع البادري عمانوئيل وفي ١٢ منه [illegible] الاخير مع البادري [illegible] الرهبان اليسوعيين في بيروت الى الدار البطريركية فنزلا لدى الحبر الذكر السيد البطريرك اكليمنضوس بحوث والسيد باسيليوس شاهيات مطران الفرزل وزحلة والبقاع وعرضا عليهما مسألة صاحب الترجمة فاجابهما الى المسؤول وفي ٢٠ منه رسمه السيد باسيليوس شاهيات بالا[illegible] الرسامات الصغرى وتكنى باسم بطرس . وفي ١ اذار اختلى برياضة روحية وفي ٩ منه رسمه المطران المذكور آنفاً شماساً انجيلياً وفي ١٦ منه رسمه كاهناً وهذه الرسامات جميعها تمت بمظاهر الاحتفال في كنيسة النبي الياس الكاتدرائية في مدينة بيروت

ومن ثم بادر البادري عمانوئيل وصاحب الترجمة الى [illegible] زحلة ولما استتب لهما تدبير حاجياتهما [illegible] بيروت ومن فيها رحلا في اول



القس بطرس الجريجيري

نيسان فمرّا بصيداء وصور و بلاد بشارة و بلاد صفد وقانا ورميش و يارون وفي الاخيرة وعظ صاحب الترجمة الشعب بايعاز خوري البلدة وكانت هذه امّ عظاته وهو كاهن وقضى عيد الفصح في صفد بينا كان البادري ميخائيل في نواحي كفر برعم وعين ابل وهناك التقيا وسارا الى هونين والحولة واجتمعا عند نبع الاردنّ بالبرنس دي غال وارث تخت المملكة البريتانية (هو جلالة ادوار السابع ملك انكلترا وامبراطور الهند حالاً) فتبادلا معه التحية وساروا سوية الى بانياس وكان ذلك في ٢٣ نيسان وفي صباح اليوم التالي ودّعاه فانطلق الى حاصبيا وراشيا والشام وهما هبّا الى بحيرة الحولة وجسر بنات يعقوب وطبرية وزارا طور التجلي والناصرة وما فيها من المقامات المقدسة ثم رجعا الى عكاء ومنها ابحرا الى يافا في ٣٠ نيسان ومنها توجها الى غزة برًّا ثم الى معان وارض عرب الشرارات والجوف و بئر الشجيج وجبل شمر وحائيل و يريده من بلاد القسيم من اقاليم نجد والزلفاء والسدير والرياض من اقليم العارض الاوسط ومنها سارا بطريق ماء ابي جفان الى الهفوف اول بلاد الحسا (وهناك ينسج نوع من العباءة بديع الصنع) ثمّ الى الميزر وامّ سبعة (وفي كلّ من البلدتين نبع ماء سخن معدني) و بعد ذلك تركا بلاد الحسّاء وقصدا القطيف على شاطىء البحر ومنه ابحرا الى المحرق فالمنامة والبلدتان هما بندران للجزيرتين المدعوّتين البحرَين . وفي المنامة انفصلا على ان يتلاقيا في ابي شهر من مواني بلاد فارس وكانت وجهة البادري ميخائيل مسقط واما صاحب الترجمة فقد ركب البحر قاصداً ابا شهر الا ان شدة العواصف والانواء ردّت المركب الى شط العرب ثم قذفت به الى سواحل العجم فرسا في ميناء الطاهرية ولما هدأت الزوابع والرياح بعد يومين استطرد المسير الى ابي شهر

ولبث صاحب الترجمة في ابي شهر ينتظر وصول البادري ميخائيل اليها فحضر البريد من مسقط ولم يقدم معهُ فاضطرّ الى سبقه للبصرة (و بين

البلدتين يومان بعضهما بالبحر و بعضهما بالنهرين دجلة والفرات مجتمعين) ورأى ان الباخرة مطردة السير الى بغداد فرافقها اليها و بين البصرة و بغداد خمسة ايام تقطع الباخرة اولها بمجرى النهرين مجتمعين الى بلدة القرنة والاربعة الايام الاخرى بمجرى دجلة منفردًا وعلى ريفه جملة بلاد اخصها الاوردي والعزير (واسم العزير منسوب الى عزرا الكاهن)

ومكث في بغداد ١٧ يوماً وكان مرَّ على انفصاله عن رفيقه شهران ولم يحضر اليه فقلق من اجله وحسب ان يكون اصابه سوء فهمَّ للبحث عنه وعاد الى البصرة واقام فيها ١٧ يوماً احياها بالتساؤل والاستقصاء حتى علم في اليوم الاخير ان البادري لم يدخل البصرة بل انتقل في الميناء من باخرة الى اخرى كانت ذاهبة الى بغداد فسكن منه ما جاش وتصبَّر ثلاثة ايام اخرى حتى لقي باخرة ماخرة الى بغداد فاقلَّته وهناك اجتمع اللفيف المفروق وسُرَّ الرفيق بالرفيق

وكان صاحب الترجمة في البصرة و بغداد يلقي الخطب والمواعظ بمواضيع متنوعة في كنائس السريان الكاثوليكيين واللاتينيين نذكر له منها واحدةً القاها في بغداد في الاحد الخامس بعد الفصح موضوعها „ المحبة الاخوية ،، التي حُفِرت حروفها الانجيلية الذهبية على لوح قلبه من يوم أُميطت القُمُط عن مهده

وفي مساء ١٥ ايار سنة ١٨٦٣ بارحا بغداد برًّا الى الجديدة ومنها ضربا في اراضي الشول الى برقوق ثمَّ الى الموصل بعد ان مرَّا بقرى عديدة وزارا دير مار يعقوب وهو للكلدان في جبال الاكراد ثمَّ زارا السيد انريكوس امانطون القاصد الرسولي في ديرٍ لرهبان مار عبد الاحد في تلك النواحي ومنه سافرا الى زاخو ثم الى الجزيرة (التي يحدق بها دجلة) ومنها الى مدياد وماردين وديار بكر وفي البلدة الاخيرة قس روميّ زاره صاحب الترجمة واقام القداس في كنيسته مرَّتين في يومين . ومن ديار بكر

قطعا جبل كرادغ ووصلا الى سواريك ومنها اجتازا الى عرفا وهي بلدة الرها التي قطن فيها رئيس ابائنا ابرهيم الخليل ومنها اتَّبعا شاطئ الفرات الى بيره جك ثم عبرا هذا النهر وسارا الى حلب ومنها الى انطاكية وقطعا النهر العاصي وزارا فيها باب بولس و باب سمعان (بطرس) وسائر الاماكن الاثرية ثم ارتحلا عنها الى اللاذقية ومنها ابحرا الى طرابلس الشام فبيروت وحلاَّ فيها في ١١ تموز سنة ١٨٦٣ . وفي الذهاب والاياب شاهدا جملة بلاد غير التي ذكرنا ضربنا صفحًا عنها رعاية للمقام وهكذا استمرت رحلتهما هذه القصية ٤٦٧ يومًا ذاقا في اثنائها المضض الوانًا وصنوفًا وصادفا من انواع المشاقّ مئاتٍ والوفًا وكابدا ظماءَ الهواجر واقتحما المخاوف والمخاطر وطويَا الليالي بجفنٍ ساهرٍ وقطعا فيافيَ واوغالاً وأرياقًا وادغالاً وسهولاً وجبالاً وصحارى ورمالاً وشربا الماءَ مِلْحًا وزلالاً ولم ياخذهما ملل ولا انقطع لهما امل حتى كأَنّ كلاًّ منهما قُدّ من جبَل فسبحان من سوَّى وجبَل

ولم يكن غرضنا الإِفاضة الى هذا الحدّ في قصّ اخبار صاحب الترجمة في ايام فتائه وشبابه ولكن هي الضرورة احوجتنا اليها إِذ غير خافٍ ان النتائج تؤخذ بالمقدّمات وتلك هي مقدّمات السيرة التي استسارها ومنها يتضح للمطالع كيف انه منذ دبّ تعلق باهداب الايمان والرجاء والمحبة وكان كلما شبّ ونما تشبّ ونمو فيه الفضيلة والغيرة الرسولية

وقبل ان يستريح قصد صيدا فاختلى للرياضة الروحية ومنها عاد الى بيروت وبعد قليل بارحها الى زحلة ملبيًا دعوة الاهل واليها جاءه البادري ميخائيل فتوادَعا على ان لا يلتقيا الى يوم الحشر وذهب البادري الى فرنسا وروما

وفي ١٢ ايلول سنة ١٨٦٣ غادر زحلة الى دير القديس يوحنا الصابغ في الشوير فزاره وتوجه منه الى بيروت وفيها بدأَ يتعلم اللغة

الفرنسوية بمدرسة المرسلين اليسوعيين في ١٥ ايلول ثم في ١٥ تشرين الاول عاد الى درس اللاهوت وكان استاذه البادري روا . وفي هذه الآونة تعرّف به الكثيرون من اهالي بيروت وهو في عمر غضّ وجسم بضّ فالفيناه مثال البر والتقى والعفاف وعنوان المروَّة والوفاء والاخلاص ومرآة المحبة والسلام

وفي ١٣ تموز سافر الى الشام طلباً للنزهة ثم الى بعلبك بطريق الزبداني للتفرُّج على عادياتها وآثارها ثم الى زحلة لرؤية الاهل وبعد ذاك عاد الى بيروت ثم توجه الى زحلة ثم بكفيا وبيروت باعمال نافعة مرجعها الخير العام وخير الناس من نفع الناس

وفي ٢ تشرين الاول سنة ١٨٦٤ توجه الى غزير واستقرَّ في دير المرسلين اليسوعيين بغية ان يدرس اللغة اللاتينية ويتقوّى بالفرنسوية وقبل البدء بالدروس باشر الرياضة الروحية التماساً لاستدرار النعم السماوية . وفي سنة ١٨٦٥ فشا الهواء الاصفر في القطرين المصري والسوري فصار الى غزير زهاء مئة وخمسين اسرة من جالية القطرين فوَجَّه المثلث الرحمات السيد اغابيوس الرياشي مطران بيروت وجبيل لذلك العهد ان يخدم ابناء ملته روحياً فقام بهذه المهمة بغيرة وقف عندها المصطافون موقف المعجبين المنذهلين لما راوه من جهاده الجميل وتنبأُوا منذئذٍ ان سيكون له شان رفيع في خطط الرئاسة الروحية ولا يزال كل حيٍّ منهم يلهج حتى الان بذكره ويثني عليه اطيب الثناء

وفي سنة ١٨٦٦ كانت المدرسة البطريركية في بيروت لاول نشأتها فاستدعاه اليها الطيب الذكر السيد البطريرك غريغوريوس يوسف ليعاون رئيسها المرحوم الخوري جرجس عيسى فشمر كلاهما عن ساعد الجد ووضعا لها اسُساً نظامية كانت مدعاةً لسرعة نمائها واقبال الطلبة عليها

ولما كان مطبوعاً على حب الوطن وهو عنده من الايمان ورأى ان

زحلة خالية من مدرسة كاثوليكية عالية تعلّم اللغات الاجنبية قام اليها
من فوردو وانشأ فيها المدرسة الاسقفية لعهد المرحوم مطرانها السيد امبروسيوس
عبده وسنّ لها قوانين محكمة الترتيب وجلب لها اساتذة مهرة لتدريس
العلوم باللغات التركية والعربية والفرنسوية وجعلها تحت ادارته وحمل على
نفسه في السهر عليها فلم يمرّ زمن قريب حتى اورقت اغصانها واينعت اثمارها

وفي سنة ١٨٦٩ استعاده المثلث الرحمات السيد البطريرك غريغوريوس
الى مدرسته في بيروت لعهد رئيسها البروطوبرزفيترس فيلبس نمير فزاد في
تنسيق نظاماتها وجلّى في حلبة ادارتها حتى بعدت شهرتها وذاع صيتها في
الاصقاع النائية وامّها الطلاّب على تباين اجناسهم ومذاهبهم من كل فجٍّ
وصوب فضاقت بهم مساكنها وعرصاتها على رحبها ولم يكن مجال افسح
للتوسع فسعى لدى المرحوم راشد باشا والي سورية وفتئذٍ فاشترى الوالي
على نفقته قطعة ارض واسعة بجوار المدرسة ووهبها لها فبادر صاحب الترجمة
اذ ذاك الى زيادة عمارتها . فاقام بيوتاً جديدة للدروس والمنامة ووسع
القديمة وطوّل مساحة الكنيسة وحوّل هيئتها الى نحو ما تتطلبه نظامات
الكنيسة اليونانية . وانشأ للمدرسة مكتبة جمع اليها مئاتٍ من المجلدات
الضخمة والمؤلفات الشهيرة ووضع كل هذه المعاهد تحت شفاعة القديس
يوحنا فم الذهب وفتح سجلاً لاستنساخ المنثور والمنظوم من مدبجات اقلام
الاساتذة وتلامذة الصفوف العالية وجعل الاطلاع عليه مباحاً تنشيطاً
للمقصرين ومثل هذا السجل اذا كان لا يزال العمل فيه مرعيًّا الى يومنا
هذا يليق ان يُعَدّ في جملة الاسفار الادبية والتحف العلمية . واوجب
مواظبة الارشادات الروحية . واوجد من خيرة التلامذة اخوية برعايته
وكان يدرّس الفرقة الاولى مبادئ اللاهوت . والّف في التعليم المسيحي
كنزاً ثميناً . وكل هذه المشاغل لم تقعد به عن الاستزادة في العلوم فدرس
الفقه والفرائض على المرحومين الاستاذين الشيخ محيي الدين اليافي والشيخ

يوسف الاسير واخذ بعض مبادىء اللغة التركيــة وتقوّى بالعربية والفرنسوية . وكان ينتقل في ابراج العمل والاصلاح كما تتنقل الشمس في ابراجها فانه بعد ان اكمل تنظيم المدرسة البطريركية في بيروت عاد الى زحلة في سنة ١٨٧١ لعهد مطرانها السيد ملاتيوس فكاك (مطران بيروت وجبيل حالاً) فاستتبع ما شرع به لمدرستها الاسقفية من القوانين والسنن واحدث مدارس اخر في قرى الابرشية فغزر عدد الورّاد اليها واستفادوا فوائد كبرى

وفي سنة ١٨٧٤ شعر من نفسه بحاجة الى التعمق في العلوم والمعارف ليكون اقوى مما كان على ترقية المدارس التي اسسها نخفّ الى مدينة بلوا من عمل فرنسا ودخل مدرستها الكهنوتية الكلية للمرسلين اليسوعيين فاتقن الفلسفة والطبيعيات وسائر العلوم العالية وبرع في اللاهوت الادبي والنظري ونبغ في اللغات اليونانية واللاتينية والفرنسوية حتى صار يعدّ في جميعها من اهل الطبقة الاولى وكان يلقي المواعظ الرنانة في كنائس فرنسا الكبرى باللغة الفرنسوية على مسمع من الالاف المؤلفة من جهابذتها ونشرت صحف الاخبار كثيرًا منها معجبة ببلاغته وسعة تصرّفه . وكل المدة التي قضاها في المدرسة لا تبلغ اربع سنوات ولدى اقامته فيها جُعل في بعض تلك المدة ملاحظًا على مدرسة (نوتردام ديز يكل) وله فيها آثار جديرة بالذكرى

وفي سنة ١٨٧٤ جال في بعض مقاطعات فرنسا وايطاليا وزار رومية العظمى وتشرّف بمقابلة قدس البابا لاون الثالث عشر ثم قدم الى بيروت ومنها عاد الى زحلة وكان اول انهماكه تعهد مدارسه والمبادرة الى تاسيس غيرها في اماكن عديدة من الابرشية حتى ابلغها الى الاثنتين والاربعين عددًا وهي عدا من اخرجتهم من التلامذة الذين تثقفوا فيها كانت تحتوي على نحوٍ من ٢٣٠٠ تلميذ. ولما كانت الاموال التي تاتيه من الخارج إعانةً

للقيام بمستلزمات هذه المدارس لا تسدّ نفقاتها الطائلة كان يخترع الاسباب لجلب الدرهم من ابواب مفيدة مثل مبيع الكتب وتمثيل الروايات التاريخية وتاليف جمعيات لالقاء الخطب الادبية وغير ذلك مما يطول بيانه وهكذا كان يوازن بين الدخل والخرج بحيث لم يضطر الى النكوص عن خطة الاصلاح التي جرى عليها · وفوق ما كان يتحمله من متاعب المدارس وادارتها فهو لم يغفل امر المشروعات الدينية فانه انشأ فرعاً لجمعية القديس منصور الخيرية ورتب اخويات للرجال وللنساء وللحدثان من الجنسين وكان يواظب ارشادهم بنفسه

وفي سنة ١٨٨١ نُقل سيادة المطران ملاتيوس فكاك من كرسي الفرزل وزحلة والبقاع الى كرسي بيروت وجبيل فالتمس الزحليون من الطيب الذكر السيد البطريرك غريغوريوس يوسف ان يرسم صاحب الترجمة مطراناً لهم الا انه جرى وقتئذٍ ما جرى من مداخلة البعض في المسالة وأبى المرشح هذا المنصب واوعز الى الاهالي ان يختاروا الايكونوموس يوحنا ملوك عوضاً عنه وهكذا رُسم الاخير مطراناً للابرشية باسم اغناتيوس وذلك في ١٨ ايلول من تلك السنة · واما السيد البطريرك فلم يشأ الا ان يكافئ صاحب الترجمة مقابلة تنزُّلهِ هذا بل مقابلة خدماته العديدة المفيدة فجعله وكيله الزمني في زحلة وحباه بلقب اكسرخوس للقلاية الانطاكية

وعندما آنس من مدارسه الخارجية انها بلغت شأوها من النجاح طوّعت له نفسه الشروع في تاسيس مدرسة داخلية كلية في زحلة والامر غير يسير على شارع ليس بذي وفر فاخذ يمهد السبب ويعتني في بلوغ الارب · وفي سنة ١٨٨٣ سافر بهذه المهمة الى استانة العلية مزوّداً من المرحوم حسين فوزي باشا والي سورية وقتئذٍ برسائل الى حضرات الصدر الاعظم ووزراء الداخلية والعدلية والنافعة اوصاهم فيها به وذكر

لهم انه اخلص عثماني عرفه في سورية وان مدارسه تهذب الاولاد على مبادئ الوطنية الصرفة وانه جدير بالالتفات والعناية فتشرَّف ثمة بمقابلتهم وزار غيرهم من أُلي الحل والعقد وبعض اكابر الرجال ولقي منهم جميعاً عطوفاً الى مساعدته · ثم زار فرنسا وايطاليا وحظي بالمثول لدى قدس البابا وقابل بعض السادة الكرادلة وعمَّال الديوان البابوي · وبعد نهاية سياحته عاد الى زحلة ليهتم باستثمار المساعي التي زرعها وبينا هو كذلك اذ استدعاه المثلث الرحمات السيد البطريرك غريغوريوس الى مدرسة عين تراز فلبَّاه وكان ذلك في سنة ١٨٨٥ فكاشفه السيد البطريرك بما في نيته من احياء اسقفية بانياس وانتخابه اياه مطراناً لها فتنكَّر وتمنَّع عن قبول المنصب واما البطريرك فكرّر عليه الامر بالحاح ولجاجة معلناً له انه لم يقطع هذه الاسقفية من كرسيه الانطاكي الا ليقيمه عليها دون سواه اذ لا يرى من هو كفوء لها غيره فبقي مصرّاً على الرفض الا انه استاذن في زيارة بعض نواحي الابرشية ليرى رايه القاطع فيها فاذِنَ له وبعد ان تفقد البلاد وتعهد احوالها عاد وهو اشد من ذي قبل في التشبث برايه الاول وحجته ان الابرشية خالية خاوية في حيز العدم وانه ليس لديه مال يساعده على بعثها وانهاضها من وهدتها فردّ السيد البطريرك حجته هذه بقوله له " لقد جمعت الاموال وبلغت الآمال وانت قسّ فكيف بك وانت اسقف واما اذا اصررت على الاباء فتضطرني لاهمال الابرشية بلا عامل وعليك الق تبعة ما يفوتها من الفوائد التي اتوقعها من مساعيك واياك اطالب امام الديان العادل في الموقف " فرأى حينئذٍ ان الذمة تطالبه بالخضوع للنداء الرعائي فاذعن للامر وكان مرّ على الاخذ والردّ في المسالة نحو تسعة شهور

وهنا وقد انتهت خدمته الكهنوتية يليق بنا ان نذكر له نادرة من بعض فضائله فانه قد اخذ الخلف عن السلف من كهنة الكرمي الفرزلي

انه متى فضل لديه شيء من دخله الخاص يقتني لنفسه عقاراً يستأثر بريعه حتى اذا نقص دخله وقل ايراده يلجا الى هذا الوفر ليسدّ به حاجياته واعتاد جميع الكهنة ان يجروا هذا المجرى فاراد صاحب الترجمة ان يقتدي بهم في الظاهر فابتاع كرمةً بقيمة ثمانية عشر الف غرش ودكاناً بمبلغ لا تتذكر قيمته ولكنه في السرّ وقف الكرمة والدكان للفقراء وحبس ريعهما في سبيل الله فصار يوزّع دخلهما للمعوزين وصاروا يدعون للمحسن اليهم وهم لا يعرفونه حتى انه ليحكى عنه انه قدم زحلة مرّةً وهو اسقف فاتى لزيارته اهل البلدة وفي جملتهم المختارون المعينون لجباية الاموال الميرية فطالبوه بخراج مقتنياته فجاوبهم مازحاً ان ردُّوا عليَّ العقار فانقدكم الخراج وحينذاك عرفوا ما كان ولم يستغربوه منه

وعلى هذا العمل وامثاله والاعمال التي تقدم بيانها من خدمته في زحلة وسائر بلاد الابرشية تعلق الاهلون به تعلقاً شديداً بحيث انه صار يشقّ عليهم فراقه جدًّا فلما طار اليهم الخبر عن قبوله الترقي لدرجة الاسقفية سار وفد من اعيانهم الى الشام حيث كان الطيب الذكر السيد البطريرك غريغوريوس وسالوه ان يجعله مطراناً لابرشيتهم فكفهم البطريرك عن مطلبهم بقوله لهم « انكم لم تعودوا في حاجة اليه لما بث فيكم من آيات الصلاح وعوامل الاصلاح بل صار غيركم احوج منكم اليه » فامتثلوا الامر ولكن آسفين لفراق من كان لهم مرشداً ومهذباً ورفيقاً واباً واخاً وصديقاً

وفي ٢١ شباط سنة ١٨٨٦ رُسم مطراناً لابرشية بانياس من يد المثلثي الرحمات السيد البطريرك غريغوريوس يوسف والسادة غريغوريوس عطا رئيس اساقفة حمص وحماه وتوابعهما ومكاريوس حداد مطران القلاية الانطاكية وبولس مسدية مطران طرابلس الشام والسيد يوسف داود مطران السريان الكاثوليك وذلك بحضور حشد غفير في كنيسة سيدة النياح الكاتدرائية في الشام. وعقب الرسامة في منتصف القداس

وقف في صدر البيعة وارتجل خطاباً نفيساً وصفه مراسل جريدة لسان الحال الدمشقي بانه „ من ابلغ وافصح ما سمعه اهل الشام من الخطب الارتجالية الرشيقة „ ولا عجب فالشيء من معدنه لا يستغرب · وقد عدَّد فيه مآثر السيد البطريرك وذكر ما له من المناقب والفضل في خدمة البيعة والسهر على رعاية القطيع الناطق في المراعي الخصبة وبناء بيوت العبادة وانشاء المدارس وتهذيب الاكليروس العالمي والقانوني الى آخر ما قال في هذا الباب ولقَّبه بما هو له من الالقاب بمقتضى الحق القانوني فذكر انه „ خليفة بطرس هامة الرسل على الكرسي الانطاكي والبابا على الكرسي الاسكندري والوكيل المرخص على شعب الله المختار في ارضه المقدسة „ (وبطريرك اسكندرية يلقب عادةً ببابا لانه كان في المجامع المسكونية يقدَّم على سائر البطاركة بالنظر الى احد وجهين اما قول بعض المؤرخين ان بطرس الرسول عند عودته من بابل مرَّ باسكندرية واسس كرسي اسقفيتها قبل ان ياتي الى انطاكية ويؤسس فيها كرسيه واما جعل المراتب الدينية في الايام القديمة تابعة في اهميتها للمراتب المدنية واسكندرية كانت ثانية رومية العظمى في النظام المدني والوجه الاخير هو المرجح) ثم سرد في خطابه خلاصة تاريخ مدينة بانياس وحضَّ الشعب على الالفة والاخاء والحب والولاء وحثهم على نبذ اسباب الشقاق والبغضاء شان الاخوة الذين تجمعهم الجامعة الوطنية وتكتنفهم الجنسية العثمانية تحت لواء حضرة صاحب التاج والصولجان السلطان الاعظم ظل الله على عباده في الارض ودعا لجلالته ولاريكته المنوَّرة بالتاييد ولجيوشه المظفرة بالنصر واستطرد الكلام بالثناء على قدس البابا واياديه البيضاء على البيعة الجامعة ولا سيما الكنائس الشرقية المقدسة وسال له العمر المديد · ثم ختمه كما افتتحه بالشكر للسيد البطريرك والدعاء له ولرعيته بطول البقاء وزيادة النماء

وكان لهذا الخطاب وقع وتاثير في نفوس الدمشقيين فقدروا قائله

حق قدره وأجلّوا مكانته من العلم وسعة المعارف وتمنّوا لو يبقى فيما بينهم الا ان السيد البطريرك ادرك مرّهم فسيّره من الشام الى ابرشيته الجديدة في ٢٦ شباط سنة ١٨٨٦ بين الثلوج والسيول

وقد سافر بطريق جبل الشيخ وليس معه سوى كاهن وخادم فكانت العواصف تلفح وجوههم والافراس ترزح تحتهم غائصة بين لجج الثلوج حتى وصلوا بعد غروب الشمس الى رخلا (زنوبوليس القديمة) فلقوا في احد نزولها ثلاثين فارساً من الجنود الشاهانية كانوا لجاوا اليه من ثلاثة ايام وقد نفد علف خيلهم ولم يستطيعوا المسير لشدة الانواء فاحيا المطران وحاشيته ليلتهم في النزل قعوداً مسهدين وفي صباح اليوم التالي ركبوا غير مكترثين لما ألمَّ بهم من اللغب ولا مبالين بقرس البرد ومصادمة العواصف فوصلوا الى راشيا وهي المرحلة الاولى من ابرشية بانياس

وكان هم المطران وقتئذٍ ان يجعل كرسي الاسقفية مدينة بانياس لما سياتي بيانه من اهميتها التاريخية والانجيلية فلم يتسهل له الامر من حيث ان تلك المدينة القديمة قد امست الان دسكرة قائمة بين اخربة وليس فيها ديّار مسيحي فاخذ يتنقل من بلدة الى اخرى متضيفاً على الاهلين من مسلمين ودروز وشيعيين ونصارى حتى وطد الراي على ان يجعل كرسيه في الجديدة (مرج عيون) وهي بلدة تحتوي على نحو خمسة آلاف نفس فاكترى له فيها منزلاً مؤلفاً من اربعة بيوت صغيرة واستقرّ فيه

وهنا يجدر بنا ان ناتي على لمحة من تاريخ هذه الاسقفية فنقول انها في راي بعض المخبرين تاسست لعهد الرسل الابرار وكان لها اساقفة ظهرت قداستهم ولهم اسماء مكتوبة في رسالة القديس بولس الى اهل كُورنتُس واذا لم يكن لهذا الراي سند يقوّيه ويدعمه فانه ولا شك جلس على كرسيها اساقفة احبار تدل عليهم تواقيعهم واختامهم في بعض قرارات المجامع المسكونية والعامة واعمال السينودسات في القرن الرابع وما يليه

الى اوائل القرن الثاني عشر للمسيح حتى انه في القرن الثامن عشر اقيم لها
اسقفان نحريان من ملة الروم الملكيين الكاثوليكيين هما المطران باسيليوس
فينان (الذي رُسم عليها سنة ١٧٢٤ لعهد البطريرك كيرلس الخامس
والبطريرك اثناثيوس الدباس المتعاصرين ثم نُقل الى كرسي صيداء لعهد
البطريرك كيرلس السادس طاناس) والمطران مكسيموس سلال
الفاخوري (الذي رُسم عليها لعهد البطريرك ثاوضوسيوس الدهان سنة
١٧٦١ ثم انتقل الى كرسي عكاء) الا انه لتقادم عهد اهمالها من زهاء
٧٠٠ سنة قد اندثرت هذه الملة من نواحيها ولم يبقَ من رجالها فيها الا
بعض عشرات . وهي على مساحة ٢٠٠ كيلومتر طولاً و ٧٠ كيلومترًا
عرضًا تشمل بلاد حاصبيا وراشيا ومرج عيون والقنيطرة وملحقاتها التي
منها بانياس والقسم الشرقي من وادي الاردن وقسمًا من ناحية بحيرة
طبرية ويحدها سهل بقاع العزيز والطريق الممتدة بين بيروت والشام
واقسام من كراسي بعلبك والفرزل و بصرى وحوران وصحراء وكرسي عكاء
والنهر الليطاني وجبل هونين التابع لكرسي صور والاردن وبحيرة طبرية
وقسم من ابرشية الكرسي الانطاكي من ايالة الشام ويسكنها زهاء ١٧٠
الف نفس فيهم ٣٠ الفًا مسيحيون جلهم من الروم الارثوذكسيين وبينهم
عدد من المارونيين والانجيليين واقلهم يومئذٍ الروم الملكيون الكاثوليكيون .
واما مدينة بانياس فهي على ما وصفها المؤرخ يوسيفوس قديمة النشأة
قامت في ايام اليونانيين والرومانيين ودُعيت باسمها هذا لقربها من موضع
هيكل بانيون احد الهة الوثنيين وكان لها عمارة بديعة وابنية شاهقة
شائقة لحق بها الدمار من جراء توالي الحروب وكثرة الغارات ثم لما تولى
عليها هيرودس الادومي الكبير وهبها الى ابنه فيلبس فبناها واعاد اليها
رونقها وسماها قيصرية فيلبس نسبةً له وبهذا الاسم ورد ذكرها في الآية
الثالثة عشرة من الفصل السادس عشر من انجيل يسوع المسيح للقديس

المطران بطرس الجريجيري

[illegible] القرن [illegible]
[illegible] القرن [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] والقسم [illegible]
[illegible] العرب [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] الرابع [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] الكبير [illegible]
[illegible]
[illegible]



المطران بطرس الجريجيري

متى الرسول وفي نواحيها قال السيد المسيح لسمعان بن يونا (بطرس) « انت الصفاة وعلى هذه الصفاة سابني كنيستي » . وفي مدينة بانياس نفسها كانت قاطنة المرأة التي كان بها نزف دمٍ منذ اثنتي عشرة سنة ودنت من خلف المسيح ومست طرف ثوبه فبرئت . وروى اوزيبيوس المؤرخ الشهير الذي عاش في صدر النصرانية ان هذه المرأة بعد شفائها ارادت ان تعترف بجميل من ابرأها كما كانت العادة في تلك الايام فأقامت على قمة بجوار منزلها تمثالين من معدن ثمين احدهما يمثل السيد المسيح متشحاً بثوب والثاني يمثلها وهي ساجدة امامهُ بهيئة حزينة سائلة ومادّة يدها اليمنى الى ثوبه لتمسهُ وقال هذا المؤرخ انه رأى التمثالين رأي العين وعرف ان احدهما انما هو تمثال السيد المسيح بعينه لما تأكده من الشبه بينه وبين رسوم عديدة لهُ من صنع المصورين كان شاهدها وشاهد معها رسوم بطرس وبولس وغيرها واخبر ايضاً انه عاين نوعاً من النبات مجهول الاسم نبت عند قاعدة تمثال المسيح ونما بدون زرع وبدون ري وكان اذا اتصل راسهُ برسم الثوب الذي يتشح به تمثال المسيح يكتسب خاصة الشفاء فيبرئ اي من مسه من اي الادواء واثبت روايته هذه غير واحد من المؤرخين . واما هذان التمثالان فقد هدمهما يوليانوس قيصر مضطهد النصرانية ونصب في موضعهما تمثالاً له فباعجوبة الهية صعق تمثاله وانقطع شطرين وبقيت آثار شطره الاعلى ملقاة على الحضيض حيناً من الدهر وعاينها سوزومينوس المؤرخ الذي عاش لسنة ٤٣٩ بعد المسيح . وفي بانياس آثار قديمة شهيرة يقصدها السياح للتفرج عليها . وهذه الاهمية الانجيلية التي كانت لها هي التي شوقت اسقفها الجديد الى ان يجعلها كرسياً لهُ ويبني فيها كنيسته الكاتدرائية احياءً لذكر ما قاله السيد المسيح لبطرس في تلك النواحي ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ولعل خلفه في الاسقفية الذي كان يعمل بارادته في زمن حياته يسعى للعمل

بها بعد مماته فيتوفق الى اقامة هذه الكنيسة بتوفيق الله تعالى

ولما خلد صاحب الترجمة الى مكانه في الجديدة دأب في تاسيس المدارس في انحاء الابرشية لتيقنه انها هي امهات الابواب التي تشرق منها اشعة الاداب والمدنية فانشأ منها عدداً غير يسير في زمن وجيز وصادفت بسعيه نجاحاً سريعاً وفتحاً قريباً وعلى ذلك كفاه جلالة مولانا السلطان الاعظم بالنيشان المجيدي الثالث ونال وسام المجمع العلمي الفرنسوي في السنة نفسها . وايضاً فانه حرّك الهمة الى اقامة الكنائس فعمها في نواحي الاسقفية واستحضر لها الكهنة من دير المخلص العامر وكان في كل فترة يتفقدها ويقيم فيها الصلاة ويلقي المواعظ والارشادات الروحية حتى صارت تغص بجماعة المصلين على حين لم يكن يؤمها من قبل الا النزر القليل . واتفق ذات مرة انه احتفل بقداس حبري في كنيسة راشيا ولم يضع التاج على راسهِ ثم اختتم القداس بعظة نفيسة كان لها وقع وتاثير في النفوس فلما خرج الحضور من البيعة انتقده احدهم قائلاً « انه لم يلبس التاج وقد جاء في الكتب » انهْ وضع على راسهِ اكليل من حجر كريم » فاجابهُ واحد قائلاً « اليس ما القاه علينا هو الدر الذي لا يقدر بثمن واليست اقوالهُ هي الحق وبها الخلاص » واجابهُ الثاني مشبهاً اياه برسل المسيح وقال ثالث ان هذا هو الراعي الصالح وفي الحقيقة فانهم نعتوه بنعوته وسموه باسمائه . وهكذا كان كل يوم يزداد شهرة ويفوح عرفه الطيب لما ياتيه من جلائل الاعمال وعظائم المشروعات وكانت ابناء ملته كل يوم تنمو وتكثر وهو يقوم بقضاء حاجاتها الى ان تحققت فيه لديهم الاوصاف التي وصفه بها الطيب الذكر البطريرك غريغوريوس يوسف في منشورهِ للابرشية عندما رسمهُ اسقفاً لها حيث قال ما نصه بحروفه

» ولما لم يطق قلبنا الابوي ولم يستكن ضميرنا الرعائي ان ينظر النظر المجرَّد الى هذه الابرشية العزيزة في الحالة الحاضرة دون المبادرة الى تنصيب

راعٍ لها يلمّ شعث بنيها المتبدّدين ويثبتهم في الايمان القويم ويقيتهم بالتعاليم الخلاصية ويعتني في حاجاتهم الروحية ويرتب الخورنات على النسق الكنائسي ويهتم في ايجاد كهنة غيورين يوزعون على المسيحيين كلام الله واسراره المقدسة ويثبتونهم بالفضل والقداسة ويقيم المعابد تكميلاً لشعائر الدين ويشيد المدارس لتعليم وتهذيب الفتيان كي تزدهر هذه الابرشية وتكثر في بنيها اثمار الخلاص ويفوح عطر تعاليم الديانة تمجيداً لجلال الاله القدوس ولصوالح المؤمنين الابدية فقد تحرّينا الامر وتروَّيناه في كل دقائقه والتجأنا الى ابي الانوار الذي منهُ كل عطية صالحة ليلهمنا ويدبّرنا في هذا الامر الخطير فبعد ان شاورنا مصفّ اخوتنا المحترمين مطارنة كرسينا الانطاكي الاقدس بثثنا العزم ووطدنا القصد على استئناف تنصيب اسقف على كرسي بانياس (قيصرية فيلبس الشهيرة) تعهد الى لياقتهِ قانونياً هذه المهام وفي هذا المقام اتجهت لحاظنا الى شخص ولدنا العزيز الخوري بطرس الجريجيري احد رجال الكرسي الفرزلي فألفينا فيه كل المناقب والصفات المطلوبة من تقوى وعلم ودراية وحزم وادارة وعزم وغيرة واقدام ونشاط وزَنَاتٍ انجيلية جليلة تاجر بها مدة مديدة من السنين واكتسب ثروة عظيمة من الفضل وذاع اسمهُ وانتشر عرف بسالتهِ وشجاعتهِ وثباتهِ في الاعمال والمشروعات الخيرية تحسيناً للانسانية وتشييداً للدين وتوطيداً للآداب والعلم فكان هو رجل الميدان المرغوب الذي مرّنتهُ العناية الالهية في ميادين الاعمال الباهرة واعدّتهُ لهذا المكان الهامّ الخ „

أجل تلك هي صفات هذا الحبر الجليل بل هي بعض مناقبهِ الجميلة فبمثلها فليتنافس المتنافسون

ولم تنحصر شهرتهُ بين ابناء ملتهِ فقط بل عرَفهُ ايضاً المئة والسبعون الفاً المنتشرون في اطراف الابرشية على اختلاف ملَلهم ونِحَلهم وصاروا

يقصدونهُ في قضاء اغراضهم وحل مشكلاتهم كما سياتي بيانهُ في محلهِ وهو لا يردّ سائلاً ولا يخيب آملاً

واذ كان يطمع في نجاح مشروعاتهِ بالمزيد رأى ان لا ندحة لهُ عن الاسفار ففي سنة ١٨٨٧ سافر الى اوروبا بطريق القدس الشريف فزار رومية العظمى وحظي بمقابلة حبرها الطوباوي وتجوّل في اطراف فرنسا ثمَّ قصد تونس والجزائر بدعوة من المرحوم الكردينال لافيجري صديقه الحميم وعاد بعد ذلك الى رومية ونال من لدن قدس البابا ما شاء من المال لبناء الكنيسة الكاتدرائية في الجديدة ومن هنالك قفل الى ابرشيتهِ بطريق القطر المصري وكان ذلك في اوائل سنة ١٨٨٨ فزار القاهرة وشبين الكوم وبركة السبع وطنطا واسكندرية وغيرها ولقي فيها مظاهر الحفاوة والاعتبار

وكذلك في سنة ١٨٩٣ سافر الى القدس الشريف لحضور المجمع القرباني الذي عُقِد هناك (وصحبهُ الى القدس السيد نيقولاوس القاضي رئيس اساقفة بصرى وحوران) ولهُ في ذلك المجمع خطبة رنَّانة آية في البلاغة ومن القدس توجه الى رومية ومثل مرارًا بين يدي قدس البابا وذهب الى انكلترا بدعوة من الكردينال فون ثم جال في بلجيكا والمانيا وفرنسا وتعرَّف بكثيرين من ذوي المناصب واهل الوجاهة فيها ثم زار رومية ثانية ومنها انتقل الى غيرها من بلاد ايطاليا وعاد الى كرسيهِ يحفّ من حولهِ المجد والسعد. على انهُ كلما رجع من رحلةٍ كان يزداد قوَّة ونشاطًا وغيرةً في مساعيهِ المشكورة فيشيد ويجدّد كنائس ومدارس ويقتني ضياعًا ومزارع ويغرس ويزرع اشجارًا مثمرة وبذورًا صالحة في الاراضي الطيبة وينفق مما وسع الله عليه فيعول الفقير ويطعم الجائع ويعضد اليتيم والارملة ويغيث الملهوفين وينصف المظلومين ويقوّي الضعفاء ويفصل اسباب الشحناء حتى لقد صار ناديه محطّ رحال الامال

مضاف القصَّاد والنزَّال

ونذكر من مساعيهِ المشكورة في سبيل السلام اهتمامهُ بفصل النزاع الذي وقع في اواخر سنة ١٨٩٤ بين الدروز من جهة و بين الشيعيين والنصارى من جهة اخرى على اثر مقتل علي الحجار الدرزي فانهُ تجمهر من الفريقين الوف يشكون السلاح للقتال وهدّد الدروز الجديدة بمهاجمتها ونهبها وكان المطران صاحب الترجمة اذ ذاك لدى السيد البطريرك غريغوريوس يوسف في مدرسة عين تراز فتنبه للامر وكيله في الجديدة الخوري روفائيل ابي مراد (هو السيد بولس ابي مراد مطران دمياط والنائب البطريركي في اورشليم حالاً) وبادر الى استعمال حكمته لالقاء الهدنة وتوقيف الخصام وتمكن من ذلك رغماً عما حال من المصاعب في مثل هذا الموقف الخطير وكتب الى المطران بما اجراهُ فصوَّب عمله وخفَّ الى كرسيهِ عقيب ان عرض المسألة على المرحوم عثمان نوري باشا والي سورية وعلى عطوفتلو نصوحي بك افندي والي بيروت يومئذٍ وريثما وصل اليها كان اتاهُ الجواب من الواليين يكلفانه بهِ العمل على اخماد الفتنة وتوطيد الصلح بين المتخاصمين فوجه العناية الى هذا الشان وخابر فيهِ اكابر الفريقين وتقدم اليهم في ان يوافوه الى حاصبيا فاطاعوا وهو ذهب بنفسهِ الى تلك البلدة وقابل القائمقام في دار الحكومة ثم قصد سليم بك شمس في دارهِ وبقوَّة جنانهِ وطلاقة لسانهِ وبلاغة بيانهِ توصل الى الغاية التي توخاها وهناك عقد الصلح بين رؤوس العشائر على الطريقة المتبعة عندهم وهي مدّ شرشف ابيض على سنان رمح وهكذا تجرَّد الجموع من اسلحتهم واستتب الامان وبرقت الاسرَّة بالسرور واختلط رجال الفريقين كالاخوان وشكروا المطران على ما اولاهم من الفضل اذ انقذ كثيرين من وجوههم من القصاص وأدبوا لهُ المآدب الانيقة وهو دعاهم ايضاً الى وليمة اعدَّها لهم في دارهِ بالجديدة ودعوا جميعاً لجلالة مولانا

المتبوع الاعظم بالنصر والتايد وعاشوا منذئذٍ متفيئين بظلّ اللواء الشاهاني الرفيع تجمعهم رابطة الوحدة العثمانية المكينة

وعلى ذلك فقد اشتهر في تلك الديار انهُ المدافع عن عدالة الحكومة السنية وحقوق رعاياها العامة فصارت لا تحدث مسألة الا ويلجأ المتظلمون فيها اليه راجين منهُ الوساطة فيهم فيقوم بنجدتهم متحملاً في هذا السبيل مشاقّ الاسفار ومعاناة المناصبة وسهر الليالي وانفاق الاموال كما جرى لهُ في مسألة ابن ماضي من ملة الروم الارثوذكسيين في الجديدة اذ أُتهم بقتل عساف الصغير وهو براءٌ منهُ فتعصب لهُ وجاء بيروت وخابر حضرة واليها وكشف لهُ عن جلية المسألة وخابر الى الامر في دار السعادة ومكث في بيروت مدة ٣٠ يوماً الى ان صدر الامر الكريم بالتخلية عن المتهم واطلاقهِ فساقهُ من سجنهِ بيدهِ وصحبهُ معهُ الى اهلهِ في الجديدة وما برح يداعي بها حتى تحصل على ديةٍ لارملتهِ وهو كان يقبض المال في آجالهِ المسماة ويدفعهُ لها وقيل انهُ في آخر الامر دفع شيئاً من جيبهِ الخاص ولا غروَ فانهُ كثيراً ما كان يتصدَّق في خفيةٍ فلا تعلم شمالهُ ما تصنع يمينهُ

واذا شئنا ان نسوق الحديث في أمثال هذه الحوادث يطول بنا الشرح فنجتزئ بما مرّ منهُ مما حلا وصفهُ للدلالة على ما طُبع عليهِ الموصوف من التفاني في خدمة الانسانية . وجملة القول انهُ كان لهُ في كل محمدةٍ يد وفي كل يدٍ محمدة وفي كل شبرٍ من ارض الابرشية اثرُ منقبة فهو الزارع الجميل والحاصد الثناء وهو المشار اليهِ بالمديح عند تعدد الاسماء . ولا نزيد البيروتيين علماً بهِ فانهُ كان يزور بلدتهم في ايام اسقفيتهِ حيناً بعد حين وكانوا يفدون للسلام عليهِ افواجاً افواجاً ويسمعون من رقيق الفاظهِ ما يسترقهم بحيث كانوا اذا جالسوهُ لا يريدون ان يرفضّ مجلسهُ ولا سيما عندما يندفع كالسيل في الكلام عن توحيد المذاهب

النصرانية والالفة بين مؤلفي الجامعة العثمانية الى غير ذلك من الاحاديث التي تأخذ بمجامع القلوب وتخلب الالباب

واما اعمالهُ في ابرشية بانياس فهي لا تُعَدُّ ولا تحصر ولكننا نكتفي بسرد عجالة منها فنقول انهُ أنفق فيها مبلغاً من المال لا يقلّ عن سبعين الف ليرة حصلهُ من اهل الاحسان بسعيهِ وجدّهِ ورتب للاكثرين منهم في مقابلتهِ قداديس أبدية تقام عن نيتهم في كنيسة الاسقفية . ولقد صرف من هذا المبلغ نحو ثلاثة ارباعهِ في بناء الكنائس والاناطيش والمدارس ومستلزمات نفقاتها واعمال البرّ والباقي في قنيان العقار والاثاث والماشية من غنم وبقر وخيل . ولزيادة الايضاح نذكر انهُ أنشأَ في الجديدة اربع مدارس للذكور وللاناث وبنى داراً للاسقفية واسعة الارجاء واثثها بالرياش المتقن الفاخر . وأَقام كنيسة كاتدرائية على اسم القديس بطرس الرسول (بُنيت هذه الكنيسة في سنتي ١٨٩١ ــ ١٨٩٢) بهندسة بديعة وهيئة سنية وجمَّلها بالآنية الثمينة بين ذهبية وفضية ووضع فيها جملة اشارات ورموز اذ جعل لها ثلاثة ابواب اشارة الى اقانيم الثالوث الاقدس احدها من الجهة الغربية والثاني من الجهة الشمالية والثالث من الجهة الجنوبية وفوق الباب الغربي نقوش بديعة على حجارة من المرمر فالحجر الأَعلى منها على شكل دائرة محفور عليهِ رسم صفحتين من الانجيل الطاهر مفتوحتين ومكتوب عليهما باليونانية من جهة وبالعربية من جهة أُخرى قول السيد المسيح لبطرس « انت الصخرة وعلى هذه الصخرة ابني كنيستي . . واعطيك مفاتيح ملكوت السماوات » ومن فوق هذه الكتابة رسم مفتاحين متعاقدَين ضمن شكل تاج يعلوهُ الصليب وتحت هذا الحجر المستدير حجران متحدّبان على قنطرة الباب مكتوب في وسطهما قول السيد لهُ المجد « انا هو الباب ومَن يدخل فيَّ يخلص » وعلى طرفي الآية في اولها وآخرها مرسوم الحرفان الاول والآخر من

حروف الهجاء اليونانية اشارة الى قول الله تعالى « انا الالف والياء انا الاول والآخر » وعلى قنطرة الباب مرسوم حرفان يونانيان هما كناية عن اسم المخلص « خريستوس » يقابلهما الحرفان الاول والآخر من حروف الهجاء مكرَّرَين ثانيةً وحوالى هذه الحجارة من اليمين واليسار حجران على الايمن منهما محفور تاريخ الكنيسة من نظم العلاَّمة اللغوي الشيخ ابرهيم اليازجي الشهير وهو :

لقد بناهـا الجريجيريُّ اسقفنا ... بيتًا لبطرس تسعى نحوهُ البشَرُ
بفضل امداد لاونَ الذي اشتهرت ... في كل ارضٍ ايادٍ منهُ تنتشرُ
فكان بطرسُ بانيها لبطرسَ من ... كرسيّ بطرسَ للامداد يدَّخرُ
لذاك اضحت وابواب الجحيم الى ... يوم النشور عليهـا ليس [illegible]رُ
وكيف تُغْلَبُ أَرّخ وهي آمنةٌ ... في كل معنىً بها من بطرس اثرُ

١٨٩٢

وتحت هذا التاريخ الشعار الاسقفي وهو رسم التاج ضمن زهرتين وعلى الحجر الايسر كتابة باللغة اللاتينية وهذه ترجمتها « بنى هذه الكنيسة السيد بطرس الجريجيري مطران بانياس وجعلها تحت شفاعة القديس بطرس وتمَّ بناؤها لعهد الاب الاقدس البابا لاون الثالث عشر وعلى نفقتهِ الخاصة في سنة ١٨٩٢ مسيحية » ومن تحت هذه الكتابة رسم التاج البابوي مرفوع على رسم مفتاحين متعاقدين . واما الباب الشمالي فقد كتبت فوقهُ الآية الآتية وهي « ما هذا الا بيت الله هذا باب السماء » وفوق الآية صورة كاس قائمة على نقش بديع وتحت الآية رسم سنابل قمح وعناقيد عنب وهي رمز عن سرّ الافخارستيا المقدس واما الباب الجنوبي فمكتوبة عليهِ الآية القائلة « وانا بكثرة رحمتك ادخل الى بيتك واسجد في هيكل قدسك بخوفك » وفوق الآية رسم صليب بشعاع وتحتها صورة ازهار رمزية . وللكنيسة عشر نوافذ واثنتا عشرة طاقة

کنيسة القديس بطرس الكاتدرائية في الجديدة



تومىء الى وصايا الله العشر والى الرسل الاثني عشر · ولها قبة في قنة سطحها مثمنة الزوايا وقائمة على اربعين عموداً يعلوها الصليب المقدس وهي تشير الى الاربعين شهيداً والى جبل الجلجلة · ولها على اطرافها الاربعة في رؤوس الزوايا اربع قباب معلقة بها اربعة اجراس رمزاً عن الاربعة الانجيليين متى ومرقس ولوقا ويوحنا وكان في نية صاحب الترجمة ان يصنع لهولاء الانجيليين تماثيل لترفع فوق تلك القباب · والكنيسة من داخلها مزدانة بقاطع جميل الصنع (انستاس) وبصور متقنة الرسم وامام القاطع وفي صحن الكنيسة (الخورس) معلق اربعة وعشرون قنديلاً اشارة الى الاربعة والعشرين شيخاً الذين ورد ذكرهم في رؤيا يوحنا · ولها رموز اخرى عديدة يضيق المقام دون تبيانها · وهي قائمة بطول ٤٠ ذراعاً ملكياً (معمارياً) وعرض ٢٤ وعلو ٢٠ ذراعاً على اركان وقوائم مكينة متينة · ولها من حولها اروقة محدقة بها بعرض ١٦ ذراعاً تنتهي الى حدائق نبتت فيها الازهار قرّة للنواظر · وهذه الاروقة تتصل بالدار الاسقفية بممرّ بين الحدائق · وكلتا الكنيسة والدار مسوّرتان بسور واحد ونفقة بنائهما لا تقل عن خمسة الاف ليرة · واشترى اراضي عين القُصَير على مسافة نصف ساعة من الجديدة وبنى فيها مدرسة زراعية علمية لليتامى الذكور من ابناء الابرشية وهي اول مدرسة بنسقها للملة في الشرق وعمارها مؤلف في الوقت الحاضر من كامل الطابق السفلي وقسم من الطابق العلويّ · ولها كنيسة خاصة بها · ومركزها في لحف أكمة عالية ينكشف من قمتها البحر المتوسط وصور وصيداء · وهي تشرف على بحيرة الحولة وسهول مرج عيون والجولان وجبل الشيخ وجبل حرمون · وانشأ لها بجوارها مزرعة وسوّر الدائرة كلها بسور عظيم وجعلها في السنين الاولى من نشأتها تحت ادارة استاذ في الزراعة من الكهنة الفرنسويين · وادخل اليها في بدءها ١٨ تلميذاً ثم زاد عددهم بعد حين · وكان في نيته ان

يجعلها في مستقبل الايام عامة لابناء الملة من سائر الابرشيات على ان يكون المتخرجون فيها بعضهم اساتذة للزراعة وبعضهم معلمين لمدارس الابرشية وبعضهم مرشحين للكهنوت من المدرسة الصلاحية للقديسة حنة بالقدس الشريف او في مدرسة القديس يوحنا الذهبي الفم بباريز . وأَلحق بها صيدلية وخصَّ هذه الصيدلية بقطعة ارض لتبذر فيها انواع النبات والعقاقير . وكان يفكر في ان يضمَّ اليها مدرسة صناعية ايضاً . واما الاراضي التي أَلحقها بها وصيَّرها مزرعة فقد كانت أَودية وتلالاً ومهاوي وجبالاً فسوَّى تربتها وحوَّلها الى قاع سهل وقيل لهُ مرَّةً ان هنالك اراضي مطمئنة فسيحة فما بالك اخترت الآكام والاودية لتطمئنها على ما في ذلك من النفقات الطائلة فأَجاب ان الاراضي المستوية يمكن لغيري ان يحرثها ويزرعها ولكن هذه الاراضي الوعرة قد اخترتها ليعمل بها الفاعل الفقير المعوز ويأْكل خبزهُ بعرَق جبينهِ . فسقياً لهُ ولله درّهُ كم فعل في كرم الرب . وهذه المزرعة تحتوي الآن على نحو الف شجرة فاكهة وعلى اغراس زيتون ومحورة كبيرة ومشتل اشجار بلدية وغريبة وكرمة واسعة وعسَّالة وغيرها ولها في داخل السور عين ماءٍ لريّ اراضيها ومن هذه العين جارية شعبة من الماء الى خارج السور تصب بميزابين في سبيلٍ مُباحٍ للسابلة وفوق السبيل حجر محفورة فيهِ هذه العبارة وهي « بناهُ السيد بطرس الجريجيري مطران بانياس وتوابعها » فنال هذا الباني الاجر الذي وعد بهِ السيد المسيح اذ قال « ومن سقى احد هؤلاء الصغار كأْس ماءٍ بارد فقط باسم تلميذ فالحقَّ اقول لكم انهُ لا يضيع اجرهُ »

وفي زوايا الكنيسة والدار الاسقفية والمدرسة الزراعية نقر الحجارة وانزل فيها قوارير محكمة السدّ والختم ضمنها اوراقاً كتب فيها تاريخ الشروع في كل بناية من هذه الابنية وانهُ كان لعهد جلالة السلطان عبد الحميد

الغازي وقدس البابا لاون الثالث عشر وولاية فلان في الشام و بيروت الخ و بمدة اسقفيته وفي دير ميماس أقام مدرستين للذكور وللاناث و بنى انطوشاً و كنيسةً والحق بها قطعة ارض مغروسة زيتوناً . واشترى المطحنة الشاكرية برحوين . و بنى مطحنة على النهر الليطاني بخمسة ارحاء وسماها المطرانية وضمَّ اليها من حولها اراضي مغروسة توتاً . واشترى المطحنة الكولكية وهي ذات خمسة ارحاء مع اراضٍ واسعة محيطة بها ايضاً و بنى فوق النهر جسراً بقنطرتين بين بلاد الشقيف و بلاد بشارة بغية جرّ المنفعة للمطحنتين الكبيرتين اذ يتسهل ورود اهالي تلك النواحي اليهما ثم انتقض هذا الجسر فأعاد بناءه بقوَّة امتن من قبل وكان الفراغ منهُ في ايام بطريركيته ونظم الاديب عيسى افندي اسكندر المعلوف تاريخاً له نُقِش على احدى حافتيه وهو :

ايادي بطرس فاضت علينا — فأخجل فيضها الهتَّانُ بحرا
وليطانيّ نهرٍ طوَّقتهُ — بإحسانٍ وكان الطوق جسرا
فألسنة المياهِ بلا انقطاعٍ — تقول لمن بهذا الجسر مرَّا
نصوغُ بدرِّ تاريخٍ ثمينٍ — لبطركنا الجريجيريِّ شكرا
سنة ١٩٠٠

واشترى على مقربة من دير ميماس نصف مزرعة هوره بثمن يبلغ نحو الفي ليرة ولم يكن معهُ من الثمن درهم فقيل له كيف تشتري مثل هذا الملك ولا تملك فلساً أجاب اني لست اشتري لنفسي بل اشتري للربّ فهو يرسل لي ولم يمضِ زمن وجيز حتى أوفى القيمة وأضاف الى نصف المزرعة أراضي واسعة واصلحها جميعها وهي تحتوي على خمس مئة عرق زيتون ومحورة واغراس توت . وقد انشأ لها ثلثة حياض لجرّ المياه الى كامل أغراسها و بنى فيها بيوتاً كبيرة لتربية دود القزّ

وانشأ في خربة مرج عيون مصلى ومدرسة واشترى بيتاً لسكنى

الخوري وأعدَّ قطعة ارض لتبنى فيها كنيسة واسعة فيما بعد . ورمم كنيسة ابل القمح بكلفةٍ لا تقل عن مثل كلفة البناء الجديد واقتنى لها ملكاً واقام بجوارها بيتاً للخوري ومدرسة . واشترى في الخيام بيتاً كبيراً قطعهُ ثلاثاً للمصلى ولسكن الخوري وللمدرسة . وبنى في ابل السقي بيتاً للخوري ومصلى ومدرسة واستاجر في قرية بلاط بيتاً وكرَّسه للعبادة بهيئة كنيسة واستاجر فيها ايضاً بيتاً للخوري ومكاناً للمدرسة

وبنى في راشيا الفخار كنيسة باسم المخلص (قلب يسوع) فتهدَّمت ثمَّ أَعاد بناءها على هندسة صحيحة ونظام مستحسن فصارت تُعَد من أَبهى الكنائس الكبرى وجعل في جوارها انطوشاً عظيماً محتوياً على جملة بيوت واقام مدرستين للذكور والاناث والحق بهذه المنشاآت قطعة ارض

وعمر في الخريبة مصلى وانطوشاً ومدرسة . وجمَّل كنيسة حاصبيا واتبع لها انطوشاً ومدرسة . وابتاع قطعة ارض بجوارها والحقها بملكها . ورمم كنيسة الكفير واشترى بجوارها ارضاً ليبني فيها انطوشاً ومدرسة . واتمَّ في راشيا الوادي بناء كنيستها الكاتدرائية واقام بجوارها انطوشاً ومدرسة واشترى فيها ارضاً لدفن الموتى . وانشأَ في كفرمشكي مصلى وبيتاً للخوري واشترى هنالك قطعة ارض

وابتاع الكرسي الاسقفية اراضي « الشميسة » من عمل البقاع بجوار كفرمشكي وعانى من اجل وضع اليد عليها وتسلمها مصاعب لا تقوى عليها الاَّ عظماء الرجال وكان اخر العهد من حلّ مشاكلها في اوائل السنة الحاضرة واقام في عين قنية بانياس مصلى وباشر بناء انطوش ومدرسة واشترى قطعة ارض بجوارها

وابتاع في بانياس اراضي لبذر الحبوب ومحاور واسعة واشترى مطحنة الغجر على النهر الحاصباني وهي ذات ثلثة ارحاء وجدَّد بناءها واضاف اليها اراضي للزراعة واسعة وبنى واسس واشترى غير ذلك مما لا يحضرنا ذكره

اما الكنائس التي كانت من قبل والتي انشأَها من مالهِ فقد ابدع زينتها وحلاها جميعاً باعلى الاواني بين ذهبية وفضية ولا سيما كنيسة الجديدة الكاتدرائية وكنيسة راشيا الوادي وعلق لها الاجراس ولم يُمسك عنها شيئاً تحتاج اليهِ لانهُ كان يحب جمال بيت الله

واما المدارس والكتاتيب التي اسسها فقد جعل التعلم فيها مجاناً واستحضر لها على نفقتهِ معلمين ومعلمات من خريجي مدارس الزحلية ومدارس الراهبات اللعازريات وفي بعضها تدرَّس اللغات التركية والعربية والفرنسوية والانكليزية والتعليم المسيحي والخط والحساب وما سهل من مبادىء العلوم الآلية وفي سائرها تدرَّس القراءَة والكتابة والحساب والتعليم المسيحي باللغة العربية. وقد خرج منها معلمون بارعون ورجال حذَّاق أُحيلت اليهم وظائف مهمة وكانت تحتوي في اكثر الاحايين على زهاء الف تلميذ

وهو لم يكتفِ بهذه المدارس للاحداث بل عين مواعد لتعليم النساء قواعد الدين التمهيدية لتساعدهنَّ على تربية اولادهنَّ وتدريبهم منذ الطفولة على سنن التعاليم الكاثوليكية

وايضاً فانه كان يطوف في نواحي الابرشية مرَّتين ام اكثر في كل سنة عملاً بالواجب على الاسقف ليعهداحوالها ويتفقد كنائسها ومدارسها وكهنتها ورعيتها المسلمة اليه من الله وكان يجري ما يراه مستلزماً من الاصلاحات ويلقي المواعظ لتهذيب الشعب في الآداب الروحية وبهذه المساعي الانجيلية والغيرة الرسولية البطرسية صاد سمكاً كثيراً فكثر ونما عدد ابناءَ ملتهِ ولو شاءَ لانضمَّ الى كرسيهِ كثيرون من ابرشية البقاع وسائر الابرشيات المجاورة كالنبطية وغيرها اذ سأَلوه ذلك مراراً وهو صدَّهم رعايةً لحرمة اساقفتهم ومحافظةً على مبادئهِ القويمة الشريفة المؤسسة على صيانة حقوق الغير

وخلاصة الكلام انه دخل الابرشية وليس له فيها صديق يرُكن

اليهِ وما لبث ان سكنها حتى لم يكن فيها أَحد ولا غروَ من ذلك فانهُ آتاها ما لم يؤْتها غيره من الاوَّلين والآخرين وصنع ما لم يستطاع لسواه من السابقين واللاحقين فقد كانت تلك البلاد مريضةً فشفاها وفقيرةً فاغناها ومتداعيةً فبناها ورميماً فأَحياها وعطلاً فحلاَّها وبالنتيجة فانهُ حوَّلها من حال الى حال ورقَّاها من الحضيض الى فَلَكٍ عالٍ فأَنار عميان الجهل بعلم الحقّ اليقين وفتح آذان الصمّ بفتح كلامهِ المبين وشدَّد المخلَّعين وأَنهض المقعَدين وقوَّى العاجزين وتلك كلها آيات بينات ومعجزات باهرات تشهد لهُ بالسبق في حلبة الجهاد وتخلّد ذكرهُ الطيّب في هاتيك البلاد وحبذا لو سعى اهلها وسيادة راعيها الحالي الجليل في إقامة تمثالٍ لهُ عندهم اعترافاً بفضلهِ الجميل فيكونوا تشبهوا بالمرأَة البانياسية التي مست ثوب المسيح فبرئت وليس هذا عليهم بكثير من منّ الله وفيضهِ

وبعد فانهُ لما استاثرت رحمة الله تعالى بالسيد البطريرك غريغوريوس يوسف في ١٣ تموز سنة ١٨٩٧ أَمست الملة في مسيس حاجةٍ الى رئيسٍ كفوءٍ للرئاسة ومهامها جدير بكفالة اعمالها وادارة زمامها فشخصت ابصار رجالها الا القليلين منهم في جميع الابرشيات البطريركية والاسقفية الى ذاك الذي عمل بالوزنات الالهية فربح اضعافاً وتاجر بخمسٍ منها فكسب الوفاً لكونهم رأَوا فيه مَنْ يرفع للمنصب فخارهُ ويعلي منارهُ وكان الشعب في جميع الجهات يلهج بذكرهِ بكلمة واحدة جامعة تناولت الهرم والشيخ والكهل والشاب والصبي والطفل كأَنها من صوت الله الحي . واتفق ان الكثيرين من السادة الاساقفة حضروا الى بيروت وقتئذٍ بدعوة غير قانونية انفذها اليهم مَن ليس لهُ الحق بها فأُوعز اليهم بالرجوع الى كراسيهم ففعلوا ولكنهم قبل ان يتفرَّقوا فاوضهم الشعب في امر مرشحهِ فطابقت الفئة الكثيرة رأْيهُ واَخلدت اليهِ

وفي ٢٤ تموز سنة ١٨٩٧ نُصِب نيافة السيد كيرلس جحا رئيس اساقفة حلب وسلوقية وقورش قيّماً على المركز البطريركي موقوتاً الى ان يُنتخَب البطريرك الجديد فأدار الاعمال وعرفتهُ الحكومة السنية بصفتهِ هذا على انهُ كان المظنون ان يقوم بهذه الوظيفة سيادة رئيس اساقفة صور بدون تسمية عملاً بالبراءة الرسولية الصادرة من مجمع انتشار الايمان المقدس في رومية مؤرَّخة في ١١ اذار سنة ١٨٥١ وذلك بالنظر الى كون كرسي صور (فينيقية الاولى) هو اقدم الكراسي عهداً بالنشأة ومؤسسهُ هو القديس بطرس الرسول

وفي اوائل تشرين الاول من السنة نفسها دُعي السادة الاساقفة الى الاجتماع في صدد انتخاب البطريرك الجديد فحضر الفريق الاغلب منهم الى بيروت ولكن حدثت وقتئذٍ بعض اسباب تتعلق بادارة المجتمع فأوجبت تاجيل التئامهُ الى أجل غير مسمى وعاد الاساقفة الى مراكزهم وفي تلك الاثناء ورد الامر الكريم من الباب العالي مؤْذناً لهم في عقد مجمعهم لانتخاب بطريركهم بحريَّتهم المطلقة واستقلالهم الكامل طبقاً للعوائد المرعية في مثل هذه الحالة فصدع القيّم البطريركي بهذا الامر وفي منتصف كانون الثاني سنة ١٨٩٨ أرسل لهم رقاع الدعوة للاجتماع في ١٠ شباط سنة ١٨٩٨ في دير المخلص للرهبانية القانونية الباسيلية الحلبية في صربا بالقرب من جونية (من عمل لبنان) فحضر بعضهم الى بيروت قبل موعد الالتئام وتخلف آخرون وفيهم صاحب الترجمة تنحياً منهُ عن الترشح للمنصب فقلق اعيان بيروت لهذا الامر وحرَّروا لهُ الى الجديدة يسألونهُ التعجُّل بالحضور أو انهُ يضطرهم للذهاب اليهِ ليأتوا بهِ حذراً من تجسس وشغب يؤُولان الى شقاقٍ في الشعب فحضر اذ ذاك مسيَّراً بامر الله غير مخيَّر

وفي ٩ شباط سنة ١٨٩٨ كان تكامل عدد مؤلفي المجمع فتوجهوا

الى دير المخلص في صربا ما عدا المرحوم المطران اثناسيوس ناصر مطران القلاية الاورشليمية والنائب البطريركي في الكرسي الاسكندري فانهُ لم يحضر ولا اناب وكيلاً عنهُ بل ارسل باسم المجمع كتاباً مختوماً . وفي ١٠ منهُ عقد المجمع جلستهُ الأولى وهو الحادي والثلاثون بعد المجمع الفلورنتيني وحضرهُ بصفة غير رسمية نيافة السيد بطرس غونزاليس كارلوس دوڤال رئيس اساقفة بترا والقاصد الرسولي في سورية وحضرة الكاهن بيريه كاتب سرّهِ وبعد افتتاح الجلسة بالصلاة تقرّر تسمية المرحوم الخوري مكاريوس جاويش (مصاحب سيادة المطران يوسف الدوماني) كاتباً لاسرار المجمع وتحلَّف اليمين وحُكِم باسقاط صوت السيد اثناسيوس ناصر لخلو كتابهِ من الصيغة القانونية (وهذا الكتاب فُضَّ ختمهُ عقب ارفضاض المجمع واذا في داخلهِ صك من امضاء مرسلهِ يتنزَّل فيهِ عن الصوتين الفاعلي والانفعالي بمعنى انهُ لا يَنتخِب ولا يُنتخَب فكأَني بالمجمع ادرك سرَّهُ فزكَّاهُ وبرَّرهُ) وتعينت مراتب مؤَلفي المجمع تبعاً لتواريخ الرسامة الاسقفية فكانوا على ما يلي . السادة غريغوريورس عطا رئيس اساقفة حمص وحماه وتوابعهما (وكيلهُ في المجمع حضرة الخوري روفائيل ابي مراد وهو السيد بولس ابي مراد رئيس اساقفة دمياط والنائب البطريركي في اورشليم حالاً) وباسيليوس الحجار مطران صيدا ودير القمر وتوابعهما . وملاتيوس الفكاك مطران بيروت وجبيل وتوابعهما . واغناتيوس ملوك مطران الفرزل وزحلة والبقاع (وكيله في المجمع حضرة الخوري باسيليوس ابي بطرس) وكيرلُّس حجا رئيس اساقفة حلب وسلوقية وقورش والقيّم البطريركي . وبطرس الجريجيري مطران بانياس وتوابعها . وجرمانوس معقَّد مطران اللاذقية . وافتيموس زلحف رئيس اساقفة صور (وكيله في المجمع حضرة الارشمندريت يوحنا عكه رئيس المدرسة البطريركية في بيروت) . ونيقولاوس القاضي رئيس

اساقفة بصرى وحوران . واثناسيوس صباغ مطران عكاء وتوابعها . واغابيوس المعلوف مطران بعلبك . و يوسف الدوماني مطران طرابلس الشام

ثم جرت بين هؤلاء الرؤساء مفاوضات بدائية ومداولات تمهيدية مدة اربعة ايام ولم تات بالنتيجة التي يرضى بها الشعب . وفي مساء ١٤ شباط سنة ١٨٩٨ اختلوا برياضة روحية التماساً للوحي الالهي فظلوا عليها ثلثة ايام ثم عادوا الى المداولات الاولى ودامت هذه الحال الى مساء الاربعاء ٢٣ منه والكلمة متفرقة والغايات منبثة على نحو ما كان في انتخاب بعض البابوات مثل اكليمنضوس الرابع عشر (سنة ١٧٦٩) و بيوس الثامن وغريغوريوس السادس عشر (في القرن التاسع عشر) فانه دام التداول في انتخاب الاول ٩٣ يوماً وفي انتخاب الثاني ٣٢ يوماً وفي انتخاب الثالث ٥٠ يوماً وذلك بين جلبة واحتدام واضطراب وخصام . الا انه في مساء اليوم المعين آنفاً حضر من صور على باخرة خصوصية حضرة الخوري ميخائيل زلحف مرسلاً من قبل سيادة شقيقه رئيس اساقفة هذه الابرشية و بيده كتاب منه باسم المجمع فتوجه توًّا الى دير صربا وسلم الكتاب الى اهله . وفي يوم الخميس ٢٤ شباط سنة ١٨٩٨ (الواقع فيه تذكار وجود هامة النبي السابق القديس يوحنا المعمدان) التام المجمع فعرض عليه كتاب رئيس اساقفة صور . واذا هو يقيل فيه وكالة الارشمندريت يوحنا عكه و يستنيب مكانه الخوري ميخائيل زلحف شقيقه فصدق المجمع مآله وعمل بمقتضاه رغماً عن تردد الوكيل الاول في الاعتزال بداءة بدء . و بعد عصر هذا اليوم اختلى اصحاب الكراسي في المصلّى الكائن في الطابق العلوي من الدير لمباشرة الاقتراع السرّي لانتخاب البطريرك وكانوا لا بسين اللاطيات والاونيفوريات والبطرشيلات فاعلن السيد كيرلس حجا تنزلهُ عن الصوت الانفعالي وجيء باناء من ذهب فوضع على مائدة قبالة القاصد الرسولي واقام كاتب اسرار المجمع في

غرفةٍ ملاصقة للمصلى فكان كلٌّ من المنتخبين يذهب اليهِ في نوبتهِ ويملي عليهِ اسم منتخَبهِ ثم يعود الى المصلى وعقب استكمال هذا الاكتتاب أُتي الى اعضاء المجمع باوراق بيضاء فكتب كل منهم بيدهِ اسم منتخبهِ في ورقته والقاها في الاناء الذهبي وعند تمام هذا الاقتراع السرّي القانوني افرغ الاناءُ مما وعاهُ وبدأَ القاصد يفضُّ الاوراق واحدة فواحدة فيتلو الاسم المكتوب فيهِ جهراً ويدفعها الى مَن في جوارهِ وهذا يسلمها الى جارهِ وهلمَّ جرًّا الى ان تنتهي الى مكانها الاول ثم ميَّز نيافتهُ هذه الاوراق ففرز كل اسم من المنتخَبين على حدةٍ وعدَّها فاذا سبعة اصوات وهي الكثرة المطلقة للسيد بطرس الجريجيري وثلاثة اصوات للسيد نيقولاوس القاضي وصوت واحد للسيد اغابيوس المعلوف وصوت آخر للمرحوم السيد اثناسيوس صباغ ثم استُحضرت القائمة التي كتبها كاتب الاسرار فتُليت علناً واذا هي مطابقة لاوراق القرعة فثبت حينئذٍ الرجحان القانوني للسيد بطرس فناداهُ نيافة القاصد فانتصب وسأَلهُ على سبيل العادة المتبعة في التقليدات عما اذا كان يقبل ان يتقلد المنصب البطريركي فتراوح بين السلب والايجاب تجاه ثقل التبعة المتعلقة بالرئاسة الكبرى من جهة وتجاه الغيرة على البيعة والملة من جهة أُخرى وطلب مهلة ليصلي والتمس من شهود المجمع ان يوآزروهُ بالصلاة ايضاً ليُلهَم الى ما فيهِ الخير والمصلحة فسجد وصلى وفعلوا كما فعل وذرَفت عيناهُ ولا ندري ما دار في خلدهِ في ذلك الوقت أَوصية أُمّهِ لهُ قبل وفاتها في ان يتخلى عن المنصب العالي الذي يُعرَض عليهِ لكونهِ يمنيهِ بالقلق والمتاعب ام التحذر مما تهددهُ بهِ الشعب وانهُ يضحي نفسهُ فديةً في خدمة الكنيسة والملة فنادى بهِ القاصد باسم الكرسي الرسولي بطريركاً للروم الملكيين الكاثوليكيين على كراسي انطاكية واسكندرية واورشليم وسائر المشرق وسمي بطرس الرابع وكانت المناداة بهِ اذ مالت الشمس للمغيب ففي الحال

رنم اعضاء المجمع الذكصالوجيا ميغالي والبوليخرونيون (الدعاء البطريركي) ومشوا امام بطريركهم الجديد في موكب جليل الى كنيسة الدير الكبرى في الطابق السفلي وقرع جرس الدير وقابلته اجراس الجيرة من المعابد والاديار في صربا وجونية وزوق ميكائيل وغيرها وفُتحت الابواب التي كانت موصدة فدخل مئات من خاصة القوم وعامتهم كانوا حول السور يستروحون النبأ ببلوغ الامنية ولحقوا بالموكب السائر الى الكنيسة وسيماء السرور والبشر لامعة في وجوههم تدلّ على ما في قلوبهم من هزّة الطرب وريثما وصلوا جميعاً الى الكنيسة تصدر البطريرك في باب الهيكل الكبير وجاء سيادة المطران كيرلس نجا بعصا الرعاية فوضعها امامهُ وصار المطارنة ووكلاؤُهم يقبضون على العصا بايديهم من نحو وسطها فما فوق بحسب مراتبهم في الرسامة الاسقفية حتى انتهى الدور الى وكيل رئيس اساقفة حمص وحماة فحينئذٍ وضع السيد البطريرك بطرس يدهُ عليها من فوق ايديهم فتركوها وبقيت في يدهِ ليهشّ بها على غنمهِ الناطق وبارك الجمع وتقدم نيافة القاصد الرسولي فهنأهُ ثمَّ تقدَّم السادة المطارنة ووكلاؤُهم فلثموا يدهُ وهناوهُ وحذا حذوهم سائر الحضور ودعوا لهُ ثلاثاً بالعمر المديد وهكذا تمت حفلة السيامة البطريركية الشريفة وصعد غبطتهُ الى ردهة الدير في مثل الموكب الذي نزل فيهِ الى الكنيسة وهناك اخذ يتلقى جماعات المهنئين وكانت البشرى طارت على اجنحة البرق الى بيروت وغيرها من البلادِ المجاورة فقُرعت فيها اجراس الكنائس ليلاً وزينت بعض البيوتات واُطلقت السهام النارية تشق كبد السماء ايماء الى فرط سرورها بنيل ما كانت تتوق اليه وتوجه كثيرون في الليلة نفسها ليرفعوا الى غبطتهِ فرض التهنئة ويعلنوا ما أكنَّتهُ سرائرهم فشكر للجميع حسن ما أَبدوهُ من الثقة بهِ وسال السادة الاساقفة موآزرتهُ ودعا لجلالة مولانا السلطان الاعظم ولقدس البابا الطوباوي في خطاب نفيس

ارتجله فوراً

وفي اليوم التالي وهو اليوم الاول من بطريركته رُفع اسمه في القداس الالهي في اطراف العالمين لانها كانت تسابقت الاشارات البرقية اليها خصوصية وعمومية . ونشرت الخبر جرائد الدنيا قاطبةً واطرأت البطريرك بما هو اهله . واستولى الهناء على جميع القلوب من جميع الملل والمذاهب لما كان للرئيس الجديد من رفيع المنزلة وعظيم المحبة عندهم واخذوا يتبادلون التهانئ ويتقاسمون حظوظ المسرَّة راجين منه نفعاً عميماً وخيراً كثيراً ولا سيما جمع الشتيتين وتقريب المتباعدين لانهم عرفوه انه هو رسول السلام الغيور والوطني الصادق الناطق بالالفة في كل زمان ومكان

ومن بكرة هذا اليوم رفع غبطته الى الاعتاب الشاهانية الوكة تلغرافية أعرب فيها عن عبوديته وخلوصه الذات السلطانية المعظمة وعن استعداده لتنفيذ نياتها المقدسة والقيام بخدمتها كما هو مفروض بواجب الذمة على صادقي التابعية ثم اعلن عن اشتراكه مع ابناء ملته وعموم الرعية العثمانية في مواظبة الدعاء لله تعالى بتاييد العرش السلطاني الانور وتأييد اركانه السنية

ورفع خبر انتخابه الى ملجإ الصدارة العظمى والخديوية المصرية ونظارتي الداخلية والعدلية وولايات سورية وبيروت وحلب وآطنه ومتصرفيتي لبنان والقدس الشريف وغيرها من المقامات التي تنبسط اليها ولايته البطريركية . وكتب بمثل ذلك الى قدس البابا ومجمع انتشار الايمان وسائر المراكز السامية في الديوان الفاتيكاني والى وزراء بعض الحكومات الاجنبية وسفرائها لدى الباب العالي وغيرهم من ذوي المكانة الرفيعة . ورفعت الى الباب العالي ايضاً عريضة وقعها جمهور الاساقفة واعترفوا بها ان الانتخاب قانوني واستمنحوا لغبطة البطريرك البراءة الشاهانية ومن قبل بروز الغزالة بكرت الى دير صربا وفود المهنئين افواجاً



البطريرك بطرس الجريجيري حين رسامته

من جميع النواحي فاستقبلهم غبطته بالمحيا الطلق والثغر الباسم وآنسهم بما أودع الله فيهِ من الرقة والدعة · ووفد اليهِ ايضاً جماعة من المصوّرين واخذوا رسمهُ الكريم بالفوتوغرافيا على ضروب واشكال وتوزَّعت صوَرهُ بين الناس للتبرُّك بها فلم يخلُ منها منزل

وفي اليوم نفسهِ قدم لتهنئتهِ كثيرون من السادة الاساقفة والكهنة من جميع الملل النصرانية وفي طليعتهم مندوبان من قبَل الطيب الذكر السيد يوحنا الحاج بطريرك الملة المارونية وهما السيد المطران يوسف دريان النائب البطريركي والسيد المطران بولس عواد المعاون البطريركي ومعهما كتاب منهُ لهُ بهذا الصدد وقد صحبهما السيد بولس مسعد رئيس اساقفة دمشق فاعربوا جميعاً لغبطتهِ عما حاق ببطريركهم وبهم وبسائر الاساقفة وافراد الملة المارونية من الجذل لتبوّؤهِ بالكرسي البطريركي فشكر لهم غبطتهُ حسن نياتهم وكلفهم بابلاغ تشكراتهِ الى غبطة بطريركهم الشيخ الجليل بعبارات هي من السحر الحلال أو هي ارقّ من نسيم السحَر وساروا من لدنهُ مطلقين ألسنة الثناء على ما عرفوهُ فيهِ من خبرٍ بعد الخبر وعما شهدوهُ بالعين إثر الأثر وما لبثوا ان برحوا من حضرتهِ حتى ألحقهم بوَفدٍ من قبلهِ الى السيد البطريرك يوحنا في كرسيه في بكركي مؤلف من السيدين المطرانين باسيليوس حجار واغابيوس معلوف يحملان كتاب التشكر من المرسِل الى المرسَل اليهِ فقابل هذا الوفد حسن المجاملة وعاد شاكراً مادحاً

وفي مساء ذلك اليوم قبل ان تغرب الشمس طلعت في سماء دير صربا شموس واقمار بين انوار ساطعة والعاب نارية لامعة وسهامٍ في الجوّ شائعة تزري بالنهار وتباهي الفلاك السيار وهكذا جرى في زوق ميكائيل وأديارها وفي كل القرى التي بجوارها واصاب بيروت النصيب الوافر من هذه المظاهر كل ذلك والسيد البطريرك بين حاشيتهِ من

اساقفة وكهنة وعامة وهم يحيطون به احاطة الهالة بالقمر وهو يلقي عليهم الدرر تشنف السمع وتبهر النظر

وكان اليوم الثاني كالاول نهارًا وليلاً من كثرة الوفود وتألق الزينة وفيهِ تبودلت الزيارة الشخصية بين السيدين البطريركين في بكركي وفي دير صربا وجرت على احسن ما يرام من لطف المقابلة وشرف المساجلة ولدى عودة صاحب الترجمة من بكركي زار مدرسة عين طورة ثم دير سيدة البشارة ثم دير الملاك ميخائيل للراهبات القانونيات التابعات للرهبانيتين الحنّاوية والحلبية فقوبل في الاندية الثلاثة بما يليق من التجلة والاعتبار ورُفعت قباب النصر في بعض الطريق وفُرِش بعضها بالزهر اكراماً لهُ

على انهُ بين تجالي هذه الافراح فاجأهُ نبأ برقي يشير الى وفاة المثلث الرحمات السيد اغناتيوس ملوك مطران الفرزل وزحلة والبقاع فكان لهُ عندهُ وقع مؤثر وقد بعث من قبلهِ السيد المطران نيقولاوس القاضي الى زحلة لينوب عنهُ في تعزية ابناء الابرشية وليقيم الجناز على نفس المتوفى بهيئة احتفالية . . واقام على الابرشية حضرة الخوري سيروفيم الشميل احد مدبري الرهبانية الباسيلية الحناوية نائباً بطريركياً وفي ذلك الزمن اقام ايضاً نائباً بطريركياً على ابرشية بانياس حضرة الخوري اكليمنضوس المعلوف من الرهبانية الباسيلية المخلصية (وهو سيادة المطران اكليمنضوس المعلوف راعيها الحالي)

وفي صباح يوم الاحد ٢٧ شباط سنة ١٨٩٨ كان موعد القداس الاول الاحتفالي لبطريركيتهِ نخفّ الى دير صربا قوم لا يحصى عددهم من بيروت ولبنان وغيرهما وعند منتصف الساعة التاسعة افرنجية نزل السيد البطريرك من الردهة في موكب مؤلف من نيافة القاصد الرسولي والسادة الاساقفة وطغمة الكهنة وهم ينشدون امامهُ الالحان الكنسية الى

البيعة فمرَّ بحوش الدير بين جماهير الخلق وهو يبش بهم وهم يهتفون بالدعاء لهُ وعلى وجوههم علامات الابتهاج تدلّ على ما طوته قلوبهم من التعلق والاستمساك بهِ . وكان الاحتفال بالقداس مهيباً ذا وقارٍ لاجتماع زمرة من الاساقفة في معاونة السيد البطريرك مما لم يسبق شهود مثلهِ بين مثل هذا الجمع الغفير . وقبل تلاوة الانجيل الطاهر رقّى غبطته حضرة الخوري ثاوفانوس البدوي (الرئيس العام للرهبانية الباسيلية الحلبية لذلك العهد) الى رتبة ايكونوموس . وفي وقت الكونيكون وقف حضرة الخوري روفائيل ابي مراد (هو المطران بولس ابي مراد حالاً) على مرتبة في الكنيسة والقى خطبة نفيسة جمعت فأوعت اذ عدد فيها مناقب السيد البطريرك ومآثره الغرّاء والمع الى ما كان من الزعازع التي اوشكت ان تؤدي بالكنيسة الرومية الملكية الكاثوليكية وبملتها لولا ان تداركتها عناية الله تعالى وحكمة السادة الاساقفة بانتخاب هذا السند الاوحد لرئاستها ولقبهُ بالراعي الابرّ الذي يفدي نفسه دون قطيعهِ وبالوطنيّ الصادق الذي يتفانى في خدمة وطنهِ على نحو ما تعوّد منذ صغرهِ وبالعثمانيّ المخلص العبودية للعرش السلطاني الانور ثم ختمها بالدعاء لجلالة المتبوع الاعظم . وفي نهاية القداس خطب السيد البطريرك في القوم خطاباً بليغاً نضده ونسقهُ من دراري الفاظهِ بحمدِ الله على نعمه التي تدوم بالشكر واحسن الثناء على قدس البابا وشكر السادة الاساقفة على اختيارهم اياهُ والملة على ثقتها بهِ وامتدح شعائر رؤساء سائر الملل وخصَّ بالذكر المثلث الرحمات السيد يوحنا الحاج بطريرك الملة المارونية والسادة اساقفته لاهتمامهم في ابان المجمع بالصلاة من اجل انتخاب بطريرك جدير بالمنصب ثمَّ حثَّ الحضور على اختلاف مذاهبهم بالتحاب والتواد والتآلف فكان لكلامهِ هذا اشد تأثير في النفوس لصدوره من صدر حبر تصدَّر بالمناداة بهِ قبل سائر الاحبار ثمَّ جعل مسك ختام خطابهِ الدعاء لصاحب

الشوكة والاقتدار السلطان الاعظم وأوصى الجمع بوجوب الخضوع والطاعة لاوامر الحكومة السنية عملاً بما يأمرنا به الدين لان كل سلطة هي من الله · وعند ذاك سُمع من خارج البيعة دويّ البارود كالرعد القاصف ينطلق مثنى وثلاث ورباع وسداس كما في عُراضة غير قابلة الوصف اشارة الى تامين الجمع على فحواه خطاب السيد البطريرك

ولما همَّ غبطتهُ للخروج من الكنيسة أُطلقت البنادق والمسدسات ترحيباً بهِ فمشى امامهُ السادة الاساقفة وسائر الجوقة الكهنوتية وسار بين الجمع وهم يتسابقون للتبارك منهُ حتى كادوا من شدة الزحام ان يحملوهُ فوق الرؤوس · وريثما وصل الى الردهة واستراح قليلاً واقتبل بعض الموفدين لتهنئتهِ من قبل المقامات العالية والقنصليات سأله بعض اعيان الملة الخروج الى شرفة في الرواق تطلّ على باحة الدير لاستماع ما أعدَّه الشعراء والخطباء من التهانئ لغبطتهِ فأجاب السؤال وما استقرَّ بهِ الجلوس حتى قامت سوق عكاظ فبدأ الادباء يتسابقون لتمداحهِ ويتنافسون بتقريظهِ ووجدوا مجال القول واسعاً فأطنبوا ولولا ان اذنت ساعة الظهر بالغداء لداموا على ذلك الى المساء وما انقضت لهم لبانة ولا نفدت منهم عدّة · ولقد شكر لهم غبطتهُ بعاطفة ابوية ما اظهروه من الشعائر البنوية وعاهدهم على ان يبلغ الملة الامنية التي ترجتها فيهِ بحول الله وطوله · وحضر المحفل كثيرون من الرسامين فنقلوا هيئتهُ بالفوتوغرافيا فجاءت غاية في الإبداع واقتنتها عامة الناس ذكراً جميلاً لهذا المشهد العظيم

وعدا الخطب والقصائد التي القيت في هذه الحفلة تقدَّم له في ايام مكثهِ في صربا تهانئ عديدة نثرية ونظمية يزلّ الحاسب ان عدها بالمئات فهي فوقها وقد نشرت نبذة منها بكتاب « التحفة الملية » لجامعيهِ الاديبين قيصر افندي بوبز واسكندر افندي انطون الخوري واما الكتب الخطية والرسائل البرقية التي تواردت اليه من دقيقة انتخابهِ فكانت تحمل

اليهِ من جونية و بيروت أ كداساً بعضها فوق بعض وهي لو جمعت في مجلد واحد لكان من اجسم المجلدات حجماً ، ومن تلك الكتب رقيم من فخامتلو دولتلو عباس الثاني خديو مصر يظهر فيه فرط سرورهِ لارتقاء غبطتهِ الى المنصب البطريركي و يتمنى لهُ ولرعيتهِ مزيد التوفيق وغاية النجاح . ومن هذه الرسائل البرقية ثلاث من نيافة الكردينال رامبولا وزير الديوان البابوي عن لسان قدس رئيسه الحبر الاعظم يحدد بها ختم المجمع على سنن القوانين الملية ويهنئ السيد البطريرك ويعلن سروره من انتخابه للسدة البطريركية و يشكر له تهنئته اياه في مناسبة عيد التتويج البابوي الذي صادف وقوعه في ذلك الاوان ورسالة أُخرى من نيافة الكردينال لودوكوسكي رئيس مجمع انتشار الايمان المقدس يهنئهُ فيها بالمنصب ويكشف عن ابتهاجهِ باحالتهِ الى عهدتهِ ويتوسم من وراء ذلك منافع جمة للكنيسة الرومية الملكية الكاثوليكية وفوائد تعود عليها بالسعادة والفخر .

وفي هذه البرهة استحضر من الشام الى دير صربا حضرة الايكونوموس ميخائيل شريم وحضرة الخوري يوسف هنا كاتبي اسرار الديوان البطريركي ومعهما السجلات والاطراس البطريركية وسائر الاوراق والمحفوظات ففحصها ودقق فيها النظر وسيَّر الموقوف منها وخصوصاً التي كان مرَّ عليها الزمن الطويل من عهد اعتلال الطيب الذكر البطريرك غريغوريوس سلفهِ وادار بقية الاعمال بحكمتهِ واصالة رأْيهِ ومع وفرة اشغالهِ وانهماكهِ في تصريفها لم يكن يخلو مجلسهُ من المهنئين والزائرين من اهل البلاد الدانية والقاصية عدا اصحاب الدعاوي والمشاكل الذين كانوا ينصرفون من لدنهُ حامدين مادحين وكلٌّ منهم مرتضٍ بالحق الذي اعطيه عدلاً وشرعاً

ومن ديوانه البطريركي في دير المخلص بصربا اصدر في ٩ اذار سنة

١٨٩٨ منشوره الاول الى اكليروس وشعب الروم الملكيين الكاثوليكيين قال فيه بعد المقدّمة انهُ عند انتخابه للمنصب البطريركي السامي تولته الهيبة من المسؤُولية الكبرى المرتبة عليه ونوى الانسحاب منه ولكن خشية ان يتأَتى عن ذلك مسؤُولية اكبر ازآء ما يمكن حدوثهُ من الاضرار الروحية للنفوس الكريمة رأَى قبل الاعتماد النهائي ان يسترشد الروح الكلي قدسهُ فجثا ازآء العزّة الالهية وكلف السادة آبآء السينودس ان يجثوا معهُ ويشاركوه في الابتهال الى الله ليلهمه الى ما فيه ارادته الالهية ففي هذه الاثناء شعر باطناً ان الله تعالى هو الذي يدعوه الى هذه المهمة الخطيرة معلناً له ارادته بلسان السينودس القانوني المقدس فحنى عنقه الواثي تحت هذا النير الثقيل معتمداً في القيام بواجباته الهامة على عون الرب القدير الذي قوّته في الضعف تكمل وعلى السادة الموآزرين له في خدمة رسالته الخلاصية وعلى ما توسمه في شعوب كراسيه البطريركية المحبوبين من التقوى والفضل وحسن الاستعداد لطاعته والانقياد لارشاداته الصالحة في كل ما يوجب مزيد المجد للرب والخير الروحي والادبي لابناءِ كنيسة الله المقدَّسة ثمَّ ضمنه بابلغ عبارة وافصح مقال خلاصة ما في نفسه من صالح النيات وهي توجيه معظم اهتماماته البطريركية الى مزيد اتقان استعدادات الطغمة الاكليريكية عالمية وقانونية في العلم والفضيلة واسناد المدارس الكهنوتية الاكليريكية والرهبانية ورفعها الى المقام الكافل للكنيسة خيرة الفعلة الروحيين الذين هم رسل الخلاص والسلام بين الانام حتى لا تبقى الرعية اعلى رتبة من الرعاة وحتى يتمَّ بذلك مجد الله. والداب في رعاية زمام جميع الشعوب المحيطة به من كل مذهب ومشرب وحفظ رُبط السلام والوئام معهم جميعاً واعتبارهم اخواناً في الجنسية والوطنية ومدّ يد الولاء والاخاء اليهم واعطاء كل ذي حق حقه وتبادل الحب وصفاء الوداد اتماماً لبرّ الله وقياماً باوامر الحبر الازلي

والمعلم الالهي يسوع المسيح القائل بانجيلهِ الشريف « وبهذا يعرف الجميع انكم تلاميذي اذا كنتم تحبون بعضكم بعضاً » (يوحنا ١٣ : ٣٥) . وتربية الاحداث ذكوراً واناثاً على مبادئ الدين المسيحي القويمة واساس حب الوطن العزيز وتعزيز المعاهد العلمية واكثار الوسائل المؤدية الى تنوير الاذهان بالعلم والنفوس بالايمان لان الاحداث هم مستقبل الكنيسة المقدسة ورجاءُ الوطن المحبوب . ومساعدة الجمعيات الخيرية الملية واعالة النقير البائس وموازرته في حاجاته الجسدية والروحية وتعزيز اعمال وكلاء الكنائس ومديري الاوقاف والسير في مقدمة المجالس البطريركية الملية (المعروفة بالقومسيون) بالذمة والعدل والانصاف حباً لترويج اعمال الطائفة ضمن الدوائر المرسومة من الحكومة السنية ايدها الله . وكرامة اشخاص رؤساء الاساقفة والاساقفة واحترام ما لهم في ابرشياتهم الخاصة من الحقوق والامتيازات في الحق القانوني والناموس البيعي لكونهم اخوة البطريرك ونصراءهُ في رسالة الخلاص . والاهتمام الخاص بابرشية بانياس العزيزة لدى فؤاده والتي لها عنده المركز الممتاز لكونها غرسة يده وابنة اعراقه وجعلها دائماً نصب العين دون ان ينسى ما لها عليه من الدالة وما له عليها من الانعطاف الابوي . وعقد النية على عمل كل ما يريده الله من الخير ويوفقه الى فعله دون ان يكلفه احد الى ما لا يستطاع او يخالف المصلحة العامة او يوقع الضرر بالقريب او ينافي سلامة الضمير المستقيم حتى يكون كلاً للكل ليربح الكل ويقف معهم لدى الديان العادل قائلاً بدالة مع اشعياء النبي « هاءنذا والابناءُ الذين اعطانيهم الله » واخيراً رفع في منشوره فروض الشكر الى قداسة الحبر الاعظم البابا لاون الثالث عشر لما ابداه نحوه من العناية الابوية والانعطاف الرسولي مؤيداً بذلك ما اشتهر به من الحب الحقيقي للكنائس الشرقية ودعا له بطول البقاء لاجل مجد الله وخير كنيسته الجامعة المقدسة الرسولية .

ثم اعترف بمودَّة وكرم اخلاق كل الطوائف الشرقية والرهبانيات والرسالات الكاثوليكية والنفوس التقية · وجعل مسك الختام الفقرة الآتية وهي « ولما كنا وكنتم جميعاً ايها الروم الملكيون الكاثوليكيون من اخلص العبيد الامناء واصدق الرعايا الاخصاء للاريكة العثمانية المجيدة والظافرين بشرف التابعية العثمانية الكريمة فعلينا جميعاً ان نزداد تمسكاً باذيال العرش الحميدي الانور ونخلص قلباً وقالباً الطاعة والصداقة والامانة لدولته العلية الابدية الدوام معترفين لمولانا الاعظم ومتبوعنا الانخم صاحب الشوكة والاقتدار السلطان ابن السلطان السلطان الغازي « عبد الحميد خان » بالفضل والاحسان والنعم الحسان الشامل بها كل رعاياهُ العثمانية في جميع ممالكه المحمية ولنجعل مسك الختام اعلاء اصواتنا الابتهالية الى الله تعالى بكل قلب ولسان هاتفين جميعاً · فليحيَ مولانا وسيدنا وسلطاننا الاعظم ولتحيَ دولته العلية الى آخر الايام آمين » انتهى

وفي النصف الاول من شهر اذار سنة ١٨٩٨ صدق مجلس الوكلاء الفخام في استانة العلية على بطريركيتهِ ورفع قرارهُ الى المابين الهمايوني · وفي ٢٤ منهُ قرَّر مجمع الكرادلة تثبيت بطريركيتهِ ومنحهُ قدس البابا البراءة والدرع اللذين اعتاد بطاركة الملة ان يتنحاهما منه

وقد كان تعين ان يبارح غبطتهُ دير صربا الى بيروت في نحو الساعة الثانية بعد ظهر يوم الجمعة ٢٥ اذار سنة ١٨٩٨ فقبل الموعد هرع الى صربا نحو ستمئة رجل من ابناء الملة على زهاء ١٨٠ مركبة ووقفوا هنالك ينتظرون طلوع ذلك الحبر الاكبر فلما خرج من باب الدير والى يسارهِ سيادة المطران باسيليوس الحجار في مركبة فاخرة (قدَّمها المرحوم حبيب باشا المطران فقيد الملة والوطن) هتف الجمع بالدعاء لغبطته ووسعوا الفضاء لمسير مركبتهِ الى ان مرَّت فلحقت بها مركبات بقية الاحبار السادة نيقولاوس القاضي واغابيوس المعلوف ويوسف الدوماني

ومركبات رؤساء الرهبانيات والحاشية البطريركية وسائر الكهنة ثم تلتها مركبات الملاقين فكانوا جميعاً في موكب واحد يحفه النظام والفخار ويرافقه الاجلال والوقار وكانت اعدَّت في الطريق زينة باهرة من قباب نصرموشاة بالدمقس والازهار واكاليل نخل محبوكة اطرافها باوراق الغار الى غير ذلك من مظاهر الابهة والاعتبار فمرَّ بينها الموكب وحواليهِ صفوف من الخلق ملأَت الجانبين وهي تحيي البطريرك وهو يرسل اليها البركة بالقلب واللسان واليدين . وعند كل معبد من معابد المارونيين والروم الارثوذكسيين كان يستقبله فريق الاكليروس بالملابس الكهنوتية والصليب المقدس والانجيل الكريم وبقرع الاجراس فيترجل غبطته ويقبل الصليب والانجيل بخشوع ويشكر الكهنة والعاميين ويقدم للمعبد بعض المال الى ان وصل الى ساحة البرج في بيروت فكانت كاظة بالجمع الجم من البشر وعلى وجوههم اثار البهجة والبشر فباركهم وبقيت المركبة سائرة بهِ الى مدخل الكنيسة الكاتدرائية فترجل هناك والبس الغفارة (المتية) ومشى بين الزينة المصنوعة احتفاءً به واستقبله سيادة المطران ملاتيوس الفكاك وسيادة المطران كيرلس حجا والكهنة بالملابس الكنسية والصليب والشمع والبخور ومشوا امامه يرتلون الاناشيد الدينية وتلامذة مدرستهِ البطريركية يضربون بموسيقاهم والناس تطلق البنادق والمسدسات من كل صوب الى ان دخل الكنيسة فسجد وصلى وحمد الله على الائه الجلى ثم تسنم المنبر وفاه بخطاب كله دُرَر ابان فيه ببلاغة حسن استعداده لشدّ ازر الملة واوصاها بالتآلف والتحابّ والاتحاد مع سائر الملل في ظل راية السلام والامان ودعا لجلالة المتبوع الاعظم بالعمر المديد والنصر المجيد وشكر للجمع ما قام بهِ ازاءهُ من الحفاوة وابداهُ من شعائر التعلق بهِ واخيراً دعا لقدس البابا الطوباوي لعنايتهِ بترفيع شأن الكنائس الشرقية فكان لخطابهِ في كل قلب رنين استحسان

وبمثل الاحتفال الذي دخل فيهِ الى الكنيسة خرج منها قاصداً مدرستهُ فتبعتهُ المركبات العديدة تقلُّ كثيرين من وجوه الاهالي على اختلاف مذاهبهم وكانت التلامذة سبقتهُ اليها فاصطفت خارج بابها الكبير يمنةً ويسرةً وذرَّت الازهار على الطريق ورشقت الابواب والمداخل بالاطلس والرياحين واحتشد ثمة مئات بل الوف من الخلق من الجنسين يتطالون للتيمن بطالع القادم الكريم فلما اقبل قوبل من التلامذة باصوات الدعاء ومن الرجال باطلاق البنادق فبارك وشكر ودخل باسم الله وامامهُ فرقة المرتلين يغنون الالحان الشجية تأهلاً بهِ الى ان امَّ قاعة الاستقبال فجلس في صدرها وجاء الزائرون افواجاً يعيدون آية الهناء على بدءها وهم يودون لو دام لهم البقاء في حضرتهِ طويلاً . وفي اثناء ذلك تليت له من الاساتذة والتلامذة وغيرهم تهانئُ وتقاريظ منظومة ومنثورة كلها تكشف عن سرّ القلوب وتعلق المحبوب . وما مالت الشمس للمغيب حتى اشرقت الانوار تتألق بسطيعها من شرفات المدرسة ومنازلها وسطوحها ونوافذها وجدرانها حتى خيل انها ضرَّة القمرين واديرت الالعاب النارية على تنوع ضروبها وافانينها فكانت السيارات في افلاكها وارسلت السهام الى العلاء تشق الحجاب فعادت متناثرة كانها الدرّ خرج من اصدافه كل ذلك والسيد البطريرك يتمشى بين صفوف التلامذة القائمين بادارة هذه الزينة وهو يلاطفهم وهم يتقربون اليه كالاب بين بنيهِ ثمَّ يرجع الى زائريهِ فيلقاهم وقد زادوا شغفاً بهِ وشوقاً اليهِ ولم تنحصر الزينة في تلك الليلة في المدرسة وحدها بل شاركتها فيها عدة بيوتات لاعيان الطائفة ومجاوري المدرسة بين ايقاد مشاعل واضاءة انوار غازية ورشق سهام كروية وادارة العاب نارية . وعلى هذا الحال وبين هذه المظاهر انتصف الليل فانصرف الجميع وفي الافئدة ذكرى من ذلك اليوم وأملٌ للاجتماع في اليوم التالي

واستمرّت الاعياد تتوالى والمنزل البطريركي محطّ رحال الوفود من المهنئين وغيرهم الى صباح اول نيسان حيث همّ غبطته للسفر الى زحلة بالسكة الحديدية فشيعه الى المحطة فريق من اعيان الملة وسار في معيتهِ الى محل قصدهِ حضرة السادة نيقولاوس القاضي واغابيوس المعلوف و يوسف الدوماني وكاتبي اسرار ديوانهِ و بقية الحاشية والخوري روفائيل ابي مراد و بعض اعيان بيروت وكان له احسن استقبال في جميع المحطات التي مرَّ بها القطار الى ان وصل الى محطة سعدنايل فقابله ثمة كثيرون وفي مقدمتهم جناب الوجيه الخواجا نجيب نخله مدوّر وسأله زيارة منزلهِ في مزرعة تعلبايا فتكرّم بالاجابة وتناول عنده الغداء على اطيب ما لذَّ وراق مما هو معهود من مكارم الاخلاق في آل مدور الاماثل · وبعد ذلك بدأت تموج وفود الزحليين ومواكبهم في تلك البقاع فركب غبطته على مركبة فاخرة قاصداً مدينتهم ووطنه الاصلي بين جمع من الملاقين لا يقلّ عن عشرة آلاف نفس بعضهم على المركبات وبعضهم على الصافنات وآخرون مشاة الى ان وصلوا الكنيسة الكاتدرائية فقابله الكهنة بملابسهم الكهنوتية والقى على الحضور خطبة تناسب المقام فشكر لهم حسن مظاهرتهم باستقبالهِ وعزّاهم لفقد راعيهم الجليل ثمَّ طلع ردهة الدار الاسقفية فأخذ المهنئون يقدمون اليهِ افواجاً ويلثمون انامله الكريمة وهو فيهم كالابن والاخ والاب بين والديهِ واخوتهِ وبنيهِ وفي تلك الليلة نزعت المدينة الحداد الذي كانت لبسته على راعيها المثلث الرحمات واتشحت بحلة بهية من الزينة الباهرة · ثم في صباح اليوم التالي اقام غبطته القداس والجناز باحتفال حبريّ على نفس مطران الابرشية المتوفى فحضرهما اعيان الملة وغيرهم من كبار القوم من سائر الملل وفي ختامهما أبن غبطته الفقيد بما استدرَّ عليه الرحمات

وعند ظهيرة اليوم نفسهِ بارح غبطته زحلة شاخصاً الى الشام وفي

بمعيته المعية المعينة اسماؤهم آنفاً وفريق من اعيان تلك الحاضرة كانوا حضروا الى زحلة لتهنئته ومرافقته الى بلدتهم فودعه الزحليون بمثل ما قابلوه من التجلة والاعتبار وقد صادف في طريقه شيئاً كثيراً من مظاهر الاحتفال في جميع محطات السكة الحديدية الى ان بلغ ربوع الميدان فلقي ثمة اهل الشام منتشرين آلافاً ينتظرون قدومه فلما ابصروه استبشرت وجوههم وتهللت قلوبهم وتهافتوا لقبلة راحتيه وتهنئته بالوصول سالماً ثم ساروا به وهم بين راكبي مركبات وفرسان ومشاة في موكب ندر مثله بكثرة العدد والابهة واخذت سلامه فرقة من الجنود الشاهانية المظفرة لدى مروره امام دار الحكومة السنية والثكنة العسكرية. ولما وصل غبطته الى مدخل محلة زيتون ترجل وتردّى الغفارة وهناك حدّث عن الزينة ولا حرج فان المحلة كانت متحلية بقباب النصر والاغصان والازهار والاعلام فمشى غبطته ووراءه تلك الجموع الغفيرة وامامه طغمة من الكهنة استقبلوه بالحلل والالحان الكنسية ومعهم جوق من التلاميذ الحدثان يحملون الشموع واغصان الزيتون ويهتفون قائلين « مبارك الآتي باسم الرب » وفي ذلك تورية مزدوجة من حيث تشبيه دخول السيد البطريرك الى الشام بدخول السيد المسيح الى اورشليم وموافقة يوم وصوله اليها عشيّة احد الشعانين الذي تقال فيه هذه الآية. ولدى بلوغ الموكب الى باب الكنيسة دخل غبطته ووراءه الحشد وارتقى المنبر فخطب في القوم خطبة رنانة اودعها من اسرار حكمته ما استحكم في قلوب السامعين من الحضّ على الاخاء والتآلف والوئام بينهم على تفاوت احزابهم ومذاهبهم وختمها بالدعاء لجلالة السلطان الاعظم المستظلة تلك الاقوام في فيء حماه الامين. ثم صعد الى ردهة الدار البطريركية فاقبل الناس عليه يعيدون التهانئ ويتلون التقاريظ الشعرية والنثرية وما سدل الليل ستاره حتى انزاح بكواكب الانوار اللامعة في الدار

البطريركية وادوُر الاعيان من ابناء الملة

وفي صباح يوم الاحد وهو عيد الشعانين اقام غبطتهُ قداساً حبريًا وفي اليوم التالي اتبعهُ بقداس وجناز على نفس سلفهِ الطيب الذكر البطريرك غريغوريوس يوسف وفي الختام أَبنهُ بخطاب بليغ عدَّد فيهِ مناقب الفقيد وما لهُ من الفضل على الملة والوطن وكان الحضور عديدين من ملل متفرقة فخرجوا وهم أَلسنة تنطق بالثناء على هذا الخطيب

وصرف في الشام نحو ثلثة شهور وهو مظهر اعتبار اهلها واولي الامر فيها وقد زارهُ في تلك الاثناء كثيرون من المامورين وارباب المناصب وقناصل الدول والرؤساء الروحيين من جميع الملل وتوثقت له مع جميعهم عهود المودَّة والصداقة وحلَّ كثيرًا من المشاكل والمسائل التي كانت معقدة ومعلقة من قبل ونصب الخوري روفائيل ابي مراد (هو المطران بولس ابي مراد حالاً) نائبًا بطريركيًا عامًا في تلك الحاضرة · ولما رأَى سيادتهُ انهُ ضاع وتبدد كثير من كتب المكتبة البطريركية وسجلاتها وقسم من الحجج والصكوك وسائر الاوراق والمخفوظات المهمة عني في جمع ما تيسر لهُ جمعهُ منها واشترى كتبًا نفيسة اودعها خزائن الدار البطريركية حتى جعلها مكتبة جديرة بالذكر وفي ذلك شهادة تشير الى مزيد حرصهِ على العلم والآداب · واوعز الى سيادة المطران نيقولاوس القاضي بان يجعل اقامتهُ في ابرشيتهِ فترك الدار البطريركية واقام في الميدان

ولما كان على الدوام يتطلع من كوى النفس الى حالة جميع المسيحيين في كل اقطار المسكونة بوجهٍ عامّ والى ابناء ملتهِ بوجهٍ خاصّ نمي اليهِ وهو اسقف في بانياس ان بعض الجالية السورية في ولايات اميركا الشمالية والجنوبية وفي البلاد الاوسترالية هم على شفا خطر روحي من جرَّاءِ فتور الديانة في قلوبهم وتركهم عوامل التهذيب المسيحي واذ لم يكن في استطاعتهِ وقتئذٍ ان يتعدى حدَّهُ من حقوق الولاية اكتفى بمراسلة

بعض الكهنة خادمي النفوس في تلك البلاد و بعض وجوه الجالية ممن حافظوا على وصايا الله تعالى وناموس البيعة وحرَّضهم على ارشاد المارقين للرجوع الى حظيرة التقوى اما الان وقد صار بطريركاً و بعبارة اخرى ابا عاماً للجمهور ابناء الملة في الاربعة الاقطار فقد انفذ اليهم منشوراً من ديوانهِ البطريركي مؤَرخاً في ٢٩ حزيران ١٨٩٨ وهو اليوم الموافق عيد القديسين الرسولين بطرس (شفيعهِ) و بولس اسمعهم فيهِ صوتهُ الرعائي بلهجة أَبوية ومنحهم بركته الرسولية ووعظهم عن بعد بابلغ ما وعظ بهِ الرسل الابرار في صدر الرسالة المسيحية مما يشير الى فناء الدنيا واموالها ومحاسبة الديان العادل كل انسان على حسب اعماله التي لا يبقى غيرها الى ما وراء القبر وافهمهم بصريح العبارة ان الله تعالى لم يحرّم الشغل الجسدي ولكنهُ حرَّم اللهو به عن الاعمال الروحية ولا سيما ان نتيجتهُ الخسارة والبوار في هذه الدنيا والهلاك المؤَبد والتعاسة السرمدية في الآخرة واوصاهم بالقصد في جمع المال الحلال والقنع بالكسب العادل ورعاية حقوق السوى والمعاملة بالصدق والخلوص وذكرهم بوصية السيد المسيح في ان يحب بعضهم بعضاً ولا سيما في الغربة وحذرهم عواقب البغض والحقد والحسد والمعاداة وشرب المسكرات ولعب القمار واتباع الشهوات الدنسة ومعاشرة الاشرار حفظاً للصيت والصحة وصوناً للنفس واوعز اليهم بالصلاة والزكاة و بالصوم والانقطاع عن الزفر في الايام المعينة لذلك و بالاعتراف ومناولة القربان المقدس الذي فيه الحياة الابدية ثم اشركهم فيما حبا بهِ سائر ابناء الملة من الغفران الكامل بمناسبة اول عيد شفيعهِ في عهد بطريركيتهِ ودعا لهم بالنجاح الروحي والزمني ٠اه

ولقد كان لهذا المنشور تأْثير واضح في نفوس ابناء بلادنا القاطنين في تلك الارجاء الشاسعة فان الكثيرين منهم اذا لم نقل جميعهم قد اقبلوا على اتباع نصائحهِ قولاً وفعلاً كما كتب بذلك الكهنة المتصرفون

في خدمة النفوس هنالك وليست هذه المرّة الاولى التي جاءَت فيها اقوال هذا الواعظ بالثمار اليانعة فان ارشاداته كانت على الدوام مملوءَة بالمنافع والفوائد

وايضاً فانهُ في ذلك اليوم قد احتفل بقداس حبري في كنيسة الشام الكاتدرائية وختمهُ بخطاب من مضمون هذا المنشور صادف استحسان الجمهور ثم بعد القداس زارهُ في ردهة الدار البطريركية جلة القوم واعيانهم ليهنئوه بعيده فقابل تهانئهم بالشكر والموانسة .

ثم صمم على ان يتجوّل في الابرشيات ليزور ابناء الملة و يتعهد شؤُونهم فرأَى ان يبدأ بابرشية بانياس لما له نحوها من العواطف الخاصة كما صرّح في منشورهِ الاول فترك الشام في ٣٠ حزيران سنة ١٨٩٨ بين مظاهرات لطيفة من الاهالي في وداعه وتشييعهِ واستصحب كاتبي اسرارهِ وجرى له في الطريق استقبال جميل في كل مركز كان يصل اليه ولا سيما في راشيا وفي الجديدة وفي خلال مدة اقامته في الجديدة اتاهُ اليها كثيرون من الزائرين نخص منهم بالذكر المرحوم السيد اثناسيوس ناصر مطران القلاية الاورشليمية والنائب البطريركي في الكرسي الاسكندري (الذي عرض على غبطته جميع المسائل البطريركية المتعلقة بذلك الكرسي فارشده الى طرق فصلها) والمرحوم الخوري اكليمنضوس فرح خادم كنيسة المخلص في حي الدحداح في بيروت (الذي التمس منه الاذن في تأسيس مدرسة داخلية للبنات في هذه البلدة فصرفه غبطتهُ الى سيادة مطران الابرشية عملاً بالحقوق القانونية التي كان دأْبهُ رعايتها على انه وعدهُ بالمساعدة الادبية والمادية فيما اذا لم يلقَ معارضةً من قبل مطرانهِ . وزارهُ ايضاً سيادة مطران صيدا والخوري سليمان نمير الرئيس العامّ للرهبانية المخلصية والتمسا منهُ زيارة دير المخلص بمناسبة عقد المجمع الرهباني الانتخابي . وقد اتفق وجود غبطتهِ في الجديدة في ١٣ تموز سنة ١٨٩٨ وهو خاتمة العام الاول

لوفاة المثلث الرحمات السيد البطريرك غريغوريوس يوسف فاقام غبطته قداساً وجنازاً على نفسه وختمهما بتأبين بيّن فيه اعمال ذلك الفقيد وحسناته . ورتب ما يقتضي ترتيبه من متخلفات اعمال الابرشية وسلم ادارتها الى نائبه فيها وفصل الخطاب في كثير من المهمات المتعلقة بالكراسي البطريركية والمستأنفة من الابرشيات الاسقفية وأعفى الخوري يوسف هنا من خدمة ديوانه

وفي ٢٥ آب من السنة ذاتها انطلق من الجديدة الى دير المخلص العام وهو المركز الرئيسي للرهبانية الباسيلية المخلصية بالقرب من جون فوق صيداء فمرّ في طريقه بكفرحونا وجزين وقرى وادي بسري فكان له في جميعها استقبال ووداع مقرونان بمظاهر التبجيل والاحترام . واما في دير المخلص وما لاصقه من المزارع فقد جرى له استقبال ديني ومدني لم يسمع بمثله في القرون الاول . وقد وافاه اليه سيادة المطران باسيليوس الحجار الزائر الرسولي على الرهبانية . واتفق في اول ايلول حلول موعد المجمع الرهباني لتجديد انتخاب آباء الرهبانية من رئيس عامّ ومدبرين ورؤساء للاديار الفرعية والاناطيش فأصدر غبطته بصفة كونه زائراً شرعياً على الرهبانية اعلاماً نادى فيه بعقد المجمع فانجلى الانتخاب وقتئذٍ عن استبدال الرئيس العام الخوري سليمان نمير بالخوري ميخائيل المعلوف . وفي اثناء وجود غبطته بالدير فحص واستبحث عن جميع الاحوال فرأى ان بعضها بارز عن ظل السنن المفروضة فلم يغمض عن الخلل بل عيّنه واشار الى مواضعه ورتب منه ما امكن ترتيبه على عجل وارجأ النظر في باقيه الى أجل فلم ترق هذه المبادهة الاصلاحية لاصحاب الغايات

وهنالك استقدم اليه الارشمندريت كيراس المغبغب (هو سيادة مطران الفرزل وزحلة والبقاع حالاً) فجعله في حاشيته مكان الخوري يوسف هنا

وفي ١٠ ايلول برح الدير الى صيداء ومنها انتقل ومعهُ مطرانها الى صور ثم الى عكاء (وكان المرحوم مطرانها في اوروبا) ثم الى حيفاء وفي جميع هذه الاماكن وفي النواحي التي تخللها صادف غبطتهُ ابهج استقبال وابهى وداع من قبل السلطتين الدينية والحكمية ومن قبل الاهالي على تباين مذاهبهم . وكان بين اسرتين من اكابر ابناء الملة في حيفاء خصام لدّ أزمن حتى استحكم فاهتمّ غبطتهُ في اصلاح ذات البين بينهما فاطاع له الامر وتقرَّبت الاسرتان بعضهما من بعض وناب الوفاق عن النفار والود عن الجفاء من فضل حكمتهِ وبعد حجته

وفي ٢٦ ايلول سنة ١٨٩٨ ركب من حيفاء على باخرة نمساوية وبرفقتهِ سيادة مطران صيداء وكاتبا اسرار ديوانهِ فجرى له وداع حافل . ومرَّت الباخرة بيافا فاتاه اليها وفد من اعيانها والتمسوا منه ان يزور بلدتهم ففعل واستُقبل بما حلا وراق من الاكرام وكان له مثل ذلك في الوداع . ومرَّت ايضاً ببور سعيد فتركها ونزل الى البلدة ولقي من قبل اهليها احسن استقبال وغب الاستراحة والغذاء انتقل مع حاشيتهِ الى باخرة ايطالية ووجهتهم رومية العظمى فمرَّت الباخرة بالاسكندرية ولكن غبطتهُ امر بكتم خبر وجوده في الباخرة وهكذا جهل اهل الاسكندرية الامر ولم تلبث الباخرة ان بارحتها بعد ساعات قليلة وفي صباح اليوم الثالث من شهر تشرين الاول وصلت الى نابولي فنزل في هذه المدينة على الرحب والسعة وبعد ظهر اليوم نفسه بارحها الى رومية العظمى على رتل السكة الحديدية فوصلها في نحو الساعة الثامنة مساءً وكان في المحطة لاستقباله جناب سفير الدولة العلية وجماعة من الاعيان الشرقيين والغربيين وعدد من الاساقفة والكهنة فهنأوهُ بالوصول سالماً ودُعي للضيافة في مدرسة المرسلين البندكتيين باشارة من قدس البابا . وفي الساعة العاشرة قبل ظهر اليوم التالي شخص الى قصر الفاتيكان فاستُقبل

فيه بمزيد اللياقة والاعتبار ودخل فوراً على قدس البابا فنهض واقفاً وقابلهُ معانقاً اياهُ واجلسهُ على كرسي موازٍ لكرسيهِ ولاطفهُ في الحديث وهنأهُ بالمنصب البطريركي وتمنى له ان يتولاهُ مدة ٤٠ سنة واظهر فرط سروره من ارتقائهِ اليه ووعدهُ بالعضد والمساعدة عند الاقتضاء في كل ما يلزمهُ وحادثهُ في امور اخرى تتعلق بالكنيسة واستمرَّت الجلسة زهاء ساعة وفي ختامها اذن قدسهُ للحاشية البطريركية في المثول بين يديهِ فعرَّفهُ غبطة البطريرك عليهم واحداً فواحداً وتقبلوا بركتهُ الرسولية وانصرفوا من لدنه شاكرين . وفي اليوم نفسه والايام التالية تبودلت الزيارة بين غبطتهِ وبين سفير الدولة العلية وغيره من سفراء الدول الاجنبية وكثيرين من الكرادلة وعمال الديوان الفاتيكاني والاساقفة والكهنة وارباب المقامات وبعض الاعيان

ثمَّ في اليوم السابع من الشهر ذاتهِ توجه غبطتهُ ورجال حاشيته الى قصر الفاتيكان بدعوة من قدس البابا ليحضر الاحتفال الرسمي باستقبال الزوار الفرنسيس في كنيسة القديس بطرس الكبرى فلبس الغفارة والذخائر الحبرية واصطف مع الكرادلة وساروا جميعاً في الموكب البابوي وكان قدس البابا جالساً على منصة يحملها ثمانية من مأموري بلاطه فانحدروا به الى الكنيسة حيث كان الزوار مجتمعين ينتظرون قدسه ففتح بيده باب الكنيسة فدخل بين هتاف الادعية واودعت المنصة في صدر الكنيسة وجلس على يمينه ويساره غبطة البطريرك والسادة الكرادلة وفي اثناء هذه الجلسة تلا معتمد الزوَّار خطاباً دعا فيه لقدس البابا وجاوبه عليه احد مأموري الفاتيكان باشارة من قدسه ثم اذن لجميع الحضور في ان يلثموا يديه ففعلوا واقتبلوا منه البركة الرسولية ثم عاد الموكب بمثل النظام الذي حضر فيه للكنيسة وبعد ذلك تفرق الجمع حافظين لهذه الزيارة ذكراً جميلاً

وفي اثناء اقامته في رومية تردَّد الى القصر البابوي واختلى بقدس

الحبر الاعظم مراراً ثم دعاهُ قدسه الى مادبة حضرها كثيرون من الكرادلة اعتباراً لمقام المدعو وقد اظهر قدسه لغبطته مزيد سروره من اجتماعه به واحسن مجاملته وملاطفته واهدى اليه عصا حبرية محلاة بالحجارة الكريمة وسلسلة من ذهب صرف وكانت تلك الحفلة جلسة الوداع وفي اليوم الثاني والعشرين من تشرين الثاني بارح غبطتهُ رومية الى نابولي ومنها أَبحر في اليوم نفسه على الباخرة الايطالية «كوتاردو» الى الاسكندرية وكان ورد الى هذه المدينة نبأ برقي من نابولي يعلن عن قدوم غبطتهِ اليها فاهتمَّ اعيان الملة بتأْليف لجنة برئاسة المرحوم المطران اثناسيوس ناصر لاعداد معدات الاحتفال باستقباله · وفي ٢٧ منهُ (يوم الاحد) كان موعد وصول الباخرة التي اقلتهُ الى ثغر الاسكندرية فقبل الوقت المعين احتشد على رصيف الميناء جمع غفير من جميع الملل يتقدمهم المرحوم المطران اثناسيوس ناصر ومندوب من قبل سعادة المحافظ واخر من قبل جناب قنصل فرنسا ورؤَساء الاديار والرهبانيات اليسوعية والفرنسيسكانية والفرير وغيرهم وفرقة من الشرطة الفرسان واخرى من المشاة

وعندما استقبلت الباخرة رصيف الميناء اخذت العساكر سلام غبطتهِ و بادر سيادة المطران والمنتدبون الرسميون والاعيان للحظوى بمقابلته على ظهر الباخرة فقدَّمهم له سيادة المطران وعرَّفهُ بهم واحداً فواحداً ثمَّ وطأَ غبطتهُ البر وركب مركبة فاخرة معدَّة لاقلاله وجلس الى يسارهِ سيادة المطران وتلتها مركبات الملاقين وهي نحو المئتين فتأَلف منها موكب عظيم سار بين الابهة والاجلال وفي مقدمتهِ فرقة الفرسان وحواليه الوف من الخلق كالبنيان المرصوص وعلى جانبي الطريق بيوت كثيرة مزدانة شرفاتها بالاعلام والازهار من الرصيف الى الدار البطريركية وهنالك كان احتشد جمع غفير ايضاً في مدخل الدار ترجل غبطتهُ وقابله لفيف الكهنة بالحلل والترانيم الكنسية وتلامذة مدرسة الفرير

بموسيقاهم ومشوا امامهُ الى ان دخل الكنيسة وهي كاتدرائية كرسيهِ الاسكندري فصلي قليلاً ثم صعد المنبر وبارك الجمع وخطب فيهم خطاباً رائقاً قصرهُ على شكر القائمين بالحفلة والدعاء لجلالة المتبوع الاعظم وللجناب الخديوي المفخم ومن الكنيسة طلع الى ردهة الدار فاستقبل وفود المهنئين الذين كان في مقدمتهم نيافة السيد غودنسيو بمفيلي القاصد الرسولي وارسل تلغرافاً للجناب الخديوي يشكرهُ فيهِ على ما قامت بهِ الحكومة السنية من الاحتفال والاحتفاء بهِ فردّ جنابهُ الشكر لغبطته وهنأهُ بالوصول. وفي اليوم التالي زار حضرة محافظ الثغر وحكمدا ه وقنصل فرنسا فيه فردُّوا لهُ الزيارة فوراً. وردّ الزيارة لسيادة القاصد الرسولي وغيره من الرؤساء الروحيين والوجهاء. وفي يوم الاحد رابع كانون الاول اقام في الكنيسة الكاتدرائية قداساً حبرياً حضرهُ العدد العديد من جميع الملل وفي ختامه القى عظةً نفيسةً جعل الكلام فيها حث الناس على التآلف والوئام والمحبة ثم اعلن عوامل استعداده لخدمة الملة بكل ما يؤُول الى نجاحها ونقدمها وابلغها البركة البابوية فكان لكلامه وقع جميل في القلوب. واقام في الاسكندرية اثني عشر يوماً لم يخلُ منتداه في غضونها من الزائرين على تفاوت مراكزهم وما لهم بين رؤَساء روحيين وموظفين ومأْمورين دوليين ووجهاء اجانب ووطنيين وكانوا يخرجون من لدنهُ مجمعين على تمداحه ومتزايدين في التعلق به

ولما عوّل على الذهاب الى القاهرة سبقهُ اليها المرحوم المطران اثناسيوس ناصر على غير علمٍ منهُ لتهيئة حفلة لقائه فجمع الى الدار البطريركية بعض وجوه الملة وانتخبوا منهم ستة للقيام باعداد الواجب اعداده من النظام والترتيب وهم صاحبا السعادة يوسف بك مسرة ونجيب بك يوسف وعزتلو فريد بك باباز اوغلي وعزتلو نجيب بك بحري والخواجا حنا صباغ والخواجا نقولا بيطار وجعلوا اولهم رئيساً للجنة فعاد سيادة المطران الى الاسكندرية

واخذت اللجنة توالي الاجتماع بحضرة الارشمندريت كيرلس رزق الوكيل البطريركي في الدار البطريركية حتى قامت بعبء اعمالها على اتم المرام

وفي صباح يوم الجمعة ٩ كانون الاول برح غبطته الاسكندرية فجرى لهُ وداع حافل في المحطة وقد أُلحق بقطار السكة الحديدية يومئذٍ صالون مخصوص مرسَل لركوبه من قبل لجنة تنظيم الحفلة في القاهرة وتوجه بعيته المرحوم المطران اثناسيوس وحضرة كاتبي سرّه وقد وقف القطار في دمنهور وكفر الزيات وغيرهما وقابلهُ في جميعها كثيرون من الكهنة والاعيان وتلامذة المدارس وتليت لهُ الخطب والقصائد وهكذا في محطة طنطا وكان اجتمع اليها عدد غفير من اعيان سكانها ومن وجهاء الملة في المحلة الكبرى وسمنود والمنصورة ودمياط وغيرها من البلاد المجاورة عدا جماعة من الكهنة فتقدموا للثم انامله وقابلهم بالشكر وسألهُ بعض الكهنة والخاصة من الناس ان يرافقوهُ فلم يستطع الا اجابة سؤلهم . ولما اقبل القطار على محطة القاهرة متأخرًا عن موعده نحو ثلاثين دقيقة كانت انصفت الثانية عشرة والناس ثمت وقوف في انتظار وصوله وعددهم لا يحصى وفي مقدمتهم نيافة السيد كيرلس مقار نائب غبطة بطريرك القبط الكاثوليكيين وبعض كهنة القبط الارثوذكسيين والآباء اليسوعيين والفرنسيسكانيين وآباء دير الفرير يصحبهم الجوق الموسيقي من تلامذة مدرستهم وفرقة من الشرطة فأطلّ غبطتهُ من باب الصالون ووجه البركة الى هذا الجمع الذي لا يدرك آخرهُ فصرخوا ثلاثًا « ليعش البطريرك »

ولما استقرَّ الرتل بركابه تقدم الارشمندريت كيرلس رزق ولثم انامل غبطته وعرَّفهُ باعضاء لجنة تنظيم الحفلة ثم قرَّب لهُ مندوبي الوكالة السياسية والقنصلية المحلية الفرنسويتين والخواجا جورج عيد قنصل دولتي البجيكا والبرازيل والرؤساء الروحيين والكهنة وغيرهم فقبلوا راحتيه . وقد رحب بغبطته نيافة السيد كيرلس مقار بخطاب القاهُ باللغة الفرنسوية

فجاوبه غبطته بنفس اللغة شاكراً له ولملته ومثنياً على الحكومة السنية . ثمَّ نزل غبطته من الصالون ومشى بين الجمع الى الرصيف الخارج فاخذت سلامه فرقة من الشرطة وعزفت موسيقى مدرسة الفرير بالدعاء البطريركي ومن هنالك اعتلى مركبة فاخرة قدمها لخدمته جناب الخواجا جورج عيد وركب الى يساره المرحوم المطران اثناسيوس وسارت امام هذه المركبة فرسان من يسقجية القناصل وسائسان على الاقدام متشحان بالاثواب المعلمة بالقصب وجرت في اثرها مئات من المركبات والطريق وشرفات المنازل غاصة بالمتفرجين ولدى وصول هذا الموكب المجمَّل بالبهاء الى الدار البطريركية في شارع الظاهر تلاقى بموكب لا يقلّ عنه عدداً وعظمةً فرفع غبطته ساعده وبارك الجمع وترجل ولبس الغفارة وقبض على عصا الرعاية ومشى وامامه الكهنة بالملابس الكهنوتية يرتلون الترانيم الدينية ويحملون المباخر والشموع الموقدة وتلامذة المدارس يرفعون رايات الصليب المقدس وينثرون الازهار على ممرّ غبطته ويهتفون « مبارك الآتي باسم الرب » « والمجد لله في العلاء وعلى الارض السلام وفي الناس المسرة » ثم الدعاء البطريركي واذ دخل الباب الاول صدحت بالسلام الشاهاني الموسيقى الاميرية التي كانت استحضرتها لجنة الاحتفال باذنٍ من نظارة الحربية واجتاز الممرّ بين زينة فاخرة تتخللها قباب النصر وتعلوها الاعلام العثمانية . والاهازيج النسائية تدوي من كل ناحية وعلامات السرور تبدو فوق كل ناحية الى ان بلغ صدر الساحة وقد قام فيه فسطاط كبير هيأته اللجنة على شكل مصلى وزينته من الداخل والخارج بابهى زينة وقبالته عدة سرادقات للجمع مزينة فجثا غبطته ازاء الهيكل المقام في الفسطاط وصلى ثم رقي عرشاً مصنوعاً بابدع صناعة ومغشى بالمخمل الاحمر المطرَّز بالقصب وفاه بخطاب صيغ من درّ في قالب من ذهب قال ما فحواه :

شرح غبطته الآيتين اللتين رتلهما التلامذة امامهُ وهما « المجد لله الخ » ومبارك الاتي الخ » فاوضح مجد الله في مخلوقاته ومصنوعاته وافاض في بيان معنى السلام روحياً وزمنياً وصرَّح بانهُ يبذل وسع جهده في نشر هذا السلام بين الانام بحيث يؤَلف بين القلوب المتنافرة وينزع منها اسباب الحقد والضغينة ويعوّدها تبادل المحبة والوئام عملاً بامر الله جلَّ جلالهُ ثم استرسل الى بيان المسرَّة واعرب عما شعر به من العواطف الابوية لدى مشاهدته هذا الاحتفال الذي قام بهِ ذلك الجمع المحشود من ملل مختلفة ومنها تخلص الى ذكر استقبال السيد المسيح في اورشليم وشكر الجمهور على ما ابدوه من المظاهرات السنية وقال ان هذا التعظيم انما هو عائد الى منيبهِ السيد لهُ المجد وبعد ذلك اعلن ما ينويه من العمل ليرفع شأن الملة ويخدم الوطن فقال انهُ قبل كل شيءٍ وفوق كل شيءٍ يرغب توفير الاسباب لخدمة الله سبحانهُ وتعالى بتسهيل الوسائل لخدمة النفوس وهدايتها الى الغاية العظمى التي خُلق لاجلها وانهُ ولئن كانت رئاستهُ دينية فهو لا يتخلف عن استعمال نفوذه في مساعدة جميع الملل بترويج مصالحهم الزمنية لكونهِ يعتبر الجميع بالمسيح واحداً الى آخر ما قالهُ في هذا الموضوع مما يطول ايضاحه واعاد عبارة الشكر لابناء الملة ولا سيما اعضاء اللجنة وللمندوبين السياسيين ولسائر الملل الذين شاركوا في الاحتفال وخصَّ بالذكر السيد كيرلس مقار ودعا لجلالة السلطان الاعظم وللجناب الخديوي المفخم واستدرَّ البركات السماوية للحاضرين والغائبين واهدى الى ابناء الملة البركة البابوية التي حملها لهم من رومية واوضح عن خلوص نوايا قدس البابا وميله الخاص الى الكنائس الشرقية وحمد الله على ما لقي في رحلته من التوفيق ونجاح العمل الرسولي فكان لخطابه هذا اجمل وقع في النفوس حتى ان الجمع صفق لهُ مراراً دلالة الاستحسان وفي الختام صعد غبطتهُ الى الردهة المفروشة باثمن الرياش فلحق به المهنئون

وكان يقدمهم له المرحوم المطران اثناسيوس فيلاطفهم بما جُبل عليه من الدعة ويحادثهم بما زادهم استمساكاً به ومن عنده كانوا ينزلون الى حجرة بجانب غرفة المطران وهنالك يكتتبون في سجلٍ وُضع لهذه الغاية وينصرفون وهم يتبادلون التهانئَ كانهم في العيد الكبير

وفي مساء ذلك اليوم احتفل اعيان الملة بتزيين بيوتهم على احسن نسق وابدع رونق واقامت لجنة تنظيم الحفلة زينة في الدار البطريركية من ابلغ ما تتناهى اليه يد الانسان في الانقان فانها رصعتها بنوافذها وشرفاتها وسطوحها واسوارها بكواكب من المصابيح المتفرقة الالوان وحلت جدرانها وجوانبها بالرياحين والازهار على اختلاف انواعها الحسان حتى كان يخيل للرائي انها هي السماء او هي الجنان واما السهام التي تطايرت في افلاكها فحدّث عنها ولا حرَج فالسهم الاول الذي انطلق منها تناثر وعليه رسم من الانوار مكتوب فيه « ليعش عبد الحميد » والسهم الثاني مكتوب فيه « ليعش عباس الثاني » والسهم الثالث مكتوب فيه « ليعش بطرس الرابع » وبقية الاسهام والالعاب النارية عليها رسوم وصور شتى مثل حياض للمياه وجداول تنساب في مجاريها وابراج تطلق المدافع الى غير ذلك من الاشكال التي تبهج الابصار وكان غبطة البطريرك بناءً على التماس اللجنة يتمشى احياناً بين هاتيك المشاهد فيزيد في رونقها جمالاً ويزداد الحضور به ابتهاجاً لما كانوا يرون من ملاطفته لهم وشكره لجمهورهم على ما ابدوه من المظاهرات ودامت الحال على هذا المنوال الى ان مضى الهزيعان الاولان من الليل فانصف فانصرف الجمع وهم يقولون متهللين عدل الدهر بنا وانصف

ومرّ يوم السبت ووفود المهنئين يتقاطرون من عاصمة القطر وضواحيها الى الدار البطريركية زرافات ويخرجون منها وهم يهنئون انفسهم بالمهنَّأ ويلهجون بمدحه ويحسبون انهم أُسعدوا به ولا عجب فان المهنئَ نفسه

لسعيد . كل هذا ولجنة التنظيم مشتغلة في تزيين الكنيسة الكاتدرائية وتهيئتها لاقتبال عروسها الارضي ففرشت الممرّ بالرمل الابيض الى حوش الكنيسة وزينت بابها وجدرانها باغصان الزيتون وشطب النخل تتخللها الازهار بافنانها وبسطت في داخلها الطنافس وجملتها بابهى زينة ومنذ صباح يوم الاحد ١١ كانون الاول اخذت الناس تتوارد للكنيسة افواجاً من جميع الملل والامم على غير استثناءٍ وفي نحو الساعة التاسعة اقبل غبطة البطريرك من داره في شارع الظاهر في موكب حافل وامامه سيادة المطران وسائر الحاشية البطريركية فاستقبلته لجنة تنظيم الحفلة بما لاق من الاحترام وسألته الاستراحة في ردهة الانطوش العلياء فاجاب ومشى بين الجمع يباركهم وهم يحدقون به ويحدّقون اليه الابصار حتى صعد الى الردهة فاستراح قليلاً وجيء اليه بالغفارة فاتشح بها واخذ بيمناه صليباً وبيسراه عصا الرئاسة ونزل الى الكنيسة وامامه من تقدم ذكرهم وطغمة من الكهنة بالحلل الكنسية يحملون الشموع والمباخر ويرتلون الالحان الدينية وكانت الكنيسة وصاعتها وقاعات الدار قد غصت بالناس على رحبها فاقام غبطته قداساً حبرياً وختمه بخطاب نفيس يثمن بالدرر او هو اغلى ضمنه التوصية باتباع وصية الله وقول السيد المسيح في انجيله الطاهر مشيراً الى ان يحبّ الناس بعضهم بعضاً وسرد في هذا الباب اقوالاً وآياتٍ باهرات بعبارة فصيحة بليغة شوّقت الجمع الى سماعها تكراراً وأعدّ نفسه للمساعدة في ازالة كل خلاف وجفاء بين من تناولتهم اسباب النفرة والبغضاء من ابناء الملة ثم شكر لسائر الملل التي شاركت رعيته في الاحتفاء به ونوّه باهل الصحافة وكرّر مثل ذلك نحو لجنة التنظيم وكان لخطابه استحسان عامّ وعند الختام صعد غبطته الى ردهة الدار في الهيئة التي نزل بها منها وريثما استقرّ به الجلوس تقدم المهنئون يتلون امامه الخطب والقصائد وكلها في ذكر صفاته الجلى ومدح اعماله العظيمة وتوقع المزيد

من النجاح والفخار للملة في عهد بطريركيته ولما كانت استغرقت الوقت الطويل ختمها غبطته بخطاب حثّ فيه الجمع على ان يكونوا واحداً فيكون كله لهم عاملاً على ما فيه خيرهم ومصلحتهم

وهذه الخطب والقصائد وطائفة مما سبقها ولحقها قد طبعت بكتاب «العقود الدرية» لجامعه الفاضل ابرهيم بك عبد المسيح صاحب جريدة «الاخلاص» الوضاء

وفي اليوم التالي قصد سراي عابدين العامرة فاستقبله بما يليق من الاعتبار رجال تشريفات المعية الخديوية في المدخل ثم القرناء على درج السلم الكبير ثم رئيس التشريفات على رأس السلم وهذا مشى معه الى حيث كان الجناب الخديوي المفخم فتأهل به ورحب وأفاض غبطته في شكر جنابه لما لقي من احتفاء الحكومة الخديوية السنية به في الاسكندرية ثم دعا لسموّه وللآل الكريم فاظهر الجناب الخديوي كمال السرور ومزيد الملاطفة وبعد انقضاء الجلسة زار غبطته رئيس التشريفات ومعاونيه وشكر لهم حسن استقبالهم اياه ثم زار عطوفتلو مصطفى باشا فهمي رئيس النظار في نظارة الداخلية وجناب المسيو كوكردان وكيل فرنسا السياسي ودولتلو مختار باشا الغازي وجناب اللورد كرومر وكيل انكلترا السياسي وجميعهم قابلوه بالمجاملة والاكرام وقد حادث دولتلو مختار باشا بما يوول لمصلحة المسيحيين عامة وابناء ملته خاصة لتعلقهم جميعاً بالعرش الحميدي الانور فأعلن له دولته عن ثقته بخلوص الملة وولائها لجلالة متبوعها الاعظم وتمنى لها كل خير ونجاح في ظل عظمته وايضاً فانه فاوض اللورد كرومر بمثل ذلك فوعده جنابه بمساعدة المسيحيين ولا سيما ابناء الملة من سوريين ومصريين على السواء وبالغ في اكرام غبطته الى الغاية وفي صباح اليوم التالي رد جنابه الزيارة لغبطته في الدار البطريركية ولبث معه نصف ساعة وقد اعادا حديث الامس وكذلك رد لغبطته الزيارة

جناب المسيو كوكردان وعطوفتلو مصطفى فهمي باشا الذي وعد باستعداده للقيام بكل ما فيه خير للملة ولرجال الكهنوت وأرسل دولتلو مختار باشا عطوفتلو محسن بك افندي كاتب سرّه الاول ليردّ الزيارة لغبطته بالنيابة عنه

وفي الايام التالية تبادل غبطته الزيارة مع دولتلو البرنس حسين باشا عمّ الجناب الخديوي ومع دولتلو مصطفى رياض باشا كبير نظار القطر المصري سابقاً وخابره في الشؤُون الزراعية وغيرها ومع اصحاب السعادة بطرس باشا غالي ناظر الخارجية واحمد مظلوم باشا ناظر المالية وعباني باشا ناظر الحربية وحسين فخري باشا ناظر الاشغال العمومية والمعارف وماهر باشا محافظ المدينة ويوسف سابا باشا مدير عموم البوسطة الخديوية ومحمد شريف باشا وامين باشا سيد احمد وكيلي نظاتي الخارجية والحقانية وغيرهم من كبار الموظفين وقناصل الدول فلقي من جميعهم حسن الوفادة ولقوا منهُ حبرًا جليلاً عالماً فاضلاً مدبرًا ساعياً في نجاح ابناء ملته واهلاً للقيام بعظائم الامور وجلائل الاعمال

وزار مدرسة الفرير في الخرنفش ومدرسة المرسلين اليسوعيين فاستقبله كل مَن في المدرستين من كهنة واساتذة وتلامذة صفوفاً بغاية النظام والترتيب وضربت موسيقى مدرسة الفرير الانغام المطربة احتفاءً به ورتل تلامذة اليسوعيين الاناشيد الشجية ترحيباً بقدمهِ وفي كلتا المدرستين تليت بحضرته الخطب والقصائد بلغات متنوعة وجميعها موعبة بذكر مشروعاته الخيرية والثناء عليه والقى غبطته فيهما خطبتين مدح بهما الآباء القائمين برفع منار العلم واثنى على غيرتهم وشكر للتلامذة ما شاهده فيهم من النجابة والنجاح وحضهم على السيرة الصالحة وتقوى الله وزيادة الجد في تحصيل العلوم والمعارف طمعاً بنيل الفوائد التي يتوقعونها في مستقبل الايام وايجاباً لما تقتضيه منهم فروض الخدمة الوطنية وقد

قابل الجمعان خطبتيه بتصفيق الايدي استحسانًا وودعاهُ بمثل ما استقبلاه من التجلة والاكرام والاحترام .

وردّ الزيارة الى نيافة السيد كيرلس مقار نائب بطريركية القبط الكاثوليكيين والى غيره من الرؤساء الروحيين ووكلاء المعاهد الدينية .
وزارهُ جناب الحاخام الاكبر للملة الاسرائيلية في القطر المصري وتحادثا في مواضيع كثيرة استغرقت نحو الساعة وكان لا يخرج من عندهِ زائر ولا ينصرف من عنده مزدار الا والثناء عليه ملءُ الافواه

وقد أُعدت لهُ في عاصمة القطر عدة ولائم شائقة اقيمت في اثنائها الزينات الباهرة نذكر منها اثنتين عند سعادتلو يوسف بك مسرَّة رئيس لجنة الاحتفال وعند عزتلو فريد بك باباز اوغلي رئيس الجمعية الخيرية واحد اعضاء اللجنة المذكورة وذلك لما تخللهما من القاء الخطب والقصائد البليغة بلغات متفرقة ومنها خطبة باليونانية لجناب الاديب الياس افندي بشارة نجل جناب الوجيه الخواجا قسطنطين بشارة احد كبار نواب الروم الارثوذكسيين وأُخرى بالفرنسوية لجناب الفاضل جواني افندي كاستنيولي من الموظفين في الحكومة الخديوية قال فيها يخاطب غبطة البطريرك « اني ولئن كنت من ابناء الروم الارثوذكسيين فاني افتخر بحبر جليل كامل الصفات نظير غبطتكم واعدُّهُ بطريركاً لجميع المسيحيين على السواء »

وقضى غبطته عيد الميلاد الشريف في القاهرة فهنأهُ بهِ سواد اعيانها و بعض النظار وارباب المناصب السامية وقناصل الدول وفي جملتهم اللورد كرومر

ولما كان تغيير مركز الكنيسة الكاتدرائية للملة في درب الجنينة امسى امرًا واجبًا وكان القومسيون الملي قرَّر نقلهُ الى شارع الظاهر في حي الفجالة لعهد الطيب الذكر السيد البطريرك غريغوريوس يوسف ثم عاق عن انفاذ هذا المشروع بعض الموانع وتفرُّق الآراء بين اعضاء

القومسيون فقد وجه غبطة السيد البطريرك بطرس عنايته الى النظر في هذا الامر المهم واستشار كثيرين من اهل المقامات العالية وبعض كبار ابناء الملة فصوَّبوا جميعاً القرار الاول وعلى ذلك انتهز غبطته الفرصة فارسل لرعيته اعلاماً دعاهم فيه الى قداس حبري في الاحد الاول من سنة ١٨٩٩ واعتذر لهم عن معايدتهم في محلاتهم لانهما كه في بعض المهامّ واخبرهم انه بعد التمعن وانعام النظر واستشارة الخبيرين في مسألة بناء الكنيسة الكبرى الجديدة قرَّ رأيه على ان المحلّ الذي تعين لها في شارع الظاهر بات امرًا لا يقبل الجدال وتغييره ضربًا من المحال ثم حضهم على امداد هذا المشروع بالجود والسخاء ليتيسر له الاسراع في مباشرة البناء وطلب من رجال القومسيون الاجتماع لديه للمذاكرة في ما يقتضيه هذا العمل العظيم

ففي الموعد المضروب للاجتماع عقد القومسيون جلسته برئاسة السيد البطريرك فافتتحها غبطته بان أبان للاعضاء سبب التئامهم وحضهم على توحيد الكلمة والتعاضد عملاً بما كانوا قرَّروه لعهد سلفه المثلث الرحمات وتسهيلاً للبدء بهذا العمل الخيري باسرع ما يمكن من الزمن لمسّ الحاجة اليه فنهض بعض الحضور واعلنوا عما خامر ضمائرهم من الميل لاستبدال المكان بغيره ثمَّ قام سعادتلو حبيب بك سكاكيني وقصَّ خبر المشروع من اوَّله الى نهايته فجلاه ببراهين ساطعة صادفت استحسان الجمهور وعلى ذلك القى غبطته كلماته الاخيرة فسحر بها ألباب السامعين وللحال تناولوا قائمة واكتتب كلٌّ منهم بما جادت به نفسه واكتتب غبطته بمبلغ ٨٠٠ ليرة انكليزية وباركهم وانصرفوا من لدنه يدعون له بطول البقاء وفي اجتماع تالٍ برئاسته ايضاً تذاكروا في انتخاب لجنة لتجمع ما يتبرَّع به أُلو الاحسان من المال وتداولوا في ما ينبغي لمباشرة البناء ولم يكن الاَّ القليل من الزمن حتى بدئ بالعمل ووضع غبطته بيده الكريمة الحجر

الاول من اساس الزاوية باحتفال باهر

وفي مساء يوم السبت ٢٩ كانون الثاني سنة ١٨٩٩ برح غبطته القاهرة قاصداً طنطا على قطار السكة الحديدية فودعه اعيان العاصمة وداعاً ذا شان واستقبله اعيان طنطا باحتفال شائق فانه وصل الى محطتها بعد غروب الشمس الا ان المدينة والمحطة كانتا بانوارهما الساطعة كالازهرين وريثما وقف القطار بركبه صفق الجمع المصطف على الرصيف استبشاراً بالزائر الكريم فباركهم غبطته وتقدموا للثم راحتيه وفي مقدمتهم الرؤساء الروحيون من جميع الملل وجناب قنصل فرنسا في طنطا واعيان البلدة وعمدة البلاد المجاورة وكثيرون من ماموري الحكومة المحلية ونواب الدول الاجنبية ومن ثمَّ ركب غبطته وحاشيته على المركبات المعدَّة لهم ولحق بهم الملاقون الى الكنيسة وكانت مزدانة بابهى زينة من الانوار والرايات والازهار فاستقبله في ساحتها المرتلون والجوق الموسيقي من تلامذة مدرسة المرسلين الافريقيين ودخلها وصلى ثم حمد الله وخطب في القوم خطبة شنفت الآذان واخذت بمجامع القلوب اذ اوصى بالمحبة وشكر المحتفلين للقائه وذكر زيارته لبلدتهم وهو اسقف وسروره من مشاهدته اياهم ثانية ودعا لجلالة السلطان الاعظم وللجناب الخديوي المفخم ثم صعد بالموكب الحافل الى ردهة الانطوش وهناك انبرى الخطباء والشعراء يتسابقون الى تهنئته ومدح اعماله العظيمة وكان في جملتهم حضرة الخوري نقولا غطاس خادم كنيسة الروم الارثوذكسيين فاستهل خطابه بآية من سفر داود النبي وهي قوله « ترى بنيك حول مائدتك مثل اغراس الزيتون » وختمه بآية من الانجيل الطاهر وهي قوله تعالى « الراعي الواحد للرعية الواحدة »

وفي اليوم التالي اقام غبطته قداساً حبرياً حضره الجم الغفير من جميع الملل وفاه في ختامه بخطبة نفيسة موضوعها « الاتحاد والمحبة والسلام »

فكان لها تأْثير حسن في النفوس

ولما كان أبناء الملة في طنطا عديدين وليس لهم جمعية خيرية لمساعدة الفقراء المعوزين دعاهم غبطته الى الالتئام بحضرته وحثهم على تأْسيس جمعية لهذه الغاية وفي الحال هموا التأْليفها واكتتبوا بمقادير متفاوتة من الدراهم للقيام بمتطلباتها وكان اول من فتح الاكتتاب غبطة البطريرك فانهُ تبرع بخمسين ليرة مصرية وهي كل ما كان يحرزهُ من المال حتى انهُ لما اراد العودة الى القاهرة اضطر جناب الوجيه الخواجا يوسف الدوماني ان يدفع منهُ رسم السكة الحديدية عن غبطته وحاشيته

ولبث في القاهرة الى سلخ شهر شباط ومنها شخص الى الاسكندرية فودّع في الاولى كما قوبل في الثانية بمزيد الاحتفال وقضى في الاسكندرية عيد الفصح الشريف وكان في فصل الصوم الكبير قد تولى الوعظ والارشاد في الرياضة الروحية التي اقامها للرجال والنساء في القاهرة وفي الاسكندرية فسطع من حكمة مواعظه نور اليقين في نفوس الذين كانت غشيتهم ظلمة الفتور في الدين وأَووا الى حظيرة الكنيسة بعد ان انقطعوا عنها السنين الطويلة ولم يكن ابناء الملة وحدهم يتمتعون بسماع مواعظه وارشاداته بل كان كثيرون من الملل الاخرى حتى غير المسيحيين يقصدون الكنيسة وكانوا اذا امتلأَت المقاعد والكراسي يفترشون البسط والحصر ويقعدون عليها لسماع المواعظ شغفاً بالواعظ الخطيب وطمعاً بالاستفادة من بلاغة اقواله البديعة التي استحق لاجلها ان يلقب ببلبل البيعة المصداح

وفي ١٨ مارت سنة ١٣١٥ الموافق ٣٠ اذار سنة ١٨٩٩ صدرت الارادة السنية مؤْذنة في تثبيت غبطته بطريركاً لملته بصفة رسمية وبين هذه المنة الشاهانية وبين ارتقائه للمنصب البطريركي نحو ١٣ شهراً وهذه المدة هي اقصر جداً من المدة التي تخللت انتخابات اسلافه وصدور الارادة السنية بتثبيتها فان السعيد الذكر السيد البطريرك مكسيموس

مظلوم نالها بعد نحو ٥ سنوات والمثلث الرحمات السيد البطريرك غريغوريوس يوسف حظي بها بعد نحو اربعة عشر شهراً

وقد كُتب الى دوائر الممالك المحروسة بلاغ برقي بهذا الصدد ونُقل مثله الى دولتلو مختار باشا الغازي في الاسكندرية من توقيع عطوفتلو تحسين بك رئيس كتَّاب المابين الهمايوني وهذا تعريب البلاغ :

« بموجب ارادة حضرة صاحب الخلافة العظمى نكلفكم بلزوم تبشير المنتخب لبطريركية الروم الملكيين جريجيري افندي بصدور المساعدة السنية الملوكانية بالتصديق على مأموريته فلزم تبليغكم والامر لمن لهُ الامر افندم : يلدز في ١٨ مارت سنة ١٣١٥ « تحسين »

فأَبلغهُ دولتلو مختار باشا الى غبطة البطريرك في اليوم التالي صدوره وفي الحال رفع غبطته الى المابين الهمايوني عريضة برقية اعلن فيها امتنانهُ وشكرهُ واخلاصهُ للعرش الحميدي الانور . وكتب الى مراكز كراسيهِ البطريركية والى الكراسي الاسقفية ينقل لهم هذه البشرى ويحضهم على اقامة الدعوات الخيرية بحفظ جلالة مولانا السلطان الاعظم وتأْييد حكومته السنية فتلقوها جميعاً بالتهلل والابتهاج واعادة الاعياد والتهانئ ولا سيما ازاء ما كان يرجف به بعض الحساد من ان الفرمان الشاهاني لا يصدر لهذا المنتخب مطلقاً

وفي ٢١ نيسان سنة ١٨٩٩ توجه غبطتهُ الى المحلة الكبرى فالمنصورة فدمياط لتفقد احوال الرعية فجرى لهُ في جميع هذه المدن وفي المدن التي مرَّ بها احتفال يذكر سواءٌ كان من قبل ابناء الملة ام من قبل رجال الحكومة السنية وسائر الملل وهو لم يكن يكلُّ عن القاء الخطب والمواعظ يحثُّ القوم على التآخي والاتحاد والمسالمة والتوبة الى الله تعالى وفصل عدة مشاكل بين الاهالي ولم يتغاضَ عن القيام بالمشروعات الخيرية ومن جملة مآثره انهُ في المنصورة اوعز بانشاء كنيسة جديدة للملة اوسع

من التي كانت لها فاكتتب بمئة ليرة مصرية لاجل هذا العمل الصالح وحضّ الحضور على مد اكف الندى والسخاء فتبرّعوا بمقادير وافرة واكتتب جناب الوجيه الخواجا انطون كلداني بمقدار الف ليرة ولقد زار اديار الفرنجة وكنائس القبط الكاثوليكيين والارثوذكسيين ومعاهد العلوم في المدن الثلاث المذكورة اسماؤُها وزار في المنصورة المحبس الذي سجن فيه الملك لويس التاسع احد ملوك فرنسا في القرن الثالث عشر (سنة ١٢٢٦ ـ ١٢٧٠)

وبعد ان تجوّل في تلك الانحاء عاد الى الاسكندرية وفي هذه الاثناء ورد لهُ نبا برقي من سعادتلو عبد الله افندي نعمه وكيله الزمني في دار السعادة (محرر مقاولات بكاوغلي) يشير الى صدور الفرمان الشاهاني العالي الشان لغبطته فتجدد السرور في قلوب الامة والملة من هذا النبإ وسأَل غبطته دولتلو مختار باشا ان يستأْذن لهُ في السفر الى استانة العلية ليتشرّف بالمثول لدى جلالة مولانا السلطان الاعظم ويقدم فروض العبودية للذات الشاهانية فورد لهُ الجواب بالرضى السامي وفي الحال رفع الى المابين الهمايوني فريضة الشكر على هذا التعطف الجميل بوساطة نائبه في عاصمة السلطنة السنية

وعلى ذلك ركب بعد ظهر يوم الاربعاء ثالث شهر ايار على الباخرة الخديوية «القاهرة» قاصداً دار السعادة فحف لوداعه على رصيف الميناء وعلى ظهر الباخرة اكابر الاسكندرية واعيانها من ماموري الحكومة السنية وابناء الملة ورؤَساء الاديان فشكرهم وسافر يصحبهُ سيادة المطرانين نيقولاوس القاضي واغابيوس المعلوف وحضرة كاتبي سرّه الايكونوموس ميخائيل شريم والارشمندريت كيرلس مغبغب. وقد وصلت به الباخرة يوم الاحد سابع شهر ايار فرفعت العلم العثماني ايذاناً بوجوده فيها وكانت الصدارة العظمى بناءً على الارادة السنية ارسلت من الترسانة العامرة

زورقاً بخارياً وعليه وفد من قبلها مؤلف من سعادتلو غرغور بك وعزتلو حمدي افندي لاستقبال غبطته وكان سعادتلو عبدالله افندي نعمه أعدَّ يختاً خاصاً وعليه اعيان الملة وغيرهم من الوجهاء للاحتفال باستقبال غبطته ايضاً فعندما رست الباخرة في ميناء بشقطاش اقبل عليها الزورق واليخت وصعد ركابهما الى الباخرة الخديوية فهنأُوا غبطته بالسلامة وبعد تبادل التحية مع الوفد السلطاني ركب غبطته وحاشيته معه على زورقه فسار بهم الى البرّ وهنالك لقوا المركبات السلطانية في انتظارهم فاقلتهم الى المابين الهمايوني وقد قابل غبطتهُ عطوفتلو الحاج علي بك افندي رئيس قرناء الحضرة السلطانية فعرض السيد البطريرك فرائض العبودية والخلوص وتبلغ السلام الشاهاني والالتفات العالي وتعين بمقتضى الامر السامي منزل فاخر لاقامته مع حاشيته في ضيافة صاحب العرش الشاهاني مدة وجوده في دار السعادة

ومن سراي يلدز العامرة عاد غبطته بموكبه الحافل الى الكنيسة في بك اوغلي وكانت غاصة بجماهير الناس فاستقبلوهُ بغاية الحفاوة وبعد ان صلى قليلاً القى على مسامع الحضور خطاباً جميلاً حلاَّهُ بذكر مآثر جلالة السلطان الاعظم وتعداد مناقبه الغرّاء وجعل مسك الختام الدعاء بنصره وتأييد شوكته وقد نقلت صحف الاستانة مآل هذا الخطاب فكان لهُ صدى استحسان في دوائر الحكومة السنية وحسن الرضى والقبول في المابين الهمايوني وعند تمام هذا الاحتفال سار غبطته وحاشيتهُ الى المنزل الذي تعين لهُ ولحقت به جموع المهنئين والملاقين وفي جملتهم المندوبون من قبل سيادة القاصد الرسولي وجناب سفير فرنسا وغيرهما فشكر لهم غبطته حسن استقبالهم اياه واعلن امتنانهُ مما اتوه

وفي اليوم التاسع من الشهر زار غبطتهُ دولتلو فخامتلو الصدر الاعظم واصحاب الدولة الوكلاء الفخام وغيرهم من ارباب المناصب العالية والمقامات

الرسمية وبعض السفارات الدولية . وفي اليوم العاشر منهُ زار عطوفتلو تحسين بك افندي وفي اليوم الثاني عشر منهُ شهد حفلة السلاملك في سراي يلدز العامرة فقابلهُ عطوفتلو الحاج علي بك افندي وابلغهُ السلام الشاهاني واخبرهُ ان مثولهُ الرسمي لدى جلالة السلطان الاعظم يكون في يوم آخر لما ان هذا اليوم واقع فيه اول السنة الهجرية وهو مخصص للتشريفات المعينة

وفي ١٩ ايار سار بحاشيته الى القصر الحميدي فحضر حفلة السلاملك مرَّة ثانية وابلغهُ الجناب السلطاني الاعظم سلامهُ الشاهاني على يد عطوفتلو امين بك افندي احد القرناء فكرَّر الدعاء لعظمته بالعمر المديد والنصر المبين وبعد قضاء الفريضة عاد جلالة السلطان الى قصره العامر يحفُّ به المجد والاقبال وصعد غبطة البطريرك وحاشيتهُ الى دائرة المابين الهمايوني ولم يكن الا القليل حتى وافاهُ احد كبار القرناء يبشرهُ بان جلالة المتبوع الاعظم تلطف وأمر بانهُ وحاشيتهُ يمتثلون بين يديه بالنياشين العالية وعلى ذلك تقلد غبطتهُ النيشان المجيدي الاول ونال كلٌّ من الاسقفين اللذين معهُ والايكونوموس ميخائيل شريم النيشان العثماني الثاني ونال كلٌّ من الارشمندريت كيرلس مغبغب والارشمندريت فيلبس شلهوب الوكيل البطريركي في استانة النيشان المجيدي الثاني

وبهذه النياشين الوسيمة ادخلهم الى البلاط السلطاني دولتلو منير باشا وعطوفتلو احمد عزت بك افندي العابد الكاتب الثاني للمابين الهمايوني المأذون له في الترجمة بين جلالة السلطان وغبطة البطريرك ولما بلغوا الى باب ردهة الاستقبال الطالع فيها كوكب العظمة والجلال ادّوا جميعاً فرض العبودية فقابلهم عظمته بالانس والسرور ولما نالوا الحظوة بشرف المثول وهم على شكل نصف دائرة وجه جلالة السلطان التفاتهُ نحو غبطة البطريرك وبشَّ لهُ فما لبث غبطتهُ ان فاهَ بخطاب شائق اشار فيه الى

ما شمله به جلالته من الاحسانات السنية من مثل صدور امره بالفرمان السامي وحفاوة الملقى وكرم الضيافة والنيشان العالي وشرف المثول لدى حضرته الجلي وغير ذلك مما لا يعدّ ولا يحصى وشكره على ذلك كله ثم كرّر ما ابداه مرارًا من توثق استمساكه بصدق التابعية وشرف الانتماء للعرش الحميدي الانور وذكر خلوص التبعة المسيحية عامة وملة الروم الملكيين الكاثوليكيين خاصة وولائهم للواء العثماني المظفر الذي يخفق فوق رؤوسهم فيظلهم ويحميهم في جميع الممالك المحروسة واسند اقواله بالشواهد والبراهين ووعد انه يكون كما كان على الدوام عبدًا امينًا وخادمًا غيورًا وانه يواظب على مبداءه وهو الدفاع عن مصالح الدولة العلية والوطن العزيز والمناداة بين الرعية بالخضوع والطاعة لاوامر الحكومة السنية ثم ختم خطابه بدعاء صدر من صميم فؤاده طلب فيه من المولى المتعال جلّ شانه ان يصون حياة ولي نعمتنا بلا امتنان السلطان ابن السلطان السلطان الغازي عبد الحميد خان فخر الامة العثمانية وملجإ الخلافة الاسلامية وان يشدّ ازره بمزيد العافية ويوطد سريره الانور على أُسس المجد والفخر ويؤيد جنوده بالفتح والنصر وينمي عماله الامناء القائمين بخدمة نياته الخيرية في جميع الممالك المحروسة بين رعاياه المحمية فأمن الحضور مرارًا وكان جلالة مولانا السلطان يصغي الى مقاله ويتقبله بالرضى لكونه ايده الله بحسن فهم اللغة العربية الفصحى فاشار الى الترجمان عطوفتلو احمد عزت بك افندي ان ينقل الى غبطة البطريرك مآل نطقه الشريف وهو

« ان جلالته مسرور لقدوم غبطته الى عاصمة السلطنة السنية لعرض وتاكيد صدق تابعيته التي لا يرتاب فيها وانه راضٍ من التبعة المسيحية الامينة عامة وواثق كمال الثقة بصدق وخلوص انتماء الروم الملكيين ورؤسائهم الروحيين الى الاريكة السلطانية خاصة وانه مرتاح الى حسن استعداد غبطته والروساء الروحيين لاطراد السلوك في هذه الخطة الحميدة

وانهُ موجه عنايته الشاهانية الى ما فيه راحة وسعادة احوال عموم التبعة العثمانية الصادقة بدون استثناءٍ وبدون تمييز بين المذاهب والاديان وانهُ سيواصل هذه العناية خاصة نحو البطريرك نفسه وسائر عبيده الامناء الروم الملكيين الذين يبلغهم بواسطة غبطته سلامه الملوكاني وانه يشكر البطريرك بنوع خاص للادعية الخيرية التي جهر بهـا بحضرته السنية بالاشتراك مع حاشيته المشرفة بالمثول »

وحالما انتهى نطق جلالته الشريف وفرغ الترجمان من الترجمة رفع غبطة البطريرك يديه الى العلاءِ واعاد الدعاءَ باطالة بقاءِ سلطاننا الحكيم الحليم الاعظم وبتحقيق نياته الخيرية فاجابهُ عظمتهُ بما ترجمته بالحرف « انا مسرور من ارتقائك الى منصب البطريركية العالي عن جدارة واهلية لاني بما اتوسمهُ فيك من الصلاح والصحة والمقدرة على العمل اؤمل انك تقوم احسن قيام بالوظيفة الموكولة اليك عن اهلية واستحقاق » ثم التفت جلالته الى الحاشية البطريركية يظهر لها شكرهُ ورضاهُ وبينما همَّ غبطة البطريرك ليلثم الاذيال الملوكانية اخذهُ جلالتهُ بيده الكريمة وشيعهُ بالسلام فرجع وحاشيته الى المابين الهمايوني ووفد رجال المابين يهنئون غبطته بما نال من الالتفات العالي وبعد تناول المرطبات والقهوة عادوا الى المنزل وقلوبهم طافحة بالشكر والامتنان وللحال ارسل غبطته الرسائل البرقية الى كراسيه البطريركية والابرشيات الاسقفية يبشرهم بالرضى السامي ويبلغهم السلام الملوكاني ويوعز اليهم باقامة الادعية الخيرية في جميع الكنائس لصيانة جلالة المتبوع الاعظم وتوطيد اريكته السنية ابد الدهر

وفي ٢١ ايار سنة ١٨٩٩ استدعى غبطته اعيان الملة وباحثهم في تاليف قومسيون يتولج ادارة مهامّ الكنيسة والرعية ومساعدة الفقراء برئاسة النائب البطريركي فاستصوبوا رايه وفي الحضرة تألفت اللجنة وانتخب

اعضاؤُها العمال فيها وتبرّع غبطته بمالٍ منه للفقراء وحثّ الجميع على القيام بخدمتهم بغيرة ونشاط وتفاءل بنجاح مشروعهم في حمى صاحب الشوكة والسلطة والاقتدار المتبوع الاعظم وتقرَّر في نفس الجلسة ان تقوم اللجنة بتأسيس مدرسة ومستشفى و باعالة الارامل واليتامى والمعوزين الى غير ذلك من الاعمال الخيرية

و بينما كان غبطته في دار السعادة اتفق موعد الاحتفال باليوبيل الذهبي الخمسيني لاسقفية المثلث الرحمات السيد غريغوريوس عطا رئيس اساقفة حمص وحماه وتوابعهما وذلك في اواخر شهر ايار سنة ١٨٩٩ (عوضاً عن ٤ اذار من السنة نفسها) فكتب غبطته الى نائبه البطريركي في الشام بان يتوجه الى يبرود لتهنئة صاحب اليوبيل من قبله وارسل لهُ ايضاً تلغرافاً بالتهنئة

وفي ٢٧ ايار سنة ١٨٩٩ دُعي غبطتهُ الى مأدبة شاهانية أُدبت لهُ في سراي يلدز العامرة فحضرها بعض اكابر رجال الدولة احتفاءً به . ثم تشرف بالمثول بين يدي جلالة السلطان الاعظم مرَّة ثانية وفاهَ في حضرته بخطابٍ بديع الالفاظ والمعاني ختمهُ بالدعاء لعظمته ولحكومته السنية فسرَّ جلالته من مآل ذلك الخطاب وتعطف على قائله بالتفات ممتاز لم ينل مثلهُ غيره من البطاركة من قبل

وفي ٢٨ منه اقام قداساً حبريًا في كنيسة الملة في بك اوغلي وفي اثنائه رقى الارشمندريت كيرلس المغبغب الى الدرجة الاسقفية بمعاونة سيادة المطرانين نيقولاوس القاضي واغابيوس المعلوف وجعله مطرانًا لكرسي الفرزل وزحلة والبقاع وكان هذا الاسقف الجديد على ما سماهُ غبطة البطريرك « ابنه البكر » فهنأَهُ رجال الملة بعد القداس وتمنوا ان يقوم بخدمة مقاصد البطريرك ونياته النبيلة وبرعاية ابرشيته في كل ما يؤُول عليها بالخير

وفي ٣ حزيران سنة ١٨٩٩ توفي في عكاء مطرانها المثلث الرحمات السيد اثناسيوس الصباغ فحزن غبطته لفقده وكتب فعزّى ابرشيته بوفاته واقام حضرة الخوري يوسف الشامي نائباً بطريركياً عليها ثم بدلهُ بعد حين بحضرة الخوري جبرائيل الحجار (وهو السيد غريغوريوس الحجار مطرانها الحالي) وكلاهما من الرهبانية القانونية المخلصية

وبينما كان غبطته على اهبة السفر من استانة العلية حوالي ٨ حزيران سنة ١٨٩٩ استأذن المقام العالي في ذلك فاوعىَ اليه من قبل جلالة السلطان الاعظم بان يتاخر عن السفر اذ ان جلالته يريد ان يراه مرة ثالثة. وهكذا في ٢٠ منه صدرت الارادة السنية مؤذنة له في المقابلة فنال شرف المثول بين يدي عظمته ولقي من لدنهُ عطوفاً سنياً تجملَ بها انعم جلالته به عليه وهو النيشان العثماني الاول ومداليتا الامتياز الفضية والذهبية وعطية مالية فخرج من السراي العامرة وكل جوارحه أَلسنة تدعو وتشكر وكتب بذلك الى الكنائس تلغرافياً فشاركته في اقامة الدعوات الخيرية

وفي غضون اقامته في دار السعادة تعرَّف بكثيرين من وزراء الدولة واكابر المامورين فيها وتعاهد معهم على المشاركة في خدمة نيات جلالة المتبوع الاعظم وتنفيذ غاياته الشريفة وتبادل الزيارة مع اصحاب الغبطة السادة بطاركة سائر الملل المسيحية وعقد معهم رُبط المودة وحادث غبطة البطريرك المسكوني للروم الارثوذكسيين بما يؤُول الى توحيد الحساب وتقريب الاسباب الداعية لانضمام الكنيستين. وتبادل الزيارة ايضاً مع جماعة من سفراء الدول الاجنبية وقناصلها وكانوا جميعاً يثنون على ما رأَوا فيه من الذكاء والغيرة والعلم والاقدام

وكان توافق مع سيادة المطران نيقولاوس القاضي على ان يكون نائباً بطريركياً عاماً في استانة العلية مع بقائه رئيس اساقفة بصرى

وحوران فاستلم ادارة النيابة ولكنه لم يطل عليه العهد حتى شكا من اعتلال جسمه واستاذن في العودة الى الشام فكان له ما اراد

واما سفر غبطته من الاستانة فقد تم في ٢٢ حزيران سنة ١٨٩٩ على الباخرة الفرنساوية وكان في صحبته سيادة المطرانين اغابيوس المعلوف وكيرلس مغبغب والايكونوموس ميخائيل شريم وقبيل نزوله الى الباخرة تلطف جلالة مولانا السلطان وارسل الى غبطته احد ياورانه الكرام ليبلغه السلام الشاهاني فكان ذلك مدعاة لاعادة الدعاء بحفظ جلالته وشيعه الى الميناء والى الباخرة بعض السادة نواب البطاركة والاساقفة وجماعة من كبار الموظفين واعيان الملة. ولدى مرور السفينة بميناء ازمير احتفل ابناء رعيته وغيرهم من الاعيان باستقبال غبطته وسالوه ان يزورهم في المدينة فاجابهم الى ما سألوا وسار في موكب حافل الى الكنيسة والقى على الحضور خطاباً انيقاً ثم اوعز اليهم بتوسيع الكنيسة وتجميل زينتها وحثهم على بذل الدرهم في هذا السبيل وافتتح العمل بدفع شيء من المال من جيبه فشكروا له غيرته واريحيته

وعندما ورد الى بيروت نبأُ خروجهِ من استانة العلية أَمر سيادة المطران ملاتيوس فكاك راعي الابرشية بان تؤلف لجنة لتنظيم الاحتفال باستقباله فقامت بما توجبت احسن قيام اذ هيأَت عدة من المركبات والزوارق وزينت ممرّ الكنيسة الكاتدرائية من خارج بابها الكبير بالاعلام والاغصان وفرشت ارضه بالرمل ورتبت عدة الاحتفال على ابدع ما يكون من الرونق. وايضاً فقد زينت المدرسة البطريركية صرحها الزاهر باجمل زينة

وبعد ظهر ٢٦ حزيران سنة ١٨٩٩ اجتمع على الميناء في بيروت جمع غفير من الشعب على اختلاف الملل وكان هناك سيادة المطران ملاتيوس الفكاك والمطران باسيليوس الحجار والرئيس العام للرهبانية الحلبية واعضاء

لجنة تنظيم الاحتفال وبعض اعيان الملة ومندوب من قبل عطوفتلو والي بيروت الافخم وبعض قناصل الدول الاجنبية والنواب الروحيين وغيرهم من اصحاب المقامات العالية واربعة ياورية فرسان وفرقة من العساكر المنظمة ورجال البوليس ويسقجية القناصل . ولما اقبلت الباخرة رافعة اللواء العثماني خفّ الى مقابلته في البحر سيادة المطرانين وحضرات المامورين الرسميين فشكرهم غبطته ثم نزل في زورق خاص مزين بالبنود والاعلام الى البر فاخذت العساكر سلامه وبارك الجمع المحتشد وركب على المركبة الخاصة التي ارسلها له عطوفتلو والي الولاية البيروتية وكان على يساره مندوب عطوفته فتقدمته الياورية الفرسان ولحقت به المركبات العديدة والعشرات الالوف من الخلق في موكب بهي الى الكنيسة الكاندرائية وهنالك استقبلته طغمة الكهنة بالملابس والترانيم الكنسية وريثما استقرّ في المنبر بارك الجمع ايضاً وفاه بخطاب تساقط الدر من خلال معانيه ولا سيما ما زانه من صفات ومآثر جلالة السلطان الاعظم وشكر أنعمه وعوارفه الحسان وابلاغ الامة سلامه الملوكاني ورضاه العالي ثم الدعاء لاريكته السنية بالتاييد على ممرّ الزمان وفي الختام سار غبطته في موكبه الحافل الى دار مدرسته وهنالك كرّت الناس زمراً وافواجاً تلثم انامله وتهنئه بما نال من المجد والفخار وتهنئ انفسها بسلامته . وقبل ان تغرب شمس ذاك النهار طلعت من فلك المدرسة شموس واقمار من بواهر الانوار اذ أُحرقت الالعاب النارية ورُشقت السهام تشقّ جوف السماء وسطعت جدران المدرسة وسطوحها وابوابها وفسحاتها بزينة لامعة من الوان متفرّقة ولا سيما الباب الكبير فانه قد رُسم فوقه بالانوار الغازية الملوّنة صوَر ورموز متنوّعة وفي جملتها عبارة الدعاء لجلالة مولانا الاعظم وهي « پادشاهم جوق يشا » ومن طرَفيها الحرفان الاولان من اسمي غبطة السيد البطريرك باللغة الفرنساوية وعلى شكل دائرة حولها شارات الكرسي البطريركي ورسما

التاج والعصا بابدع صنع واتقن عمل

وفي ٢٩ منه اقام قداساً حبرياً في الكنيسة الكاتدرائية لوقوع عيد القديسين بطرس (شفيعه) و بولس وختمه بعظةٍ نفيسة فحضرهما عدد لا يحصى من الخلق و بعد نهايتهما قصدوا جميعاً المدرسة البطريركية ليرفعوا الى غبطته فروض المعايدة

وقد أَمَّ بيروت في ذلك الحين كثيرون من اهالي الشام ولبنان ورؤساء الرهبانيات ليهنئوا غبطته بالعود سالماً فقابلهم بالملاطفة والشكر

وعُرِضت على ديوانه البطريركي جملة مسائل فحلَّ ما تعلق به منها واحال الى الدواوين الاسقفية ما خصها بداءة صيانة لحقوقها

وفي بيروت اتخذ الخوري ميخائيل الوف كاتباً ثانياً لاسرار ديوانه البطريركي عوضاً عن المطران كيرلس مغبغب واعطاه لقب ارشمندريت

ولم يطل عليه المقام حتى سار الى دير القمر وجرى له فيها استقبال لا يقلّ عن مثله في المدن الكبيرة وزينت البلدة بما فيها من المعاهد الدينية والبيوت العلمية والمساكن الاهلية وتبادل غبطته الزيارة مع دولتلو نعوم باشا والمثلث الرحمات المطران بطرس البستاني وكثيرين من ذوي المناصب والرتب العالية من رجال المتصرفية اللبنانية واعيان الاهالي ٠ ومنها توجه الى مدرسة عين تراز فامر بترميم بناياتها وزيادة عمارتها وتفقد ارزاق الكراسي البطريركية فيها وفي ما جاورها واوعز بالاعتناء في اصلاحها ومنها قام الى دير القديس جاورجيوس الشير في مكين (للرهبانية الباسيلية الحلبية) وفي المدرسة والدير كان له استقبال ممتاز

ومن هناك شخص الى زحلة ولا تسل عما أُقيم لهُ في تلك البلدة من معدات الاحتفال فانها فاقت ما سبقها في الزيارة الاولى ٠ وقد كان استقدم الارشمندريت اغناتيوس الحمصي نائبه في باريز ليرسمه مطراناً على ترسوس فسامهُ في كنيسة سيدة النجاة في زحلة في ٨ ايلول سنة

١٨٩٩ بمعاونة سيادة المطرانين اغابيوس المعلوف وكيرلس المغبغب وجعل مركزه في الشام بوظيفة نائب بطريركي عام . وفي ١٢ ايلول زار بعلبك فاستقبل بمظاهر التجلة والفخار . ومنها زار الفيكة وراس بعلبك ثم قارة ويبرود وفي جميع هاتيك الربوع صادف من لدن الحكومة السنية والطغمة الاكليريكية والشعوب ملتقىً لا يوصف بالاقلام ولا سيما من لدن ذلك المثلث الرحمات مقدام رؤساء الاساقفة وحجة التاريخ الملي السيد المطران غريغوريوس عطا الذي تمَّ واكتمل سرور شيخوخته بهاذ رآهُ في المنصب البطريركي وهو كفؤهُ وقد اتى الى قارة لاستقباله رغماً عن عجزه واهدى اليه وهو في يبرود حلة حبرية ثمينة

وبعد ذلك قام الى الشام فوصلها في ٢ تشرين الاول سنة ١٨٩٩ وكان له فيها استقبال رسمي من ابدع ما يمكن حصوله وقد تشاركت فيه الحكومة السنية والامة قاطبةً فجاء على احكم نظام . وفي الشام كغيرها من المدن اقبلت على غبطته وفود المهنئين من كل صوب وناحية وهو كان يعطر الاندية بنشر مناقب جلالة السلطان الاعظم ويبلغ الرعية سلامه الشاهاني ويذكر فضله وآلاءه . ومن تلك الحاضرة وجه حضرة الخوري روفائيل ابي مراد الى رومية بصفة نائب بطريركي لدى الكرسي الرسولي وذلك في شهر تشرين الاول من السنة نفسها وبينما كان لا يزال غبطته هنالك رُفعت الى مقامه البطريركي مسألة اوقاف عين القش" المتخلفة لابرشية بيروت عن المثلث الرحمات السيد اغابيوس الرياشي مطرانها السابق فانه استغاث به اثنان من نظارها هما سيادة المطران ملاتيوس الفكاك راعي الابرشية الحالي وجناب الوجيه بشاره افندي عيد الصباغ خلاف وقع بينهما بشان تضمين الاوقاف ام ادارة زراعتها بملاحظة النظار فكتب غبطته اليهما آمراً بتاجيل فصل المسالة الى ما بعد حضوره لبيروت

وفي ٦ تشرين الثاني سنة ١٨٩٩ حضر غبطته الى بيروت وكان جل اهتمامه البحث في مسالة الاوقاف السابق ايضاحها وبعد ان اطلع على خوافيها وغوامضها وألمَّ بجذافيرها وخابر نظارها واعيان الملة بشانها اصدر اعلاماً من ديوانه البطريركي قاضياً بايجاب التضمين على صفقات متعددة لسنة واحدة ام لسنين جرًّا لاستزادة المنفعة وبايجاب توزيع الريع على مقتضى تخصيصاته المعينة من الواقف وعلى هذا الحكم الصائب السديد جرى التضمين وخصَّ نصفه لفقراء بيروت والنصف الآخر تعين لفقراء الجبل يصرف بمعرفة راعي الابرشية

وفي ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٨٩٩ برح بيروت الى يافا والقدس الشريف وحين وصول غبطته اليهما استقبل استقبالاً حافلاً جدًّا من الاعيان والرؤساء الروحيين وكان من اعماله في البلدتين انه اشترى في الاولى ارضاً للكنيسة بقيمة تسع مئة ليرة واوفى في الثانية قيمة خمسة عشر الف غرش ديناً على الدار البطريركية مترتباً من نفقات الكنائس في السنين الماضيات · وعدا عن ذلك فانه وثق عرى المودة والوئام بينه وبين غبطة السيد البطريرك الاورشليمي للروم الارثوذكسيين واهدى اليه هذا الحبر الجليل تذكاراً لتلك المودة ثوبا من نسيج فاخر للاطيات وعصاً رعائية جميلة النقش · ومن القدس كتب الى الحبر الروماني الطوباوي يشير الى اغراض في نفسه ويعلن عن استعداده لعقد مجمع ملي تهذيبي عند سنوح الفرصة فجاوبه قدس البابا مثنياً على نياته ومقاصده · وبينما هو في الاراضي المقدسة بلغه ان المثلث الرحمات السيد غريغوريوس عطا رئيس اساقفة حمص وحماه قد وهنت قواه واشتدت عليه وطأة الانحلال لكبر سنه وفي ابرشيته املاك ذات مقادير وافرة مكتوبة باسمه الشخصي فاوعز غبطته الى السيد اغناتيوس الحمصي نائبه العام في الشام بان يستقدم اليه المطران غريغوريوس ويستكتبه صكاً باحالة تلك الاملاك الشخصية الى ملكية

اوقاف الابرشية وهكذا كان ومن الحكمة الالهية ان الحبر لم يجفّ عن صك الاحالة حتى عاجات المنون الواقف فتوفاه الخالق الى رحمته تعالى عصر يوم الاحد ثالث كانون الاول سنة ١٨٩٩ ودُفن باحتفال في الشام وقد اسف عليه غبطة البطريرك اسفاً شديداً لما انه كان صفوة الاخيار الابرار الاقدمين وعزّى ابرشيته لفقده واقام عليها نائباً بطريركياً حضرة الارشمندريت يعقوب الرياشي (الذي استبدل في ايار سنة ١٩٠١ بحضرة الارشمندريت ميخائيل الوف ثم اخيراً بحضرة الخوري يوحنا الحداد)

ومن يافا سافر غبطته الى الاسكندرية فوصلها في ١٨ كانون الاول سنة ١٨٩٩ ومنها توجه الى القاهرة ثم عاد الى الاسكندرية وفي المدينتين قضى عيدي الميلاد والفصح الشريفين واجرى اموراً ذات بالٍ في اصلاح احوال الاوقاف والمقتنيات البطريركية وجدد مشترى عقار للكرسي الاسكندري بقيمة كبيرة

وفي ١٠ ايار سنة ١٩٠٠ سافر غبطة البطريرك من الاسكندرية الى نابولي ومنها الى رومية فوصلها في ١٨ منه وجرى له فيها استقبال عزّ نظيره اذ اجتمع لمقابلته في المحطة بعض الكرادلة والرؤساء الروحيين من جميع الملل وماموري الفاتيكان وجناب سفير الدولة العلية وغيره من السفراء والقناصل واعضاء الجمعيات ووجوه من الشعب وساروا جميعاً في موكب واحد الى منزله وقد قابل قداسة البابا مراراً وتخابرا في امر المجمع التهذيبي وغيره

ومن رومية اصدر السيد البطريرك منشوره المؤرخ في ٣٠ حزيران سنة ١٩٠٠ الى جميع رؤساء الاساقفة والاساقفة وعموم الطغمات الاكليريكية والشعب القاطن في القارات الخمس من الروم الملكيين الكاثوليكيين وقد حضهم فيه على الاشتراك في ايفاء الواجبات المفروضة

على ذمتهم نحو جلالة السلطان الاعظم بمناسبة الاحتفال بيوبيل الجلوس الشاهاني الفضي واوعز اليهم بالاكتتاب في قوائم اللجان القائمة في عواصم الممالك المحروسة لجمع الاموال المزمع انفاقها في سبل الخير والبر وان تقام صباح العيد الشريف (١٩ اغسطس روني) الادعية في جميع الكنائس والمعابد والاديرة في المدن والقرى لتاييد جلالته وطول عمره وان يقضى ذلك اليوم بمظاهر الافراح وتجالي الابتهاج برصانةٍ وسلام وان تقام الزينات والانوار الباهرة في المعابد والمدارس والاديرة و بيوتات الاعيان ليلة العيد كلها وذلك كبرهان جديد عن خلوص الملة وعبوديتها الصادقة لجلالة المتبوع الاعظم

وفي ١٣ تموز سنة ١٩٠٠ توجه الى ليكورنيا اجابة لدعوة الطائفة فيها فقوبل بفرح واحتفال . ومنها ذهب الى باريس فوصلها في ٢٥ منه وكان لا يزال معرضها العامّ فرجةً للقاصدين من اهل البلاد والغرباء . وفي ٢٧ منه عيَّنته جمعية المحامين عن القديس بطرس الرسول في رومية رئيساً فخريًا لها

ومن الاعمال المبرورة المأْثورة عنه في عاصمة الفرنسيس ان ضامن القسم العجمي في المعرض وهو سوري المحتد قد لحقت به خسارة فاحشة فلجأَ اليه يستنجده فما كان من غبطته الا ان اعمل عامل المروءة والنخوة وقصد جلالة شاه ايران وكان يومئذٍ في باريز فقابله جلالته احسن استقبال وصرَّح غبطته له بغرضه وسأَله التجاوز عن قيمة وافرة من الضمان تبلغ نحو الف ليرة فاجيب سؤْله وهكذا انفرجت كربة الضامن عقيب ان ضاقت الاحوال واستحكمت حلقات الشدة عليه

ثم وهو في باريز صادف حلول عيد الجلوس الهمايوني فاحتفل العثمانيون به احتفالاً بديعاً وكان غبطة البطريرك مدعوًّا لحضور الحفلة فالقى خطاباً بليغاً عدَّد فيه مآثر جلالة صاحب العيد وكان لخطابه صدى ورنة

استحسان في دار الخلافة العظمى وصدرت الارادة السنية وقتئذٍ بابلاغه الرضى الشاهاني العالي على يد حضرة سفير الدولة العلية في باريز وبتبشيره بانه سينعم عليه بنيشان اعلى من النيشان الذي يتقلده

وفي ٢ ايلول سنة ١٩٠٠ رسم في كنيسة الملة في باريز حضرة الخوري روفائيل ابي مراد نائبه في رومية رئيس اساقفة على دمياط (بمعاونة السادة المطارين باسيليوس الحجار ونيقولاوس القاضي واغابيوس المعلوف من اساقفة الملة والسيدين المطرانين يوسف دريان وبولس بصبوص من اساقفة الملة المارونية) باسم بولس وقد شهد تلك الحفلة قنصل الدولة العلية مرسلاً من قبل السفارة وبعض معتمدي الجمعيات وعلية القوم في باريز وبعد القداس رقي سيادته المنبر ولفظ خطاباً افرنسياً امتدح فيه من السيد البطريرك والسادة الاساقفة داعياً بالحفظ والتاييد للمتبوع الاعظم . وابقاه في وظيفة النيابة عينها

وترك باريز قاصداً الالزاس واللورين فجازهما في ٢١ ايلول سنة ١٩٠٠ وكان له من لدن حكامهما واعيان اهلهما استقبال لم يكن لغيره فزينت المركبات والارتال التي كانت تقله في مدن الولايتين بالاعلام والرياحين ونثرت الازهار في الشوارع التي مرَّ بها مشياً على القدمين .

ثم شخص الى اراضي المانيا فزار بعض مدنها وفي ٢٧ ايلول سنة ١٩٠٠ أبحر الى القطر المصري فزار بورسعيد ثم الاسكندرية ومنها جاء بيروت فوصلها في ١٠ تشرين الاول سنة ١٩٠٠

ثم القى في الكنيسة الكاتدرائية في بيروت خطاباً صرَّح فيه ان الخلاف الذي شاع خبره وجرى على الالسنة لم يكن ذا بال بل هو من قبيل الطرق الموصلة الى المحجة كالخلاف الذي وقع في ايام الرسل القديسين بين بولس وبرنابا فان كلاًّ منهما كان يرى راياً منفرداً وكليهما يرميان الى غاية واحدة ثم قال ان هذا الخلاف زال وناب

عنه الصلح والوفاق اعتقاداً منه بان ما بني في رومية ثابت لم يتزعزع ٠
وفي ذلك الخطاب نفى من الافكار الاوهام التي كان اذاعها بعض المرجفين من قبيل مجافاة بعض الحكام والرؤساء الروحيين له فقال ان علاقاته مع جميعهم في جميع البلدان وفي جميع الاحيان كانت ولا تزال مكينة الروابط مؤذنة بالزلفى والموادة٠ثم ذكر شيئاً مما اتاه من الاصلاح واعداد المشاريع الخيرية في اسفاره الاولى والاخيرة وعدَّد ما اجراه من المساعدات المادية والادبية في جميع الكراسي البطريركية والابرشيات الاسقفية ولم يقصد في ذلك المفاخرة فانه لم يكن يفتخر الاَّ بالرب بل قصد بيان الحقائق التي تعامى اهل الغايات عن استبصارها

وفي ١٥ تشرين الثاني سنة ١٩٠٠ برح بيروت يصحبه احد الاساقفة فزار دير القديس يوحنا الصابغ في الشوير ودير سيدة النياح ثم زار دير القديس سمعان العامودي ومنه توجه الى برمانا وزار مدرسة بعبدات وعاد الى بيروت في ٢٢ منه ومنها ذهب الى مدرسة عين تراز لمشارفة ما شرع فيها من اعمال الترميم والعمار وتعاهد ارزاقها ورجع الى بيروت فمكث فيها اياماً

ولقد فاتنا ان نذكر ان الطيب الاثر السيد البطريرك غريغوريوس يوسف كان اشترى في اول رمل بيروت من جهة المصيطبة نحو ٢٥ الف ذراع ارضاً لتقام فيها بناية جديدة للمدرسة البطريركية لان مساكنها في المدرسة الحالية قد ضاقت بسكانها فافتكر غبطة السيد البطريرك صاحب الترجمة ان يقيم في هذه الارض ذاتها داراً خاصة له لائقة بسكناه و باستقبال زائريه من اهل المقامات العالية ٠ وقد كان هذا الفكر اتصل اليه من قدس البابا حينما زار رومية العظمى للمرة الاولى في عهد بطريركيته اذ رغَّبه قدسه فيه ووعده بامداده بما تستلزمه نفقات هذا البناء من المال وعلى ذلك اشترى الف ذراع ارضاً من الرمل المجاور

واضافها الى الارض السابق مشتراها وسوَّرها جميعاً بسور متين ولكن لما كانت الاحوال المالية لا تساعده وقتئذٍ على بناء المدرسة وقد تقدرت اكلافها تبلغ ٢٠ الف ليرة او نحوها وراى انه ليس من الحكمة ان تكون الدار البطريركية منفردة في محلة خالية من السكان عدل عن بنائها في الرمل واختار داراً اخرى بجوار المدرسة الحالية فابتاعها وامر باصلاحها وزيادة عمارتها وتأثيثها فجاءت على ابدع هندسة واجمل نظارة واشترى قبالتها داراً اخرى لصيانة فرجتها ووقاية استقلالها وبلغت اكلاف السور والدارين وما تجدد من الرياش نحو اربع مئة الف غرش وسرَّت الملة من بناء الدار البطريركية اذ اصبحت جديرة بان يقيم فيها بطريرك مسكوني بعد ان كان يقيم في غرف ضيقة في مدخل المدرسة الحالية

وفي يوم الجمعة ٢١ كانون الاول سنة ١٩٠٠ سافر الى الشام فقضى فيها عيد الميلاد الشريف ومنها اصدر منشوره المؤرخ في ١٢ شباط سنة ١٩٠١ وهو يحدد فيه اليوبيل (الغفران) الذي منحه قدس البابا الى العالم الكاثوليكي ويحثّ ابناء الملة على المبادرة لاكتسابه بالذرائع التقويَّة الصالحة . وفي ٢٤ اذار سنة ١٩٠١ رسم فيها حضرة الخوري جبرائيل الحجار مطراناً لعكاء باسم غريغوريوس وعاونه في ذلك اصحاب السيادة المطران نيقولاوس القاضي والمطران اغناتيوس الحمصي ومطران السريان الكاثوليكيين

وفي شهر ايار سنة ١٩٠١ ارسل كاتب سرّه الثاني الارشمندريت ميخائيل الوف الى يبرود بصفة نائب بطريركي لكرسي حمص وحماه وتوابعهما واستبدله في كتابة السر بالخوري ميخائيل الشمعة وفي الشهر ذاته نودي به رئيساً اعلى للجمعية المشهورة بجمعية اجناد المسيح ثم في اواخر حزيران منح حضرة الايكونوموس ميخائيل شريم كاتب سرّه الاول لقب

اكسرخوس وجعله نائباً بطريركياً في القسطنطينية واقام عوضه في ديوانه حضرة الخوري اثناسيوس البواب من الرهبانية الباسيلية المخلصية · وفي تلك الاثناء أَلمَّ به لين معدي جرَّ الى اسهال فاخذ جسمه ينحف ويهزل ولكنه لم يعبأ به ولا اكترث له بل ظنه عرضاً لا يلبث ان يزول في وقت قريب

وفي ٨ تموز فارق الشام شاخصاً الى الجديدة في مرجعيون فوصلها في ٩ منه ومن حين وصوله اليها بدأ ينظر في اعمال اسقفيتها ويدقق في مسائلها الباقية تحت الاشكال فحلها جميعها وتجوَّل في بعض القرى والضياع متفقداً الكنائس والمدارس والزراعة والمقتنيات فسرَّه ما راى من عناية حضرة النائب واهتمامه في تدبير الامور المتعلقة به ووطد العزم على ان يجعله اسقفاً اصيلاً للابرشية ولا سيما انه جامع للصفات والمناقب التي تؤهله لهذه الوظيفة · وقد كان طلب حضرة الخوري بشارة عيد ليجعله في ديوانه البطريركي فجاء من اوروبا ووافاه الى الجديدة في ٨ آب سنة ١٩١ فاقامه مكان حضرة الخوري ميخائيل الشمعة الذي بقي يتردد الى الديوان حتى الايام الاولى من شهر كانون الاول

وبينما هو في الجديدة التمس منه اهل بقاع العزيز ان يتلطف بزيارتهم فلم يسعه الا اجابة ملتمسهم رغماً عن انحطاط قوَّته ونحول جسمه فصمم النية على ذلك وقبل ان يترك الجديدة زار كل فرد من افراد اهاليها فدخل بيوتاً لم يكن دخلها ايام اسقفيته كاني به كان يودعهم الوداع الاخير · وايضاً فانه ارسل من الدار الاسقفية في الجديدة الى داره الجديدة في بيروت بعض الاثاث وعدة طنافس عجمية فاخرة وجمع الى متاعه كامل الاوراق التي كانت تتعلق به شخصياً ومجلداً خطياً يحتوي على اكثر مواعظه التي القاها وهو كاهن واستصحب بعض الاواني الكنسية وفي جملتها كاس ذهبي كبير مرصع بثلاثة حجارة كريمة وشعاع وكان في

نيته ان يهديهما الى الكنيسة الكاتدرائية في الكرسي الاسكندري

وفي ٢١ ايلول سنة ١٩٠١ خرج من الجديدة الى مشغرة وزار عيتنيت وصغبين والخربة وكانت مسألة المرشحين للكرسيين الاسقفيين وهما كرسي حمص وحماه وكرسي بانياس لا تزال غير منبتة بينه وبين فريق من الاساقفة اذ هو كان تقدم اليهم بتسمية حضرة الخوري كيرلس الكفوري والخوري اكليمنضوس المعلوف واكثرهم عارضوه في تسميتهما

الا انه في ذلك الحين ذهب سيادة مطران الفرزل وزحلة والبقاع برهطٍ من اعيان ابرشيته الى مقابلة غبطته في الخربة ورافقهم اليها سيادة المطران نيقولاوس القاضي الذي كان نزيل شتورة من مدة مديدة وهنالك امضى سيادة مطران الفرزل وزحلة والبقاع صك المصادقة على المرشحين السابق التنويه بهما

ثم انتقل السيد البطريرك الى قب الياس ومنها الى زحلة وفي كل هذه الاماكن احتُفل باستقباله احتفالاً باهرًا ولا سيما في الاخيرة وقد القى حال وصوله اليها خطبة في الكنيسة الكاتدرائية الاسقفية دعا فيها للمهاجرين الزحليين بالتوفيق والنجاح والعود بسلامةٍ الى وطنهم المحبوب ومن هذا الدعاء استخلص الى ذكر محبته لوطنه وقال « تنساني يميني ان نسيتكِ يا زحلة » فأثَّر كلامه في القلوب الصخرية وحالما طلع من الكنيسة الى الدار الاسقفية بين ازدحام الجموع استوقفته على قمة السلم اصوات الخطباء والشعراء فقاموا بتمداحه بما هو اهله وجاراهم وحذا حذوهم سيادة مطران الابرشية نفسه · وفي ٨ تشرين الاول سنة ١٩٠١ برح زحلة الى مدرسته في عاليه قصد الاستراحة مما عانى من مشاق الاعمال والاسفار وخصوصاً لكون العلة التي كانت أَلمت به قبل مبارحته الى الشام قد عاودته بشدة · وفي مقامه هذا زاره اكابر اعيان بيروت ولبنان وزاره ايضاً سيادة مطران بيروت وجبيل وصادق على المرشحين المنتخبين لحمص

وحماه ولبانياس . وكان قدم من حلب سيادة رئيس اساقفتها المطران كيرلس جحا فزاره هنالك وصادق على المرشحين المذكورين

وفي هذه الفترة التمس من غبطته حضرة الارشمندريت يوحنا عكة رئيس المدرسة البطريركية ان ياذن له في ابتياع الارض والعمار المعروفين بخان الشيخ محمود في عاليه بغية ان يُجرَّ الماء النابع في تلك الارض الى المدرسة فأذن له فيه وعُقدت المبايعة

وفي ٩ تشرين الثاني سنة ١٩٠١ نزل من عاليه الى بيروت وقد اتاه اليها اصحاب السيادة رئيس اساقفة صور ورئيس اساقفة بصرى وحوران ومطران صيداء ومطران طرابلس الشام وطالبه بعضهم بتعيين موعد لعقد المجمع التهذيبي على حين لم تكن جمعت المواد الاساسية لذلك المجمع فوعدهم به خيراً تلافياً للنزاع

وفي ٢١ تشرين الثاني سنة ١٩٠١ رسم الخوري كيرلس الكفوري رئيس اساقفة لحمص وحماه وتوابعهما باسم فلابيانوس وذلك في الكنيسة الكاتدرائية للنبي الياس في بيروت وعاونه في رسامته سيادة رؤساء الاساقفة والاساقفة المطارين كيرلس جحا وافتيموس زلحف ونيقولاوس القاضي وباسيليوس الحجار وملاتيوس الفكاك ويوسف الدوماني وفي ٢٤ منه رسم الخوري اكليمنضوس المعلوف مطراناً لبانياس وتوابعها في كنيسة سيدة البشارة في حي المصيطبة بمعاونة السادة المارّ ذكرهم (ما عدا رئيس اساقفة حوران) وسيادة المطران فلابيانوس الكفوري . وحضر الحفلتين حضرة الايكونوموس يوسف الكفوري الرئيس العام للرهبانية الباسيلية الحناوية وحضرة الخوري ميخائيل المعلوف الرئيس العام للرهبانية الباسيلية المخلصية السابق وبعد الرسامتين فاه كلٌّ من السيدين بخطبة انيقة عدَّد فيها مناقب غبطته وشكره والسادة المطارين المشتركين في الرسامة وفي الختام دعا لجلالة متبوعنا الاعظم

وعقيب كل رسامة من الرسامتين ادب غبطة السيد البطريرك مأدبة اكراماً للمرسوم دعا اليها جميع المطارين الذين قاموا بالاحتفال والرئيسين العامين للرهبانيتين المشار اليهما وفريقاً من الكهنة وتبودلت في المادبتين بينه و بين المطارين عبارات الموادة والمصافاة وشربوا نخبه وشرب نخبهم وانصرفوا بعد ايام قليلة الى كراسيهم

اما احواله الصحية فكانت من ذلك الحين تتغير وتتلوَّن وتتقلب من طور الى طور ومن مظهر الى مظهر حتى انه صار يسهو في ذكر الاسماء الاعلام ثم في نقل بعض مواضيع الكلام وتحير الناس في امر هذه الاعراض والعوارض وتقوَّلوا في اسبابها وعزاها بعضهم الى تناوله مادَّة سامة على غير علمٍ منه الا ان الاطباء الذين فحصوا حالته لم يقطعوا بشيء من ذلك بل رأوا ان العلة متأتية من ضغط الافكار بعضها على بعض ومن فواعل اضطهادات واشباهها ووصفوا له السياحة في البلاد الاوروبية وانشراح الصدر واعتزال الاشغال غير ان غيرته ونشاطه لم يكونا ليقعداه عن مزاولة الاعمال فظل يلازمها بفكرٍ متوقد وعزمٍ ماضٍ . وفي غضون هذه الاحوال زاره نيافة القاصد الرسولي وسيادة مطران اللاذقية ومطران عكاء وحضرات الحكام وكبار المامورين وقناصل الدول وغيرهم من الوجوه والاعيان وكان الجميع قلقين من اجله تتلاطم في بحار افكارهم امواج الهواجس فتقذف بهم الى سواحل اليا س والقنوط . واخيراً احسَّ في نفسه بانحطاط مضنك فاراد ان يبدل الهواء بتبديل المكان فانتقل الى مدرسته في عين تراز في ٢٠ شباط سنة ١٩٠٢ فساعده هواء لبنان البليل على الانتعاش في اول الامر وعاوده بعض النشاط واخذ يدقق في الاعمال والمسائل البطريركية و يتفقد الارزاق بهمة وعزمة ولكن لم تكن هذه الفرجة الا سحابة صيف ثم انقشعت فعادت الضيقة الى اشد من وطأتها الاولى وقويت عليه العلة الدماغية وصار يمتنع عن الكلام

وعن تناول الطعام الا في النادر وكان اذا اكل شيئاً يقيئه في اكثر الاحيان ثم كان يتناوب باطنته اللين والقبض وصار يرى الواحد زوجين فاتي اليه بالاطباء فلم يزيدوا على ما كانوا قالوه ووصفوه من قبل

وبعد ذلك اشتدت العلة واوجس ملاحظوه خيفة على حياته فاعلموا بعض المطارين بالحالة وقد عاده سيادة مطران بعلبك ومطران الفرزل وزحلة والبقاع ثم قصده من بيروت سيادة رئيس اساقفة حلب ومطران بيروت وذلك في ١٩ اذار سنة ١٩٠٢ وقصده من الجديدة سيادة مطران بانياس وذلك في ٢٢ منه ولما راوه في مركز متضعضع والخطر على حياته جسيماً ختموا على الاوراق والموجودات البطريركية هنالك واعلنوا الامر للقومسيون الملي في بيروت فاجتمع في الدار الاسقفية وقرَّر ارسال لجنة من نطس الاطباء والاتيان به الى بيروت اذا لم يكن في نقله اليها سبب للاضرار به وعلى ذلك ذهبت اللجنة الطبية الى عين تراز وفحصت حالة العليل فاثبتت ان لم يعد امل من شفائه وبالتالي فلا ينتج ضرر جديد من نقله الى بيروت وهو نفس القول الذي قالته قبل ذلك بيوم واحد لجنة من مشاهير الاطباء الزحليين كانوا حضروا الى عين تراز برفقة فرقة من اعيان مواطنيهم لعيادة المريض · واتصل خبره ببيروت وسائر الجهات فاكمد الهمّ قلوب اهلها وصارت تتطاير الرسائل من كل ناحية للاستقصاء عنه وأُقيمت الصلوات والدعوات في جميع المعابد توسلاً الى الله تعالى بالابقاء على هذا الرئيس المحبوب رحمةً ولطفاً بابناء ملته وسائر المسيحيين الذين كانوا يرجون على يده تمام الوحدة ومنافع اخرى

اما المطارنة الذين كانوا في عين تراز فلم يروا الا ازدياداً في سير المرض فبادروا الى دهن العليل بزيت المسحة المقدس وانزلوه الى بيروت في صحبتهم وصحبة حاشيته فوصلوها في مساء ٢٨ اذار سنة ١٩٠٢ (يوم الجمعة الكبيرة من اسبوع آلام السيد المسيح حساباً غربياً) وقد

كان تسابق الى بعض الطريق والى الدار البطريركية كثيرون من اهالي المدينة لتطمئن نفوسهم الى حالته فشهدوا منها ما زاد كربتهم وسوَّد وجوههم لانه عند وصوله الى باب داره بقي في مركبته نحو نصف ساعة يستريح من وعثاء السفر حتى تهيأ للاتكاء على سواعد المطارنة والكهنة ليطلعوا به الى غرفته

واقام في داره في بيروت ٢٧ يوماً عاده في اثنائها سيادة مطران ترسوس نائبه في الشام وغيره من الرؤساء الروحيين والحكام والاعيان وكان الكثيرون يدخلون الى غرفته رغماً عن تحريض الاطباء بتحريم الدخول اليه وغايتهم التزوُّد من رؤيته والتبرُّك به

وقد ختم السادة المطارين على الموجودات الثمينة والسجلات والاوراق البطريركية٠ واما غبطته فقد كان عرضة للتقلبات السريعة اذ كان تارة يتحسن نظام قوامه المعنوي والحسي فيظن ملازموه انه أَبلَّ من مرضه وتارة تنعكس احواله فيتخيل للناظر اليه انه في سبات او نزع ولكنه في صباح ٢٣ نيسان سنة ١٩٠٢ فاجأَته نوبة شديدة ثم افاق منها افاقة موقوتة فحُمل اليه القربان الطاهر وأُشير اليه وهو في فراشه بان يفتح فاه ففعل وتحفز للجلوس وتناول السرّ الشريف كانه وهو في صحة ثم لم تمهله النوبة حتى كرَّت عليه في الاثر وصحبها سعال جاف حادّ طول ذلك النهار ثم اخذ ينفث ويتنفس الصعداء من بدء الليل الى اليوم التالي وهو يوم الخميس ٢٤ نيسان سنة ١٩٠٢ فلازمته هذه الاعراض الى الليل (ليلة الجمعة الكبيرة من اسبوع آلام السيد المسيح حساباً شرقياً) ومنذئذٍ بدأَ ينخفض التنفس واخذت الحرارة ترتفع من اطراف الجسم السفلي الى ما قبل منتصف الليل بعشرين دقيقة فلفظ النفس الاخير وقبض الله اليه روحه النقية لتتمتع بالنعيم الخالد وهو بين ايدي السيد اكليمنضوس المعلوف مطران بانياس وحضرة الخوري بندكتوس السرغاني المدبر الثالث للرهبانية

الباسيلية الحناوية (خادم كنيسة سيدة البشارة في حي المصيطبة) على مشهد كثيرين من اهل الجيرة والاخصاء واولهم شقيقه الاسيف ناصيف الجريجيري فعلت الصفرة وجوه الجميع حتى شاكلت وجه الميت بيدَ انه كان يطفح نوراً وهم كانوا يطفحون دموعاً فبكوا وأعولوا وودوا لو يفدون الفقيد العزيز بأرواحهم الغالية ولكن قضي الامر والامر لله انّا لله وانّا اليه راجعون

ولقد كان رحمه الله رحمة واسعة طويل القوام ممتشقه معتدل الجسم سليم البنية قمحي اللون مستوي الانف دقيقه رقيق الشفتين ذا عينين سوداوين حسن الملامح مهوباً شديد القوى واسع الرواية قوي الحافظة فصيح اللسان صحيح المنطق خطيباً بليغاً سريع الخاطر وحسن الترسل وبصيراً في اختيار المواضيع . وكان لطيف المحاضرة سمحاً مضيافاً كريماً على الناس وشحيحاً على نفسه يتناول هبات الله باليمين ويبذلها باليسار دون ان يذخر منها شيئاً لنفسه او لذويه . وكان صادق الكلام صافي الوداد طيب السريرة نقي القلب عفاً طاهراً ذا مروءة ووفاء محباً للجميع بعيداً عن المماسحة والغيبة منزّهاً عن الدعوى والتشامخ . وكان حكيماً مؤسساً ايمانه على الصخر حافظاً كلام الرب وكارزاً به قدام الناس وصدّيقاً صالحاً غيوراً على حرمة الدين مواظباً على القوانين الرهبانية ورسومها صوّاماً مصلياً متصدقاً زاهداً متقشفاً صبوراً على المكاره جَلْداً في احتمال المشاق سخياً في الحق وبخيلاً في الباطل . وكان جسوراً مقداماً لم يخالجه جبن او خوف سحابة عمره . وكان عالي الهمة بعيد الغايات يتطالّ اليها من وراء فكرٍ وقاد وذكاءٍ ماضٍ . وكان مخلص الامانة لجلالة السلطان الاعظم ومسخراً في خدمة بني نوعه . وفي الجملة فانه كان الرجل الذي فضّله الله على سائر أُمته فأفردهُ بجلائل نعمه ووسع عليه منحاً من جودهِ للاضطلاع بالمصالح العامة فعمل وسعى وقاد الملة في سبل النجاح حتى

رفعها الى المقام الاعلى من الفخر واستطاع بنفسه ما لم يستطعهُ سواه من الدهاقنة والزعماء والعظماء وعلى كل ما ذكرنا له من الاوصاف والنعوت شواهد بينة بعضها مرَّ بيانه في الترجمة والبعض الآخر موضح في ما يلي استجلاءً للحقيقة

ولا نغالي اذا قلنا ايضاً انه هو الراعي الذي دخل الى الحظيرة من الباب فسمعت الخراف صوته وعرفته وتبعته بل هو نور الكنيسة وسراجها واركونها المعترف بالله والعامل مشيئته والفاعل السلامة والمعطي السائل والمقترض والمحب اعداءه والمحسن الى مبغضيه والمطعم الجائعين والساقي العطاش والمؤوي الغرباء والكاسي العريانين والعائد المرضى والآتي الى المحبوسين والمغيث الملهوفين والمعزّي الحزانى

نعم هو كل ما ذكرناه وفوق ذلك فانه من بدء انضمامه الى النعمة الكهنوتية قد اخذ يكفر بنفسه ويقهر جسده ويحزم احمالاً ثقيلة شاقة الحمل ويجعلها على منكبيه اذ صنع سوطاً بثلاث ضفائر من مرس وكان يختلي في حجرته ويجلد نفسه وكان متى ادركه التعب واللغوب يكلف الخوري بشاره ابي مراد سرًّا ان يجلده ايضاً والخوري الذي مضى ذكره لا يزال حياً يرزق وقد باح بسرّه الى العامة بعد وفاة الفقيد العزيز وهو على نصيب وافر من الورع والتقوى وشهادته حق هي . وايضاً فقد كان في الليل يلبس المسح ويتنطق بطوق من حديد ذي اشواك يشدّ به وسطه الى ان يسيل دمهُ . وفي خلسةٍ رؤي هذا الطوق في حجرته وهو كاهن في زحلة وفي غرفة منامه وهو اسقف في الجديدة . وطوى حياته ولم يخرق المفروض من الصوم والقطاعة حتى منتصف ايام مرضه الاخير وسمعنا سيادة رئيس اساقفة حلب (هو غبطة البطريرك الحالي) يقول له مرَّة وقد قُدّم له طعام قاطع في الصوم الكبير « انك ولئن كنت رئيسي فلي السلطة على ان امنعك من اكل الزيت لانه يزيد في الاضرار

بجسمك » وهكذا فانه قوي عليه وقتئذٍ واكرهه على اكل اللحم والسمن

وكان وهو اسقف في بانياس يساعد العملة على حفر الارض ونقل الاحجار وغرس الاشجار . وذهب مرَّة وهو بطريرك من بيروت الى عين تراز لمشارفة اعمال البناء والترميم في يوم زمهرير لا يقدر الشاب الحدث ان ينتقل فيه من بيت الى بيت يجاورهُ

ومنذ كان كاهناً الى ان رُسم اسقفاً ثم بطريركاً لم تخلُ داره من الضيوف في اكثر الاحايين وكانوا يبرحون من ضيافته ووجوههم تنطلق له بشراً وافئدتهم تفيض له شكراً . ولم يكن يقتني لاجل لباسه الا ثوبين احدهما خَلَق لحق به الرفو من جميع اطرافه والثاني عليه لمحة من الجدة والدليل على ذلك انه لدى وفاته لم يوجد عنده غير الثوب الذي أُلبسهُ ليُدفن فيه

ولم يذكر التاريخ ولا روى الكتَّاب ان حبراً من احبار الملة جمع مالاً للبرّ بقدر ما جمع هذا الرئيس على انه مع ما دخل عليه من الغنى الطائل الذي ارصدهُ للاعمال الخيرية لم يكنز لنفسه شيئاً ولا أَمدَّ شقيقه الفقير بما يسد الرمق . ولا ذكر التاريخ عن حبر انه سعى وجاهد وانشأ واسس ووعظ وارشد كما فعل الحبر الجريجيري والرسول الامين الغيور فانه لم يطا ارضاً الا وقد ابقى اثراً ماثوراً يخلد ذكره ابد الدهر ولم يدخل دسكرة ولا حضر مجلساً الا وقد القى عظةً ففتح اذن من كان في سمعه وقر . وانَّا لو تحرَّينا جمع عظاته لأَربت على الآلاف عدًّا وهي وان تكن شوارد في الاقطار والبلاد فقد كان لهارنين وصدًى في كل صقعٍ وناد . والجميل الذي يذكر في هذا الباب انه لم يعظ الا بما كان هو فيه مثالاً وقدوةً ولم يترك من وصايا الله والبيعة وآيات الانجيل موضوعاً الا غشيهُ فلله درُّهُ

ومما لا يجمل اغفاله في سرد ترجمته هو انه عدا ما اجراهُ من عظائم

الامور مما هو فوق عمل المئات من اكابر الرجال قد كان ينوي سننا ومشاريع جليلة كشف عن بعضها الغطاء ومهد لبعضها السبل ولكن لم يفسح له الاجل في تمهيد سائرها ولا ابقى عليه الزمان ليظهرها الى حيز النور وعالم الوجود · واخصها توحيد الحسابين الغربي والشرقي · وتاسيس مدرسة علمية كلية في القاهرة · ومدرسة صناعية في سورية · ومدرسة علمية كبرى للبنات في بيروت · ومدرسة اخرى للبنات اليتامى · ودير للراهبات على نسق اديار الراهبات الافرنجية · وكنيسة كاتدرائية في بلدة بانياس باسم القديس بطرس الرسول تذكاراً للمحل الذي قال فيه السيد المسيح لبطرس « انت الصفاة وعلى هذه الصفاة سأبني بيعتي » · وانشاء قومسيونات ملية في جميع الابرشيات الاسقفية من خصوصياتها النظر في اعمال السادة الاساقفة والسيطرة على دخل الكراسي الاسقفية وخرجها · وتهذيب قوانين الرهبانيات ووضع ريع اوقافها ونفقاتها تحت ظل المراقبة · وجمع ما يتوفر من اموال الكراسي الاسقفية واوقاف الاديار وتخصيصه للشروع في تاسيس معامل وطنية لنسج الانسجة وصنع الاواني مما يكون سبباً لمنع المهاجرة ولتشغيل العطل من الشبان وتقويم أَوَد المساكين المعوزين واغناء الوطن عن قسم مما يحتاج اليه من البلاد الاجنبية الى غير ذلك من الاعمال العائدة بالفائدة على الوطن واهاليه ونحن تلقاء ضياع هذه الاماني مع من ضاع قبل انفاذها لا يسعنا الا ان نلتمس من خلفائه اعمال الفكر في اكمالها او اكمال قسم منها وقد قيل ان ما لا يدرك كله لا يترك جله

ومن المضحكات ان واحداً او غير واحد لامَ هذا البطريرك على انه وضع صورته في صدر الكرسي البطريركي في الكنيسة الكاتدرائية بالشام واتهمه انه انما اراد بذلك الكبر والعظمة وزعم انه لا يسمح ان توضع في الكنائس الا صوَر الابرار الذين ثبتت المجامع قداستهم الى آخر ما وهمه

من السفسطة . وهو لو فطن للامر او لقن الدرس من خبير لم توغر الحزازات صدره والله المجير من ذوات الصدور لتسنى له ان يفقه الحقيقة ويدرك كنهها ويكفي نفسه مؤونة التنديد الذي جلب عليه العذل والتعنيف من حيث لم يكن يدري . واما حكاية وضع الرسم البطريركي في الموضع الذي اشار اليه هذا المتطفل فهي انه لما امَّ السعيد الذكر الطيب العين والاثر السيد البطريرك بطرس الرابع الجريجيري مدينة الشام بعد ارتقائه السدة البطريركية وافاهُ بعض اعيان المدينة وسالوه وضع صورته في صدر المباءَة في الكنيسة فاجاب السؤْل ارضاءً لهم وعملاً بالحق الذي يخوّله اياه الترتيب الكنسي اليوناني (اللاترجيا) فانه يوجب على خادم البخور تبخير الكرسي البطريركي لدى دورانه بالمجخرة فيوجه البخور نحو شخص البطريرك اذا كان قائماً فيه او نحو رسمه اذا كان شخصه غائباً اذ المراد تبخير الذات لا تبخير الآلة . وعدا ذلك فانهُ في الكنيسة الكاتدرائية نفسها في الشام يرى الداخل اليها فوق بابها الكبير صورتين للسعيدي الذكر البطريركين مكسيموس مظلوم وغريغوريوس يوسف . وايضاً في رومية العظمى امّ الكنيسة الكاثوليكية توجد في كنيسة القديس بولس صور جميع البابوات من بطرس الرسول الى لاون الثالث عشر مرسومة على حيطانها وليسوا جميعاً قديسين مثبتين وتوجد في كنيسة القديس بطرس الكاتدرائية تماثيل عديدة تشخص كثيرين من البابوات وفيهم من لم تثبت قداسته وتوجد في سائر الكنائس في كل واحدة منها صورة البابا الحالي وصورة الكردينال القيم عليها والبابا الحالي والكرادلة المتوكلون على تلك الكنائس لا يزالون في عالم الاحياء ولم تثبت قداستهم . فنتج مما تقدم ان السعيد الذكر السيد البطريرك الجريجيري لم يضع صورته في المباءَة ليُعبد ام ليسجد له فانه اجلّ من ان يوسمه بهذه الوصمة اذ هو احرص الناس على حرمة الدين

وابعدهم عن حب المجد الباطل وفخره بالرب واعماله لا بان تسجد الناس لرسمه وتمثاله

ولقد حاولنا وايمِ الحق التصوُّن من ذكر المشاغب التي قارنت مدة بطريركيته رعاية لمقام من اقاموها ونصبوها له ولكن نرانا الآن انا لا ندحة لنا عن الالمام بطرف منها فنقول ونحن آسفون : انه لما انتُخب بطريركاً بكلمة الملة على غير رضىً من بعض الاساقفة كما سبق البيان في محلهِ كمنوا الغيظ ونووا ان يعارضوه في خطته ليثأَروا الملة بناواته ويظهروا لها ان منتخبها غير جدير بالمنصب الذي رفعته اليه وشددهم في الثبات على عزمهم مضمون منشوره الاول ولمع مما كاشفهم به من نياته الاصلاحية اذ كل ذلك لم يرُقهم فعقدوا الحلف على التحالف ضده وسدُّوا دونه السبل الموصلة الى النجاح من كل مدخل ووضعوا للسعاية به رواداً في كل معقل وعاقوه عن اكمال المشاريع التي نوَّهنا بها آنفاً على انهم سامحهم الله لو اطلقوا له الجري في ميدان حقوقه لآنسوا من شخصه عضداً ونصيراً لهم في مهام ابرشياتهم ورأَوا من اعمالهم ما يفاخرون به اهل الخافقين وأَرضوا الملة التي هم من نوَّابها في احترام من وثقت به وترجت الفوز بامانيها على يده ولكن هي النفس امَّارة بالغايات وهيهات ان يردّ ما فات وهذا نصيب كثيرين من ائمة احبار الكنيسة الذين جاهروا مع الشعب في سن مبادئ الاصلاح وفي مقدمتهم يوحنا الذهبي الفم وغريغوريوس النيانزي وغيرهما ممن لقوا حتفهم قبل ان يكملوا خطتهم من جرَّاء معارضة رصفائهم لهم كما يتضح لمن استقرأَ سيرتهم ولا حول ولا قوَّة الا بالله العلي العظيم

وبالرغم عن ذلك فانَّا عددنا لهُ في هذا الزمن اليسير عملاً فوق الكثير وللمطالع ان يقابل الجدول الآتي وفيه كشف تقريبي عن مقدار ما جمع من المال في اثناء بطريركيته وهو واضح مما انفق ووزع وقني من

الرزق والعقار وخزن من الدرهم النقد والله وارث الارض وما عليها

بارة	غروش	
٢٠	٨١٥٦٢	اوفى ١٥ الف فرنك حسنة ١٥ الف قداس عن ذمة السعيد الذكر البطريرك غريغوريوس يوسف
	٤٠٦٧٠	دفع لاجل ايفاء ديون على اوقاف كنيسة باب المصلى في ميدان الشام ولاجل نفقات ترميم الكنيسة
٢٠	١٦٣١٢	دفع ١٥٠ ليرة فرنسوية اعانة لكنيسة القورشي في ميدان الشام
	٢٠٠٠٠	اعطى كنيسة صيدنايا وانطوشها على سبيل المساعدة
	٤٥٠٠٠	اعان المدرسة البطريركية الدمشقية
	١٠٠٠٠	ساعد ابرشية حمص بما لزمها من النفقات في مدة ترملها (فوق المبلغ النقدي الذي تركه راعيها المتوفى وقدره ٢٧ الف غرش)
	٢١٧٥	صرف لاجل تجديد المكتبة في الشام ٢٠ ليرة فرنسوية
٢٠	٥٤٣٧	دفع لجمعية الفقراء في الشام ٥٠ ″ ″
	٢١٧٥	دفع لجمعية القديس نيقولاوس في الشام ٢٠ ″ ″
٢٠	٥٤٣٧	دفع اعانة للمستشفى الميري في الشام ٥٠ ″ ″
٢٠	١٦٣١٢	اشترى بيتاً في بلودان وانشأ كنيسة وانطوشاً في عجلون بقيمة نحو ١٥٠ ليرة فرنسوية
٢٠	٥٤٣٧	دفع كلفة بناء كنيسة وانطوش في معرونه نحو ٥٠ ليرة
٢٠	٥٤٣٧	دفع اعانة لكنيسة ديار بكر نحو ٥٠ ليرة فرنسوية
	٤٣٥٠	ساعد كنيسة المعرّة بنحو ٤٠ ليرة فرنسوية
٢٠	٢٠٥١٢	دفع اعانة لبناء كنيسة في ازمير ١٥٠ ليرة انكليزية
	٢٨٠٨٢٠	

بارة	غروش	
	٢٨٠٨٢٠	جمع ما قبله
٢٠	٣٢٦٢	اعطى كنيسة معاصر الفخار من ابرشية صيدا ٣٠ ليرة
	١٥٠٠٠	اوفى ديناً على النيابة البطريركية في القدس الشريف
	٩٧٨٧٥	اشترى ارضاً لكنيسة يافا بمبلغ ٩٠٠ ليرة فرنسوية
	٧٥٠٠٠	دفع لاجل عمار الوجهين الجنوبي والشرقي في مدرسة عين تراز ولاجل مشترى ارزاق جديدة لها ما تبلغ قيمته تقريباً
	٨٧٠٠٠	دفع لاجل تجديد ارزاق في عبرا ولاجل مصاريف في سبيل انهاء دعواها المشهورة ما قيمته نحو ٨٠٠ ليرة فرنسوية
	٤٣٧٠٠٠	دفع لاجل بناء سور الارض المشتراة للمدرسة البطريركية في بيروت ولاجل ثمن الف ذراع لهذه الارض ولاجل ترميمات في المدرسة القديمة ولاجل مشترى دارين وترميم وتجديد عمار المسكن البطريركي ولاجل شراء بعض الاثاث (عدا الطنافس وادوات المائدة الفضية التي استحضرت من الجديدة)
	٢١٧٥٠	انفق لمصاريف بيته ببيروت في اثناء اقامته فيه نحو ٢٠٠ ليرة فرنسوية
	٤٣٥٠	عيَّل سجناء حيفا الفقراء الذين سجنوا في بيروت في سنة ١٩٠١ بمبلغ ٤٠ ليرة فرنسوية
	٢١٧٥	دفع اعانة الى كنيسة رومه اللبنانية من ابرشية بيروت ٢٠ ليرة فرنسوية
٢٠	١٠٢٤٢٣٢	

بارة	غروش	
٢٠	١٠٤٢٣٢	جمع ما قبله
	١٠٩٤٠٠	دفع ٨٠٠ ليرة انكليزية اعانة لبناء كنيسة كبرى في القاهرة (ويقال انه ارسل غير هذا المبلغ ايضاً . والذي نذكره مع الاسف ان العمل في اكمال بناء هذه الكنيسة توقف من يوم وفاة صاحب الترجمة)
	١٠٩٤٠٠	دفع ٨٠٠ ليرة انكليزية لشراء بيت في القاهرة تجاه الكنيسة
	٢٧٣٥٠	دفع ٢٠٠ ليرة انكليزية لتاسيس مدرسة في طنطا
	٧٠٠٠	دفع اعانة للجمعية الخيرية في طنطا
	١٣٦٧٥	دفع ١٠٠ ليرة انكليزية مساعدة لكنيسة المنصورة
	٤١٠٢٥	دفع ٣٠٠ ليرة انكليزية من جيبه الخاص ترضيةً لصرف مشاكل بين بعض اعيان الطائفة في مصر
٢٠	١٠٨٧	دفع ١٠ ليرات فرنسوية لجمعية القديس منصور في بيروت
٢٠	١٠٨٧	دفع ثمن جرس لكنيسة المريجات
	٢١٧٥	دفع ثمن اوراق نصيب للراهبات اللعازريات
٣٠	٥٤٣	دفع ٥ ليرات فرنسوية لكنيسة كرخا في ابرشية صيدا
	١٠٨٧٥	دفع راتب قوّاصهِ ٤ سنوات
٣٠	٣٤٣٥٥	ابقى ثلاث كمبيالات على جماعة معلومين
	٣٥٠٠٠٠	ابقى مالاً نقداً ما تبلغ قيمته تقريباً
	١٧٣٢٢٠٧	الجملة

ودفع عدا ذلك ما لم تنقدر لنا قيمه وهو ما اختص بنفقات الادوُر البطريركية في الكراسي الثلاثة ونفقات اسفاره وحاجيات ديوانه وما

ساعد به كنائس واناطيش ومدارس مرسين وترسوس وما ساعد به ابرشيات بانياس وزحلة وعكاء مدة ترملها وما اعان به مدارس زحلة وكنيسة سوق الغرب وديرَي الراهبات في زوق ميكائيل وما صرفه لمشترى بيت في رمل الاسكندرية وما ساعد به اسقفي بعلبك وطرابلس وما اعان به الجمعية الخيرية في استانة العلية وغيرها من الجمعيات الملحقة بالطائفة وبالطوائف الاخرى وما تصدَّق به خفية وما اجراه غير ذلك مما لا يعلمه الا الله الذي تستمد منه المكافاة والعطايا

وهذه القيمة الكثيرة في أعيننا لم تكن في عينيهِ الاَّ وشلاً من بحر وثمداً من قطر لانهُ على ما فيه من فضيلة القناعة كانت نفسه تطمع بالمزيد لا كمال السعي الحميد ومع ذلك فهو لم يمسك على الذين ساوروه بالمعاكسة بل غفر لهم وصلى من اجلهم وصبر بايمانٍ ومات ونفسه مطمئنة لاهتدائه بنور المسيح وتسلحه بسلاح الدين

ولقد تقوَّل الناس كثيرًا على علة وفاته حتى لهج المصريون وغيرهم بتشبيهها بعلة وفاة السعيد الذكر البابا اكليمنضس الرابع عشر المتوفى في سنة ١٧٧٤ ومهما يكن من الامر فقد كان الهلع عليه فاحشاً والجزع شديداً بين جميع الملل في جميع الاقطار لانهم عرفوه بالخبر والخبر انه عماد الكنيسة المختار ورجل الوطن المغوار وفرد من الافراد الذين ميزهم الله فرفعهم عن سائر خلقه لينفعوا ابناء نوعهم حتى اذا أتموا عملهم أخذهم اليه ليجزيهم خير الجزاء فيرحلوا ولا تبقى منهم الا آثارهم التي تخلد لهم الذكر على غابر الدهر

أَجل ان فقيد هذا العصر الذي أَخزى الحكماء وأَخجل الاقوياء سيبقى ذكره دائماً وقد قال الكتاب «ان ذكر الصديق يدوم أبد الدهر» ولا عبرة بالمثل القائل «ان كل شيءٍ يولد صغيرًا ويكبر الا الحزن فانه يولد كبيرًا ويصغر» ففي هذا شان وفي ذلك شان ولكل مقام مقال

[illegible] والإقدام والمؤيد [illegible]

[illegible] يوم الجمعة [illegible] الشهداء [illegible] الى الساعة ٣ [illegible]



البطريرك بطرس الجريجيري حين وفاته

الاحد الواقع في ٢٧ نيسان حيث يسار بها الى كنيسة النبي الياس الكاتدرائية لتدفن تحت هيكلها الكبير · وعلى ذلك أنفذ السادة الاساقفة وجمهور الملة رقاع النعي الى المقامات الرسمية والجمعيات الخيرية والرؤساء الروحيين من جميع الملل في بيروت وما جاورها من ولاية سورية ومتصرفية لبنان الجليلتين

وكانت الدار في يومي الجمعة والسبت مزارًا للقاصين والدناة وقد أمها ألوف من الخلق من اعيان البلدة ووجهاء لبنان ومأموري حكومتيهما وفي طليعتهم عطوفتلو رشيد بك افندي والي بيروت ودولتلو نعوم باشا متصرف لبنان وجناب الكونت دي سرسي القنصل العام للدولة الفرنسوية (الذي ابلغ الاساقفة والملة عبارات العزاء من لدن حكومته) وسائر قناصل الدول بعضهم باشخاصهم وبعضهم بنوابهم ورؤساء جميع الملل وفي مقدمتهم غبطة السيد افرام رحماني بطريرك السريان الكاثوليك ونيافة السيد دوفال القاصد الرسولي حاملاً من قبل قداسة البابا اشارة برقية ما كلها اعلام مطارنة الملة وجمهورها بأسفه الشديد لفقد رئيسهم وابلاغ تعزيته لهم بالنيابة عن قداسته · وحضر للتعزية ايضًا لجان من قبل جمعيات جميع الطوائف على اختلاف نحلها وبعضها حامل رسائل خطية تبث شكوى الحزن وفريضة العزاء بأبلغ العبارات · ووردت رسائل برقية عديدة نخص منها بالذكر واحدة من سيادة الارشمندريت جراسيموس مسرة المنتخب لاسقفية بيروت للروم الارثوذكس (وهو سيادة مطرانها الحالي) يظهر فيها اشتراكه مع الملة في الحزن على فقيدها العزيز · وكانت كلية القديس يوسف للآباء اليسوعيين وزعت رقاع الدعوة لحفلة تشخيصية اكرامًا لعيد رئيسها فاعلنت تأجيلها رعايةً للحداد على هذا الفقيد

وحضر من يوم الجمعة الى يوم الأحد السادة مطارنة صيداء وحمص وبعلبك وزحلة ومطران ترسوس (النائب البطريركي في الشام) ومطران

اللاذقية ومطران حوران ومع اغلبهم وفود من اهالي ابرشياتهم ومن مأموري حكوماتها . وحضر ايضاً الرئيسان العامان للرهبانيتين المخلصية والحلبية وفي صحبتهما فريق من المدبرين والرهبان . وجاءَت الراهبات العازريات وغيرهنَّ من الراهبات فرقاً فرقاً وتلامذة المدرسة البطريركية وسجدوا وصلوا تجاه المصلى وعليهم علامة الخشوع من هول المصاب اعترافاً بما كان بياديهم به الفقيد من مظاهر حبه الشديد لهم

وأَما يوم الاحد ٢٧ نيسان فقد كان كأَنه اليوم المشهود اذ اجتمع في ردهة الدار البطريركية جمهور اساقفة الملة واعيانها يتقبلون وفود المعزين من كبار الحكام والموظفين العثمانيين وقناصل الدول الاجنبية والرؤساء الروحيين ومؤلفي الجمعيات الخيرية والادبية ووجوه جميع الملل وغيرهم وقد غصت غرف الدار وعرصاتها في الداخل والخارج حتى لم يبقَ فيها مغرز قدم وكان الحشد يزحم الحشد والكل في نقطة الدائرة

وانه ولئن كان ذلك اليوم عيد الفصح عند الطوائف الشرقية فقد نكست قنصليات الدول راياتها منذ الصباح وفي جملتها قنصليتا الروسية واليونانية وامتنعت جميع الطوائف من تبادل تهانئ العيد مشتركة مع شقيقتها الأَسيفة في ابداءِ مظاهر الكآبة والحزن وهي مبرة لا يسعنا الا ان نرد الفضل فيها الى من سعى في تأْليف القلوب وتوحيدها أَلا وهو الفقيد العزيز صاحب الترجمة

وقبيل الظهر بدأَ الشعراء والخطباء يتبارون في تأبين الفقيد الجليل بأَقوال استعادت نوح المعولين حتى استنزفت منهم الدموع وأَسالت المآقي وقد كان المتقدم فيهم المعلم عبدالله افندي البستاني استاذ البيان باللغة العربية في الكلية البطريركية فتلا قصيدة من نظمه (ولم نقف على نسختها) وتلاه رفعتلو ابرهيم بك ابي خاطر ثم امين بك ابي خاطر فارتجل كلٌّ منهما مرثية من منظوم ومنثور (ولم نحصل على نسختي كلتا الخطبتين)

وجآءَ بعدهما المعلم ابرهيم افندي غزاله احد اساتذة المدرسة الشرقية في زحلة فقال

سهم أَليم رشقتنا به السماءُ · يئن له الصخر و يستنزف الدمع من المآقي ممزوجاً بالدماء كانها رأَتنا ابطرس غير مستحقين فتوفته منا في منتصف العمر لتمتع به العلويين او كانها شاءَت ان تحول بدرها الاماني فنقلت محسوده الابهى من العالم الفاني الى العالم الثاني او كأَن الدهر خاف معاندة هذا الجبار فسلط عليه المرض ثم شكا امره الى المنية فلم يغنها عنه عوض · · · ماذا ساءكِ منا ايتها المنية حتى اضمرتِ لنا سوء النية أَما كان الاولى بكِ ان ترضي باموالنا وغوالينا وتقضي بانعاش املنا واماننا حتى يتمتينا قبل الاوان وجعلتِ الدهر وايانا في حرب عوان عالمة انه سيتغلب علينا لانكِ اخذتِ منا السلاح واوهنتِ قوانا بترا كم الاتراح نعم اضعفتِ عزائمنا و كتبتِ ذلك على علائمنا ضربتِ ولكن على القلب فجاءَت الضربة موجعة والملمة مفجعة غير منحصرة فينا ولا مقتصرة علينا بل متناولة جامعة الحب والاتحاد التي لم يكن يخلو له خطاب من الكلام عنها وتوثيق اواخيها والتابعية الشريفة التي كان يتفانى في حبها و يوطد عزائم رعيته على شدة الاستمساك بعراها والمشروعات الخيرية التي كان يصرف معظم همه في اعلاء اعلامها وتشييد مبانيها والكمالات الانسانية التي كان يمتاز بها و يبعث القوم بمثاله وامثاله على استجماعها وتجميل الهيكل الانساني فيها

فهلمي ايتها الثواكل جميعاً وضمي صوتكِ الحزين الى صوتنا المخنوق الدموع وعددي معنا للفقيد المفدى صفات كالزهر يليق ان تكتب بماء الذهب ليس فقط على الاوراق بل على صفحات الصدر فلا تنسى ابد الدهر

اما انت ايها الذاهب المحبوب الذاهب بهناء القلوب فقد اوصدت عنا بمفاتيحك ابواب السرور واظلم بدرك المنير نخسف البدر واظلم في

وجهنا كل نور ولقد عجل الله بذهابك ليعجل بثوابك اذ قد غدا مديوناً لك بكثير من الحسنات فلم يشا ان تعيش ايضاً في دار النائبات فحيث قد وقفت النفس لخدمته ووقفت الان بحضرته فاسأله وهو خير مسؤول ان يمن علينا بنعمة الصبر لنعالج به خطباً يشق الصدر وان كان من مخروان يضحك الكرسي الباكي بمن يكون فيه تلطيف الاشجان انه الرحيم المنان

وتعقبه خليل افندي زيدان بالنيابة عن اخوية القديس بولس الرسول للروم الملكيين الكاثوليكيين فقرأ مقالة (لم تصلنا نسختها). ونسج على منواله سليم افندي اسعد الخوري العقاد فارتجل منظومة وهي هذه

يا فقيداً لم يرأس الشرق حبرٌ   قبلهُ ضمَّ حزمهُ ووقارَهْ
مذ أُنيطت به الرئاسة امسى الـ   ـسعي في وحدة القلوب شعارَهْ
فجع الشرق فيك بالسند الاعلى م   الذي بالانصاف يحمي ذمارَهْ
بالخطيب الخطير السيد الحا   زم حرِّ الكلام حرّ الاشارَهْ
خشنٌ ثوبه ومطعمه جا   فٍ واوصافه حجىً وطهارَهْ
وسجاياه هيبةٌ في اتضاعٍ   وقنوت وهمة قهارَهْ
فارفعوا الود والاكاليل عنهُ   فهو لم يألف جسمه ازرارَهْ
وبها زينوا كنائس انشا   ها وصرحاً للعلم اعلى منارَهْ
واذكروا ما حييتمُ اسم الجريجيريّ المفدّى وفضله واقتدارَهْ
فسلامٌ للسيد الحبر من شعبٍ م   تحبٍّ مغبطٍ تذكارَهْ
والوداعَ الوداعَ يا راحلاً را   حَ شهيد التقى وحسن البشارَهْ
ان قبراً فيه تسجّى بقايا   كَ سيمسي لكل فردٍ مزارَهْ

وقفا اثره الدكتور نجيب افندي بدوره فقال

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الامرُ وليس لعينٍ لم يفض ماؤُها عذرُ مَنْ لعيني ان تذرف الدموع السخينة ايها الحبر القديس على فقدك الذي صدع القلوب وشقّ الجيوب وحنى الاضالع واجرى المدامع حتى اضحت

الافئدة وهي تتاجج بأحرّ من جمر الغضا واحمى ومن للساني بجزء من فصاحتك فاذكر ولو قطرة من بحر مناقبك الغرّاء التي اضيق عن وصفها ذرعاً ولكن انى يتأتى لي الكلام وانا اراك فاقد النسمة جثة هامدة الا انه لمنظرٌ تتفطر له صمّ الصخور فضلاً عن قلوب ملأتها محبتك العذبة اللذيذة ولقد طالما كان مرآك يبهج القلوب ويشرح الصدور ويوعبها تعزية لا توصف وسروراً لا يُفسر فاصبح يبعث على بث الاشجان وتصعيد الزفرات والجزع والتأساء وصرنا نتمتم امامك ببعض الكلمات وقد طالما تلعثم بحضرتك البلغاء وأُرتجَ عليهم دهشاً من هيبتك ووقارك فصمتوا رهبةً واجلالاً وطالما اسكرت الجليس بسلاف نطقك وانعشت المحزون بعذوبة كلامك وهديت الافكار بنور مواعظك فايّ فضيلة لم تحرز وأيّاً من محامدك ابداً فأَصف أأذكر غيرتك الحرّى التي لا تجارى وحميتك القعساء التي لا تبارى ام صلواتك العديدة واصوامك المديدة وتقشفاتك الحميدة ام ايمانك الراسخ واتضاعك العميق ام محبتك لله وللقريب التي جعلتك تتفانى في كل ما يرضي الله وينفع الرعية ام اعمالك المبرورة وجهاداتك المشكورة ام مشروعاتك المبنية على الزهد بالدنيا والتمسك بالدين والمؤسسة على النذر الرهباني المتين ام مساعيك الآئلة الى ائتلاف القلوب والتقريب بين جميع الملل والشعوب الامر الذي حببك الى الله والناس وجعلنا مع سائر الطوائف اخواناً تجمعهم الوحدة الدينية والرابطة الوطنية ام تفانيك في خدمة ربك ومصلحة شعبك ام جودك على الفقراء والمساكين وشحّك على ذاتك واقتصارك على الضروريات من المعيشة ام تضحية ذاتك على هيكل المصلحة العمومية وبذل نفسك في سبيل اعلاء شان الطائفة وتعزيز الرعية

اجل لقد يفنى الزمان ويبقى في النفس حاجة لذكر هاتيك الافعال العظيمة المقدسة التي يتحلى بعقدها الفريد نحر التواريخ وتبقى مثالاً نادراً

يعزُّ افتقاؤُه فقد كنت نادرة العصر وبهجة الزمان وزينة الاكليروس ولقد احببناك طويلاً وفقدناك والوعتاه سريعاً ولم يكن بين الحالين برهة نسرُّ فيها بك ونلتذ بمحبتك بل اغتالتك المنون ولم تشفق على مهج ذائبة وقلوب لا نقوى على تحمل هذا المصاب الجلل فكانها — تباً لها — علمت ان حولك من البنين المحبين نطاقاً يمنعها من اغتيالك فاختلستك تحت جنح الظلام الحالك او درت ان كل دواءٍ مهما عز مبذول حتى الارواح عنك فدى فابتلتك بالداء الذي ليس منه شفاءٌ فكيف ساغ لك ايها الحبر الطاهر ان تبارحنا سريعاً وانت تعلم شدة تعلقنا بك الا تنظر الى بنيك هؤُلاءِ الذين يرنون اليك بطرف اذبلهُ التحسر لقد اجتمعوا ليودعوك الوداع الاخير على انه وان غاب عنا جسمك الطاهر فسيدوم ذكرك راسخاً في الخواطر رحمك الله يا ابا الايتام وسند المعوزين رحمك الله ياعماد الضعفاء وهدى المعتسفين فاذهب اذاً حيث تنتظرك السعادة الابدية وارقد في حضن من نقلك من دار الشقاء الى دار البقاء

نم سعيداً يا من قضيت شهيداً بجميل قدمت بين يديكا
انت احسنت في الحياة الينا احسن الله في الممات اليكا

واذ انت ماثل لدى العرش الالهي متمتع بالغبطة السماوية لابسٌ اكليل جهادك وفضائلك الرسولية فاشفع في شعبك واستدرّ لهم غيث البركات ولا تبرح ناظراً اليهم بحنو وانعطاف وذاكراً محبتهم لك الى ان يتاح لنا الاجتماع بك ومعاودة الانضمام الى حزبك بفضل الله وكرمه انه ارحم الراحمين

ووقف بعده نجيب افندي عساف جعفر فقال

سلامٌ عليكِ ايتها الجثة الكريمة . سلامٌ عليك ايها الهيكل الشريف سلامٌ عليك يا شهيد الجهاد . انى لك ان تفتح عينيك وتجيل نظرك الكريم يمنةً ويسرةً لترى شعبك المتجمهر حولك ليودعك الوداع الاخير

وتسمع نطق بنيك الاخصاء الذين اقسموا ان يحافظوا على محبتك وولائك اي والله انك وان اصبحت جثة هامدة فاننا لا نغير المبدأ الذي كنا عليه في حياتك وسنجري عليه في مماتك طالما لنا في الحياة بقية · واننا نقسم بجهادك ان نكون محبين لاحبائك مبغضين لاعدائك تجاهدين بآرائك ولا نخشى بذلك وعداً ولا وعيداً الى ان يضمنا واياك الموت · فاذهب اذاً يا شهيد الجهاد مشيعاً بدموعنا الحارة · وارقد في حضن من دعاك اليه · اللهم ان الفقيد قد يمم جوارك فافسح له في جوارك محلاً وتغمده بالرحمة والرضوان فانه كان للرحمة اهلاً وانزل على قلب آله وشعبه العزاء والسلوى برحمتك يا ارحم الراحمين

وناب عن الجمعيات المارونية نجيب افندي حبيقة فقال

كلٌ يريد رجاله لحياته ... يا من يريد حياته لرجالهِ

يا سادتي

دُعيت الى القيام بالواجب المفروض نحو المثلث الرحمات · باسم الطائفة المارونية · والفقيد كبير في ذاته خطير بمقامه فريد في جميع احواله فلم تنفعني في حقه فنون الخطباء ولم تسعفني في قدره اساليب البلغاء ولم اجد مرجعاً افضل من الكتاب المقدس استفتيه في وصف حبر من اعظم احبار الكنيسة المقدسة ولم اجد مثالاً اشرف من رسم السيد المسيح اشبه به ما امكن التشبيه هذا الراعي الصالح خادم المسيح ورسوله المتقد غيرة

تصفحت الكتاب فرايت السيد له المجد في المذود طفلاً صغيراً فقيراً حقيراً · فما كبرت شانه واعظمت اتضاعه · رايته حديث السن جالساً بين الشيوخ والعلماء يعظهم ويعلمهم ويفسر لهم الاسرار والنبوات فدهشت من فصاحته وفتنت ببلاغته وسعة علمه · رايته يطوف اليهودية يثبت اقواله باعماله ويؤيد رسالته بمعجزاته يشفي الاسقام والعاهات ويحيي الاموات فانحنيت رهبة واجلالاً وسجدت لسلطانه وسجدت لجبروته · ولكن

لما رايته راقياً جبل الجلجلة يحمل صليبه ليخفف مصائب العالم لما رايته مرتفعاً على خشبة الآلام لفداء البشرية وقعت على قدميه المقدستين وغسلتهما بدموعي وعفرت وجهي في ترابه هاتفاً : بصليبك قد عرفتك يا اله الرحمة . والرحمة الطف اسمائك . وبضحيتك انرت لبي وملكت قلبي والتضحية اساس دينك واسمى مجالي الوهيتك . اليونان يطلبون حكمة واليهود معجزة فبصليبك ابلغ حكمة واغرب معجزة

ياسادتي من خلال هذه الاسطر الوجيزة قرأنا سيرة المثلث الرحمات الذي سعى جهده في التشبه بمعلمه الالهي

ولد الفقيد فقيراً عارياً عن حطام الدنيا غنياً بالفضائل فتشرف الفقر والفقراء . اقامه الله في مقتبل الشباب مرشداً للشيوخ والعلماء يعظهم ويفسر لهم اسرار الدين ويشرح الوصايا وما كان ابلغه في اقواله مقرونة باعماله ولما القيت اليه مقاليد طائفته اخذ يطوف انحاء الابرشيات ليرعى الخراف باخلاص . وقد ظهرت معجزاته في افعال غيرته ولسان حاله ينشد مع النبي : غيرة بيتك اكلتني . فكم سعى للطائفة ولكم جدد وادّخر لها وكم اصلح فيها واحيا وان يكن عاش في منصبه قليلاً فقد فعل كثيراً مما يضيق المقام عن تعداده . وهو في جميع احواله مثال التجرد والنشاط مثال النزاهة والعفاف فقير شريف تحت مظاهر الغنى . والعفاف اجمل حلية يتحلى بها صدر رجال الدين والفقر ابهى تاج يزدان به مفرقهم . ولكفاه بذلك اثراً وفخراً لو لم يكن له اثر اشرف وفخر اكبر بصليبه وضحيته فان نفسه الكبيرة ابت الا ان يسير حتى النهاية في خطة معلمه الالهي . لم يشا ان تعبر عنه كاس الضحية بل اراد ان يشربها حتى الثمالة حباً بابنائه كالراعي الصالح بذل روحه عن رضى واختيار في سبيل خرافه . طلب الصعود ولكن على جبل الجلجلة رغب في الارتفاع ولكن فوق الصليب والصليب ارفع منبر يا ايها الوعاظ واسمى كرسي يا ايها الرؤساء . اقدم

بطيبة خاطر على حمل صليب الرئاسة ومشى كالقائد الباسل في مقدمة جنوده يفديهم بنفسه ويفدونه بالمهج . رايناه كمسيحه على الصليب مادا ذراعيه ليضم الجميع ضم الاخاء والسلام . مثله صاح : انا عطشان . عطشان الى خلاص شعبي . عطشان الى تضحية نفسي في سبيل رعيتي وقد حقق الله آماله كما تمنى « وكما اراد حياته لرجاله » .

جرى على اثار سيده حتى النهاية غير انه لم يقل مثله « قد تمّ » تمت انفاسه ولكن لم تتم رسالته . لم تتم مقاصده الكريمة فعاجله الاجل قبل ان يحقق امال طائفته وتظهر نتائج مساعيه الخيرية مثل وما تمت به الافراح

يا سادتي يوم طارت البشرى بوفود صاحب الغبطة الى بيروت تتبعه الجموع العديدة وتسبقه البشائر وتحف به القلوب هل خطر لكم انكم بعد قليل تطيرون الى العالم منعاه . ومن راى يده الكريمة تميل يمنة ويسرة لمنح البركة ولمح عينه البارقة غيرة ونشاطاً ترسل في كل صوب نوراً لطيفاً هل حسب ان هذه اليد يعتريها السكون عاجلاً وتلك العين يلحقها الخمود وهذا الحبر الجليل الذي ضاقت عن همته الاقطار لا يبقى منه الا هيكل دامد يحصره كرسي امامنا الى ان تحجبه عنا ظلمة القبر

فيا ايها الهيكل العظيم ان تكن نامت عينك وخمدت همتك وتمت رسالتك فان روحك الشريفة لا تنام ونفسك الكبيرة لم تتم رسالتها بل سارت الى خالقها تستمد منه شباباً لا يهرم ونشاطاً لا يضعف كي تزيد سهراً على طائفتها المحبوبة وجهاداً في سبيل خيرها ونجاحها . وانتِ ياروحه الكريمة انتِ ادرى بشؤون هذه الطائفة العزيزة واعلم بحاجاتها وما يلزمها من النعم . ولكني اسالكِ باسم الطائفة المارونية ولو حق لي لقلت باسم جميع الطوائف لان الخطب عميم والحزن شامل . اسالكِ ان تستمدي نعمة التعزية لابنائكِ اخوتنا ولنا نحن الذين نالنا النصيب الاوفر في هذا المصاب الجسيم . ان جراحهم بليغة فاسكبي عليها بلسماً شافياً . حققي امالهم

وفقي اعمالهم كللي بالنجاح مسعاهم . فتخمد احزانهم وتخف خساراتهم ويثبت لهم انك لم تبعدي منهم ولم تتخلي عنهم . اجل يا سادتي ان تكونوا قد فقدتم اماماً على الارض خطيراً فقد ربحتم شفيعاً في العلاء كبيراً

وناب عن جمعيات الروم الارثوذكسيين نجيب افندي نسيم طراد فقال

ايها السادة

منذ عامين وقفت نظير هذا الموقف وامام هذا السيد الراقد بسلام وكان مثل اليوم جالساً على كرسيه والناس قيام حوله وقعود . وكنت مكلفاً من قبل احدى جمعياتنا الارثوذكسية لان اقدم له واجبات التهنئة بسلامة القدوم وارفع له الشكر على مساعيه المبرورة في الدعوة الى التآلف والمحبة . ولا يحضرني تذكار ذلك الموقف الا تسيل نفسي التياعاً ويطير فوادي شعاعاً عند ما اتصور ذلك الرجل المشرق الطلعة الممتلئ عافية ونشاطاً ثاوياً في نفس هذا الكرسي جثةً بلا حراك وانا واقف امامه افيه الواجب الاخير باسم عموم الجمعيات الارثوذكسية . — اذكر ذلك يا سادتي واذكر المظهر الذي بدا لي فيه الفقيد في سلامة طويته وكرم اخلاقه ونبالة مقاصده وغزارة معارفه . — اذكر ذلك واذكر الامال التي كانت معقودة عليه والاعمال التي كانت متوفرة لديه والمآثر التي طوق بها جيد رئاسته والاثار التي خلدت له اجمل الذكر في ملته والمزايا التي ازدانت بها نفسه الطاهرة بما فيها من صلاح وفضل وكرم ونبل وتقوى واحسان وشفقة وحنان وغيرة واقدام ومحبة وروح سلام . — اذكر ذلك فاستعظم الخطب واكبر المصاب ولا اخص النازلة بملة واحدة ولا احصرها بفئة من الناس بل ارى الجميع فيها سواءً ويحق لي ان اسميها مصيبة وطنية وخسارة عمومية

اجل يا اخواننا الروم الكاثوليك لئن فجعتم برئيس طائفتكم وراعي

رعاتكم فقد فجعت النصرانية برجل من رجالها ونصير من نصرائها او فقدتم فيه ابا حنوناً ومدبراً حكيماً فقد فقدت المال المسيحية رسولاً للسلام وبشيراً بالاتحاد او خسرتم رجل علم وعمل فقد خسرنا وطنياً صادقاً كان يرجى عن يده الخير العميم لبلاد تعد فيها الرجال بالاصابع وهي في اشد الحاجة الى اهل الصلاح والاصلاح

فقيدكم يا سادتي احد اولئك الافراد الذين يملأُون الحياة بالاعمال والتاريخ بالآثار ويتركون بعد مماتهم فراغاً كبيراً في الوجود فاعذروا المؤبن ان ضاقت عليه مذاهب القول والتعداد في موقف يخرس به اللسان ويضيق الصدر ويضيع الرشاد

وماذا عساي ان ابلغ من رثاء هذا الفقيد الجليل اكثر مما نطقت به الدموع وسالت له القلوب وتقطعت عليه المهج والاكباد . بل اي وصف ابلغ مما تقرأونه على الوجوه وتسمعونه على الافواه ومن ذا الذي اعطي لغة ارميا ونغمة داود ليقف اليوم نادباً راثياً معزّياً الرعية براعيها والابناء بابيهم والانسانية برجلها

فيا ايها الراحل الكريم لئن اخرس الموت لسانك واخمد جنانك فصدى عظاتك لا يزال يدوي في اسماعنا وصوت عواطفك لا يزال يخرق قلوبنا . لقد شاءت ارادة مولاك ان تقصر مدى جهادك وكنت لو امدَّ الله بعمرك قائماً بكل ما اعددته من المشروعات الكبيرة ومكملاً ما ابتدأت به من العمل المقدس الذي دعاك اليه السيد المسيح وامرك ان تنادي به في بني الانسان . احببت المسيح والانسانية وعشت لله وللقريب فاليوم تبتدي لك حياة خالدة في السماء وحياة خالدة في التاريخ

سرت لله والتقى لك زادٌ ... وهو بعد الممات افضل زادِ
ولقد عشت في الحياة محباً ... لائتلاف القلوب بين العباد
وهي خير الصفات والله يجزي ... كل نفس سعت بامر اتحادِ

وعهدناك خير من كان يبدي   في سبيل الاوطان حق الجهاد
ولكم كنت مصلحاً لامورٍ   كان يخشى منها وقوع الفساد
رحم الله كل ساعٍ بخيرٍ   فيه احياءُ امةٍ وبلادِ
وسقى العفو ترب من كان يسقي   بسحاب من كفه كل صادِ

وناب عن جريدة المحبة البهية نجيب افندي نقولا مصور فقال

ايها السادة الاجلاءُ ويا ايها المحفل الموقر

منذ ثلاث سنوات في مثل هذا اليوم وفي مثل هذه الساعة شهدت بيروت عموماً والطائفة الارثوذكسية خصوصاً احتفالاً اشبه بهذا الاحتفال وحضرت مأتماً اشبه بهذا المأْتم ذلك يوم كان عيدها عيد مناحة وبكاءٍ اذ وارت في التراب رجلاً من رجالها وكبيراً من كبارها وعظيماً من عظمائها . ولقد ذكرني هذا الموقف ذلك اليوم وتلك الساعة لان اليوم الذي تنتحب فيه الطائفة الكاثوليكية هو ذات اليوم والساعة التي توارى فيها جثة هذا الراحل العزيز هي نفس الساعة

وكنت يومئذٍ قد وقفت لاقضي الواجب الاخير نحو ذاك العزيز وها انا اليوم اقوم باتمام هذا الواجب المقدس والخدمة المقدسة مندوباً من قبل جريدة المحبة الارثوذكسية التي كانت تنتظر ذلك اليوم الذي فيه تذيع البشرى على صفحاتها بتقدم هذا الراعي الجليل الى الصحة والعافية ولكن خانها الزمان فبدَّلت عبارات الشكر والهناء بكلمات الرثاء والعزاء

واما الحبر الجليل الذي تحتفل الطائفة الكاثوليكية بدفنه اليوم فانتم اعرف الناس به واقرب الكل اليه . لانه هو الرجل الذي رات فيه الطائفة منذ خمس سنوات الراعي الامين ليقودها الى مراعي الصلاح والفلاح ويصعد بها الى قمة المجد والعظمة

هذا هو ابوها الحنون الذي تعودت ان تراه في معابدها وتسمعه على منابرها وتحييه في مجالسها

هذا الذي عرفناه غيوراً على ملته محباً لابنائهـا ساعياً وراء ترقيها ونجاحهـا

هذا الذي رايناه يهب هبوب الريح عند حل المعضلات وفك المشكلات بقلب ملئه اخلاص ووفاء

هذا الذي نظرناه يتوقد بالحمية والغيرة توقد النار الملتهبة و يسعى وراء المصلحة العمومية قبل المنفعة الشخصية

هذا الذي شاهدناه يندفع كالسيل على منابر الوعظ والارشاد داعياً الجميع الى الالفة مقيداً الكل بسلاسل محبته مستميلاً القلوب برقيق الفاظه

هذا الذي سمعناه يبشر بالرجاء والايمان والمحبة والاكثر بالمحبة لانها اعظم هذه الفضائل الثلاث داعياً الناس على اختلاف الملل والمذاهب الى التعاون والولاء والاخاء والمحبة . ذلك لانه كان يعتبر ان الكل من جبلة واحدة يخضعون لسلطان واحد و يعبدون الهاً واحداً

نعم يا سادة لقد سمعته سمع الاذن يتكلم عن الالفة والوفاق ورايته مرأى العين يطالع الجرائد على اختلافها و يرتاح الى كل ما يكون فيها داعياً الى الالفة والتحاب والحث على التعاضد والتناصر مما يجمع الكل ضمن حظيرة واحدة هي الوطنية وتحت رعاية راعٍ واحد هو السيد المسيح له المجد

فما اجمل هذه الغاية وما اصدق هذا المبدأ الذي وضعه نصب عينيه ونظر اليه نظرة من ينظر الى مستقبله المجيد وآتيه المكلل باكاليل المحبة الحقيقية . ولكم كان يتمسك بعرى الفضائل المسيحية ويتحلى بحلى التقوى الحقيقية و يتزين بصفات الرئيس الحميدة التي يجب اظهارها امام الرعية حتى تقتبس منها ما هو حسن وحميد . ولكم كان يجد وراء تحقيق الحق ونصرة الضعيف وتأييد المسكين ولو حال دون ذلك اكبر الموانع واشد الصعوبات

هذه هي صورة فقيدكم المعنوية فانظروا الان الى صورته الحسية جثة بلا حراك بعد ان كانت لا تعرف الراحة ولا تدري ما السكون

هذا هو الجريجيري حضرت بالامس ساعة احتضاره ورايت عينيه تلمعان لاخر مرة وسمعت صوته منقطعاً صادراً من اعماق الفؤاد فكان لي اعظم عبرة وتبصرة وابلغ خطاب سمعته من فيه ايام الحياة

رايت كل ذلك وسمعت كل ذلك فخلوت الى الضمير مفكراً في تلك الساعة الهائلة الواقفة حداً بين الوجود والعدم والموت والبقاء !

خلوت الى الفكر فهالني ذلك المنظر الرهيب وراعني ذلك المشهد المرعب فقلت في نفسي ما اسرع ما تمر الايام وتتغير الاحوال وما اعجب ما تلده الليالي من حوادث هذا الوجود ومصائب هذا الموجود

نحن يا سادتي قليلاً ما نرثي مثل هذا الفقيد الجليل لان الرجال الذين مثله قلال في هذه البلاد يعدون على الاصابع ويشار اليهم بالبنان

أرايتم يا قوم كيف تحيا الرجال وكيف تكون الرجال وكيف تموت الرجال ؟ . . .

ارايتم كيف تكون خدمة الشعوب وخدمة الهيئة وخدمة الدين ؟

ارايتم كيف تموت الابطال في خدمة المبدإ والواجبات وهل نظرتم ما يكون مصير من يدخل حرب هذه الحياة الحامية ويحضر في ساحة الوغى ويحارب في اشد المعارك فان فاز فيها فعن جدارةٍ واستحقاق والاَّ فهو شهيد الدين والوطنية والانسانية

هكذا كان فقيدكم المثلث الرحمات صاحب الغيرة والهمة والصبر والثبات والقول والعمل وهكذا انتقل لرحمة ربه شهيد المبدإ والواجبات فصحّ فيه قول القائل

واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسامُ

فمضى عن هذه الديار ولسان حاله يقول

واذا لم يكن من الموت بدٌّ   فمن العجز ان تموت جبانا

و يعز على المحبة في مثل هذا المقام ان تطوق بالسواد جيد عددها في الفصح المجيد وتحمل الى قرائها الكرام خبر موت صديق من اصدقائها ولكن شاءت حكمة الرب ان تفتقد هذه الطائفة الكريمة بهذا الراعي النبيل فالرزء فيه رزءٌ عظيم والمصاب مصاب اليم

اسكنه الله فسيح جنانه والهم آله وطائفته جميل عزائه

ومهما بكينا فهو ليس بعائدٍ   الينا ولكن كاننا خلفه نجري

وناب عن جمعية سيدة التلة الديرقمية يوسف افندي غنام ثابت فقال

نادبة العلى والمجد

اعرفتَ من فجعت به الاقوامُ   والخلّ فيه من العلاء نظامُ
وتضعضعت لمصابه اقطارنـا   وشكت لخطبه والخطوب جسامُ
ان الحوادث لا تكفُّ صروفها   عنا وما طاشت لهنَّ سهامُ
في كل لمعة بارق تغتالنا   بمصائبٍ تودى بها الاجسامُ
وتدكُّ منا كلَّ طودٍ شامخٍ   لوقوعهِ تتدكدك الاهرامُ
دُنيا بانواع الردى مملوءة   من شرّها لم يوقَ قط غلامْ
كل الوسائل عند وقع خطوبها   عجزا ولم يدفع بهنَّ حمامُ
تسطو على كل الخلائق لن يرَى   عفوٌ لديها يرتجى وذمامُ
قد افجعت بيروت في هذا الضحى   بمن اعتلت في وصفه الاقلامُ
اعني به المفضال بطرس من سما   سمك السماك وزانه الاقدامُ
حبرٌ به تاه الزمان مفاخرًا   وزهت بطالع مجدهِ الاعوامُ
قد كان بدرًا في سماء بلادنا   ابدًا لهُ دون البدور تمامُ
لا نقص يدركهُ ولم يلحق بهِ   عيبٌ ولم يمسس علاهُ ذامُ

نلقى بهِ حبراً هماماً باسلاً ذا عزمةٍ من دونها الصمصامُ
رجلاً حكيماً المعياً كاملاً هو في تصاريف الامور همامُ
يرعى رعيتهُ بحبٍّ ما لهُ ندٌّ وخُلقٍ ليس فيه عرامُ
فانبكِ فيه اليوم شهماً فاضلاً للدين فيه عزّة ومرامُ
فانبكِ فيه اليوم ركناً للتقى قسطاس عدلٍ للانام قوامُ
فانبكِ فيه اليوم مولىً باهراً بقداسةٍ رُفعت لها الأعلامُ
فانبكِ فيه اليوم مولىً عادلاً بقضائهِ تتزين الاحكامُ
فانبكِ فيه خلائقاً طابت بهِ لم تحصِ وافر عدّها الارقامُ
فأمطِرْ ثراهُ يا مهيمن رحمةً تهمي عليهِ من علاك غمامُ
واجعلهُ في دار النعيم مكرّماً فلبطرسٍ حقاً غدا الاكرامُ

وناب عن اخوية القديس يوسف المارونية رئيسها نخله افندي بطرس شكري فقال

لقد انقضت علينا صواعق الاحزان وتعالت هتافات الاشجان فوقفت باسم اخوية القديس يوسف المارونية ابكيك يا بدر الكمال والاحسان وارثيك يا من خلفت لطائفتك الكريمة وللاوطان حسرةً يدوم ذكرها مدى الازمان

انوحُ على فقد الكرام الاماجدِ وابكيك يا حبر التقى والمحامدِ
انوحُ عليك اليوم مع كل نائحٍ وارثيك من قلبٍ حزينٍ وكامدِ
ايا كوكباً قد غاب عنا ضياؤهُ فاظلم وجه الارض في ذا التباعدِ
لقد كنت في اوج العلا متسامياً فغادرت داراً كنت فيها كزاهدِ
تفرَّدت بالافضال والبرّ والسخا وللناس طرّاً كنت خير مجاهدِ
فضائلك الغراءُ قد طاب نشرها واعمالك الحسناءُ من دون جاحدِ
بنيتَ صروح المجد والفخر والعلا وشيدت ركن العلم اسمى المقاصدِ
وعممت روح الدين يا خير من هدى رعيت خرافاً بين شكرٍ وحامدِ

واغنيت مشرقنا بخيرٍ اتيته ُ فكم اثمرت اقطارنا بالفوائدِ
كأَنا فقدنا الف الفٍ بفقدكم دماً ودموعاً نبكي مع كل فاقدِ
فاصبحتِ الاحزان مورد شرقنا تزيد خطوب الناس ناءٍ ووافدِ
واضحت قريحات القلوب من الاسى تفيض اللظى ناراً وبالحرّ زائدِ
فيا لهفة الباكين بعد فراقكم ويا لوعة الشاكين دهر المكائدِ
ويا وحشة الدنيا وكانت انيسةً فبعد بعاد البدر بعد الفراقدِ
فأَين بهاءُ الثغر من بعد بعدكم واين صفاءُ الفجر يزهو لعائدِ
فالمشرق لونٌ قاتمٌ بعد منظرٍ انيقٍ ودمعٌ سائل دوم واجدِ
خسرنا بكم روح الديانة والتقى خسرنا نصير الخير حبر المعابدِ
خسرنا علوماً كاللآلي ثمينةً خسرناك يا ركن الهدى والعقائدِ
خسرنا غيوراً ما لهُ من مماثلٍ وكم قد اصاب الحزن من قلب جامدِ
تيتمتِ الايتامُ من بعد فقدكم تشتتتِ الابناءُ مثل الشواردِ
تجمعتِ الاحزان في كل بلدة وهاجت بنا الاشجان من غير قائدِ
بكتكَ المعابد والمعاهد كلها وقد قام من فرط الاسى كل قاعدِ
بكتكَ بنوك الآسفون جميعهم بكتكَ بنو الاوطان يا خير راقدِ
بكتكَ بنو الدنيا وزاد عويلهم فيا غامض الاجفان ادعو كوالدِ
فادعوا لآل الشرق والغرب كلهم لكي يجتنوا صبراً على تِ الشدائدِ
وادعوا لكل الحافلين بدفنكم لكي يتعزوا بعد فقد المساعدِ
وادعوا بسلوانٍ لكلٍّ فكلنا نروم لكم حظاً يدوم بخالدِ
بدار نعيمٍ حيث تحيي مخلداً وفيها ترى خير الكرام الاماجدِ

وكان كثيرون من الادباءِ يتحفزون للتأبين والرثاءِ الاَّ ان الرؤساءَ ولجنة ترتيب الماتم حظروا عليهم الامر لفوت الموعد

وقد سبق ذكر الاعيان الذين حضروا لتقديم فريضة التعزية في اليومين السالفين وفي جملتهم حضرة السير دريموند هاي والمسيو شريدر

القنصلين العامين لدولتي انكلترا والمانيا وغيرهما من قناصل الدول العوامّ غير انه في يوم الجنازة كان كثيرون منهم متغيبين عن البلدة وبعضهم موعوكين فانابوا عنهم للسير في المحفل القناصل الثانويين والتراجمة كما سياتي

وفي اثناء الخطابة حضر الى الدار البطريركية غبطة السيد افرام رحماني بطريرك السريان الكاثوليكيين يصحبه سيادة الحبرين ميخائيل نخاش وغريغوريوس هبرا مطراني الشام والموصل · وسيادة الحبرين يوسف دريان ويوحنا مراد موفدين من قبل غبطة السيد الياس الحويك بطريرك الطائفة المارونية · وسيادة الاب ابيليان وكيل بطريركية الارمن الكاثوليكيين · والرؤساء العوام للرهبانيات ولفيف الاكليروس الكاثوليكي واعضاء الجمعيات والاخويات بشاراتهم الخاصة · والراهبات · وتلامذة المدارس ببزتهم الرسمية

وايضاً فقد حضر دولتلو نعوم باشا متصرف جبل لبنان يصحبه سعادتلو الميرقولان اللمعي رئيس مجلس الادارة وسعادتلو اسكندر بك التويني مدير الامور الاجنبية · وسعادتلو ميشال افندي ادّه بملابسه الرسمية موفداً من قبل عطوفتلو ملجإ ولاية بيروت · وعزتلو ديمتري بك تسيروني موفداً من قبل سعادتلو قومندان الموقع · وجناب الكونت دي سرسي قنصل فرنسا العام يصحبه المسيو بيان القنصل الثاني والمسيو بلانشون الترجمان الاول وجميعهم بالملابس الرسمية · وجناب المسيو ستريش وحنا افندي مدور القونشلير والترجمان الاول لقنصلية النمسا موفدين من قبل قنصلها العام · وجناب المسيو كرولاّ الترجمان الاول لقنصلية ايطاليا والقنصل الثاني للدولة الروسية وسليم افندي شحاده الترجمان الاول لقنصليتها والمستر هسكت قنصل انكلترا الثاني يصحبه اسبر افندي شقير الترجمان الاول لقنصليتها وداود بك زلزل ترجمان قنصلية المانيا موفدين

من قبل القناصل العوام · وجناب المسيو هومل قنصل هولندا العام · وجناب المسيو لايتي قنصل بلجيكا وغيرهم من القناصل والموظفين واكابر القوم واعيانهم

واما اكاليل الازهار التي تقدمت من جناب قنصل فرنسا العام ومن الجمعيات والاخويات والرهبانيات والابرشيات والمدارس والاعيان فهي تبلغ زهاء المئة وكلها مصنوعة على اتقن نمط واحكم نظام

وعندما اذنت ساعة الرحيل واخذ الجمع بالاصطفاف تقدمت الى عتبة الباب الكبير المركبة المهيأة لنقل الجثة الطاهرة تجرها ستة افراس من جياد الخيل وقد ملئت اكنافها بالاكاليل وارخيت سجوف من نسيج فاخر اسود على جوانبها الاربعة فحمل بعض الكهنة الفقيد اليها باحترام وهو في حلته الحبرية على كرسيه وفوق راسه التاج وبيديه الكريمتين الصليب المقدس وعصا الرئاسة ووضعوه فيها فارتجت وعرتها هزة فرقًا مما حملت ومن ثم سار الموكب بالالوف المؤلفة وكأنّ على رؤوسهم الطير الى كنيسة النبي الياس الكاتدرائية على الترتيب الآتي

مشى في الاول فريق من رجال البوليس ونحو مئة نفر من العسكر الشاهاني منكسي السلاح ثم رجال الجندرمة وبوليس البلدية ويسقجية القناصل وتلامذة المدارس الخيرية للروم الكاثوليكيين ثمّ فرقة من تلامذة كلية الاباء اليسوعيين فتلامذة المدرسة البطريركية وفي وسطهم المرتلون ينشدون انشودة محزنة وهي هذه :

إذرفي بيروت من فرط الاسى ادمعا واسقي الثرى غيوثكِ وصدع الاضلعا
عظمَ الخطب فاودى بالقلوب جوًى محرق بالنار احشاء الورى والنهى ضيّعا
قد هوى كوكب العلى والهدى وعليه قد بكى قطر الندى
واستكان المجد تحت بند الردى ولقد عمَّ البلا كل الملا
فاندبوا تحرقًا ووجعا

ان هذا اليوم لا تعلو بـه ارؤُسُ بل قد عنت لهوله ووقعه الانفسُ
فنط الرشد لخطب كالرواسي رسا فاجعٍ قلب العلا فالاماني تدرسُ
والتـقى يا عبـاد قـد صدّعا والرُّبى اهتزّت ومادت جزعا
بطريرك الشرق رزؤُه اوجعـا واكتوى قلب الصفا لما انطفا
بطرس فطاطئوا خشّعا

وجآء بعدهم اعضآء جمعية دفن الموتى للروم الكاثوليكيين فبنات اليتامى فالراهبات اللعازريات فتلامذة جمعية القديس منصور واعضآء جمعيتهم فتلامذة مدارس الارمن والسريان الكاثوليكيين واعضآء جمعياتهم فاعضآء جمعية سيدة التلة الديرقمية فتلامذة المدارس المارونية واعضآء جمعياتهم وهي الجمعية الخيرية وجمعية اخوة الفقرآء وجمعية القديس مارون وجمعية طوبيا البارّ واخوية القديس يوسف ثمَّ تلامذة مدارس الروم الارثوذكسيين ينشدون انشودة شجية مطلعها:

اسكبي ياعين دمعاً هتوناً على فقد ذاك المفدّى بالارواح

ثمَّ جمعياتهم وهي الجمعية الخيرية وجمعية اتحاد البرّ وجمعية القديس بولس وجمعية مستشفى القديس جورجيوس وجمعية دفن الموتى وجمعية التعليم المسيحي ثمَّ كهنة السريان والارمن الكاثوليكيين فكهنة اللعازريين والكبوشيين واليسوعيين والفرنسيسكانيين ثمَّ اخوة المدارس المسيحية وكهنة الطائفة المارونية فاعضآء اخوية القديس بولس الرسول واعضآء الجمعية الخيرية للروم الكاثوليكيين فكهنتهم بالحلل الكنسية فمطارنة الملة وسائر الملل الكاثوليكية فغبطة بطريرك السريان ومن بعده حامل وسادة النياشين التي أحرزها الفقيد ثمَّ المركبة الحاملة الجثة النقية يحيط بها اربعة كهنة يمسكون باربعة بنود حريرية منوطة بها ويقود بنود افراسها ستة من تلامذة المدرسة البطريركية. وورآء المركبة حضرة دولتلو نعوم باشا وسعادتلو ميشال افندي اده وجناب الكونت دى سرسي وسائر

القناصل والتراجمة وسعادتلو المير قبلان اللمعي وسعادتلو اسكندر بك التويني وجمّ غفير من خاصة الاهالي وعامتهم

وكان امام كل من الجمعيات الصلبان والاكاليل وبسط الرحمة يرفعها المتقدمون من اعضآئها

وكانت اجراس الكنائس الانجيلية والارثوذكسية والمارونية واللاتينية والارمنية والسريانية والملكية تدق دقات الحزن في اثنآء مسير الموكب كما كانت تدق في الثلاثة الايام من حين وفاة الفقيد العزيز

وقد قدر عدد مؤلفي الموكب بمئة الف أَو يزيد وهو مشهد لم تبصر به بيروت من قبل ولا رأته البلاد الشرقية والاقطار الغربية الا في دفن العواهل والملوك

واستمر المسير من الدار البطريركية الى الكنيسة نحو ساعتين وربع ساعة وقد ادخلت الجثة على اكتاف الكهنة ووضعت بوقار وخشوع امام الهيكل الكبير وصلى عليها غبطة بطريرك السريان ونيافة القاصد الرسولي (الذي كان سبق الجمع الى البيعة) وسيادة المطارنة والكهنة عامة واختصرت الصلاة لضيق الوقت

وفي الختام ابنه غبطة البطريرك المشار اليه فابان أَسفه الشخصي لفقد هذا الحبر الجليل وعدَّد ما كان يربطهُ به من روابط الاخاءِ والصداقة التي شبهها بمثل ما كان قديماً بين داود ويوناثان ثم ابان أَسف الكنيسة الجامعة لخسارتها احد اركانها ومدح فضائله وتقواهُ وجدهُ ومحبته لخير رعيته وسرد ما قام به من جلائل الاعمال ونوه بما كان في عزمهِ عملهُ لولا ان حالت المنون دون مبتغاهُ ٠ وابنَّهُ ايضاً سيادة المطران كيرلس جحا (غبطة البطريرك الحالي) فاستهلَّ ببطلان الدنيا وكل ما فيها خلا خدمة الله والاخلاص لهُ تعالى واعلن ان الفقيد الكريم قد وضع هذه الحقيقة نصب عينيه في كل حياته فلم يوجه خاطراً ولا صرف ميلاً

لغير خدمة الله وهو ما دفعهُ الى تاسيس المدارس وانشاء الكنائس وحدا به للقيام بسائر ما عمله من الاعمال الصالحة والافعال البارة ثمَّ ذكر اسف الطائفة لفقده وقال انه يحق لها ان تاسف عليه وشكر سائر الطوائف ورجال الحكومة السنية وقناصل الدول الفخيمة لاشتراكهم مع الملة في الحزن والحداد على عمودها الفقيد · وكان في النية ان يؤبنه غير هذين الخطيبين الاَّ ان الظلمة كانت بددت جلآء النهار فكرَّرت الجموع وداع الجثة الطاهرة وتزوَّدت منها بالبركة الاخيرة ثم الحدت بما لاق من الاكرام والاحترام في الحجرة التي خصصت بها تحت الهيكل الكبير

وفي اثنآء عرض الجثة الطاهرة في الدار البطريركية وفي خلال مسير الجنازة على طول الطريق وعرضها اخذ المصورون عنها وعن المشهد رسوماً متنوعة فاقتناها اهل بيروت واهل البلاد الدانية والقاصية ذكرًا وذخرًا لهم في بيوتهم

ولم تقف مظاهر الاسف والحزن عند هذا الحد فقط بل تلتها مظاهر اخرى ايضاً فانه في يوم الاثنين وما عقبه من الايام لم تخلُ الدار البطريركية من وفود المعزّين وكان السادة اساقفة الملة وبعض اعيانها يستقبلونهم و يشكرونهم على ما ابدوهُ من المعروف والمجاملة

ومما يذكر في هذا الباب ان غبطة السيد الجليل كيريوس كيريوس ملاتيوس البطريرك الانطاكي للروم الارثوذكسيين قد ارسل طرساً الى كلٍّ من حضرات الارشمندريت مكاريوس صوايا والخوري اسبر الباشا وعبده افندي يني (رحمه الله) وكيل غبطته في بيروت وعزهم فيه بان يعزُّوا من قبلهِ السادة اساقفة الروم الكاثوليكيين بمصابهم الجلل فجاؤوا الى الدار البطريركية يصحبهم بعض الكهنة ولما استقرَّ بهم المقام نهض حضرة الارشمندريت واعرب عن مزيد اسف غبطة بطريركهِ على اخيه المثلث الرحمات وشرح عن اسف الارثوذكسيين عموماً على هذه الخسارة

الوطنية فاجابه السادة الاساقفة شاكرين لهذه العواطف وذاكرين ما لغبطة البطريرك ملاتيوس من السعي المبرور في نشر الالفة والسلام . وفي اليوم التالي لهذه الزيارة ذهب السادة كيرلس جحا (غبطة البطريرك الحالي) وباسيليوس الحجار ونيقولاوس القاضي وحضرة الارشمندريت دانيال منصور الى مطرانخانة الروم الارثوذكسيين فاستقبلهم حضرة الارشمندريت مكاريوس صوايا وسائر الكهنة الارثوذكسيين ووكيل غبطة بطريركهم وبعض اعيان الملة وكان مدار الحديث على ما لغبطة المثلث الرحمات من المساعي المبرورة والمآثر المشكورة وفوائد الالفة والسلام

وايضاً فان جمعيات الملة اختارت نُخباً من اعضائها فارسلتهم الى جمعيات سائر الملل ليشكروها لقاء ما ابدت من مظاهر الالفة والاخاء وحسن العزاء فاستقبلتهم احسن استقبال على انها بادهتهم بقولها « انكم اذا كنتم آتين لتشكرونا على اشتراكنا معكم في حفلة المأتم فذلك مما يثقل علينا امره واما اذا كنتم آتين لتعزّونا كما عزّينا كم اذ المصيبة نابتنا كما نابتكم فقد اصبتم عملاً ونحن بما قمنا به من الاكرام للمثلث الرحمات قضينا واجباً تفرضه المحبة المسيحية وتامر به الشرائع الانسانية والاخوية التي طالَ ما سعى الفقيد العزيز في تعزيز مبادئها ونشرها الخ »

وفي ٢٩ نيسان سنة ١٩٠٢ ورد من جناب المسيو كونستان سفير فرنسا في الاستانة تلغراف على يد الكونت دي سرسي قنصلها العام في بيروت تعزية للملة بفقيدها السعيد الذكر فابلغه القنصل الى السادة الاساقفة

وقد اقيمت الصلوات والجنانيز على نفس الفقيد العزيز في الاقطار الشرقية كافةً وقرعت الاجراس بضربات الحزن في كل الكنائس فانه في ٢٥ نيسان سنة ١٩٠٢ اقيم الجناز في دير المخلص للرهبانية الباسيلية القانونية المخلصية وأبّن الفقيد حضرة رئيسها العام الخوري انطون زيادة

(ثم حضر الرئيس المذكور الى بيروت ومعه الآباء المدبرون و بعض الكهنة)
وفي اليوم نفسه لما بلغ خبر الفاجعة الى دير القديس يوحنا الصابغ في الشوير أمر سيادة الايكونوموس يوسف الكفوري الرئيس العام للرهبانية القانونية الباسيلية الحناوية فخرج الرهبان من قلاليهم خشعاً حزانى واقاموا الجناز على نفس الفقيد العزيز وابنه سيادة الرئيس العام

وفي ٢٦ منه احتفل بجناز في كنيسة القديس جاورجيوس الكاتدرائية في طرابلس الشام وحضره اعيان جميع الطوائف وفي مقدمتهم المسيو سانتي قنصل فرنسا والمسيو نابوليون بيرو قنصل هولندا والمسيو شارل كاتسفليس قنصل ايطاليا وقد خطب حضرة الخوري اغناتيوس جبارة الوكيل الاسقفي خطبة نفيسة في رثاء الفقيد ونختصر ترجمته ونشرت جريدة طرابلس الفيحاء شرحاً مسهباً بهذا المعنى

وفي ٢٧ منه أُقيم جناز في صيداء بايعاز سيادة راعي الابرشية فحضره الرؤساء الروحيون وجناب قنصل فرنسا في تلك البلدة وكثيرون من ماموري الحكومة السنية ووجوه القوم وابن الفقيد حضرة الخوري نقولا هرمس النائب الاسقفي وايضاً فقد أُقيمت الجنانيز والصلوات في كل كنائس الابرشية بايعاز سيادة راعيها . وفي اليوم نفسه اقام سيادة مطران صور جنازاً حافلاً في الكنيسة الكاتدرائية تولاه بنفسه وأمر فاقيمت الجنانيز في جميع قرى الابرشية . وكذلك احتفل بالجنانيز في بعلبك وسائر ضياع ابرشيتها بحضور كبار الموظفين والاعيان

ولما كان سيادة مطران عكاء في حيفا عندما بلغه خبر النائبة اقام في كنيستها جنازاً حافلاً حضره جناب مندوب القائمقام وكبار الموظفين وقناصل الدول

ثم حضر سيادته الى عكاء فاقام في الكنيسة الكاتدرائية جنازاً حافلاً حضره كبار الموظفين وقناصل الدول واعيان الاهالي وفي الجنازين

ابتدءَ خطابين نفيسين عدد بهما مآثر الفقيد وحسناته وامر فاقيمت الصلوات على نفسه في سائر بلاد الابرشية

واحتفل حضرة الخوري جبرائيل باسيل الرئيس العام للرهبانية الحلبية الباسيلية القانونية بجناز اشترك فيه فريق من المدبرين وسائر الكهنة وحضره كثيرون من الاعيان والمامورين وفي ختامه جاء الرئيس وبعض الرهبان الى بيروت لحضور المشهد

واقيم في كنيسة القديس جاورجيوس في بكفيا جناز حافل حضره حضرة الآباء اليسوعيين وجمّ غفير من الوظفين والاهالي وفي ختامه القى خطبة التابين حضرة الخوري اونيسيموس صوايا (الرئيس لدير النبي ايلياس في زحلة حالاً) فذكر صفات الفقيد العزيز ومدحها بابلغ عبارة

واحتفل حضرة النائب البطريركي في القدس الشريف بقداس وجناز حضرهما غبطة بطريرك اللاتين الاورشليمي وسيادة المطران بولس عواد احد اساقفة الطائفة المارونية وجناب قنصل فرنسا ورجال القنصلية بلابسهم الرسمية ورؤساء جميع الملل الكاثوليكية ورهبانها وراهباتها وتلامذة المدرسة الصلاحية وعدد عديد من الاهالي وفي الختام أبن الفقيد سيادة المطران بولس عواد باحسن تابين

واقيم في اليوم نفسه جناز في الكنيسة الكاتدرائية في جديدة مرجعيون حضره حضرات الموظفين والاعيان ووافاه من القرى المجاورة وفود من الكهنة والاعيان وامامهم الصلبان وفي ختامه ابن الفقيد حضرة الخوري بطرس صوفيا النائب الاسقفي وحضرة الخوري كيرلس سعتر ثمّ تلاهما فخطب في هذا المعنى ايضاً حضرة الخوري جبرائيل زين مدير المدارس الاسقفية فقال ما نصهُ :

يادهر بع رتب المعالي بعدهُ ... بيع السماح بحتام لم تربح
قدّم واخّر من تريد فانهُ ... مات الذي قد كنت منه تستحي

اجل ليت لي ايها السادة الحضور في هذا الموقف المحزن · مدارك اكبر الخطباء · ولسان افصح البلغاء · لاعدد مبرات فقيدنا المغفور له من فاجأنا خبر نعيه صبيحة السبت امس الفارط نريد به فقيد ملة الروم الكاثوليك صاحب الغبطة والنبل بطريركنا الهمام · صاحب الباس والاقدام · ورئيس احبارنا الابر الكامل مشيد هذه الكاتدرائية وبانيها ذا المآثر الغراء · والايادي البيضاء · المثلث الرحمات السعيد الذكر المغفور له · الماسوف عليه · بطرس الرابع · وما ادراكم من هو بطرس الرابع

بطرس الرابع هو ابو الايتام · وامّ الفقراء · وعكاز الاعمى · ذو الغيرة الوقادة · شهيد الحب الوطني · من شاد المدارس · واحيى معالمها الدوارس · فريد دهره · وزينة عصره · ورافع علم النصرانية · قبة العلوم العقلية والنقلية · ومشكاة الضيم · ومطلق الاسير · ومعزي الحزين · وفكاك المشاكل · مولى السطوة والقلم · كوكب الشرق من حجب طيّ رمسٍ دامس

يا كوكباً ما كان اقصر عمرهُ وكذا تكون كواكب الاسحارِ

آهٍ واسفاهُ قد خسف بدر الحسنات · وافلت شمس الصدقات · ودك طود الجود والنبل · وقفلت نوادي الكرم · وهدم ركن المكرمات · وانحط عرش السماح · واظلم افق الغيرة الوطنية وعقبهُ ظلمة دامسة · وحجب نور الفلاح والنجاح عن الصروح العلمية · وخسف بدر التقدم عن المياتم الخيرية · وافقدنا الدهر من نحتاج الى قلمه · في هذا المقام لقضاء واجب رثائه · فالبسي اثواب الحداد يا جديدة مرجعيون · واندبي آسفةً ابًا وسندًا ومولًى احياكِ من العدم الى الوجود · وجعلكِ غرةً في جبهة الايام · سحي على فراق مولاكِ دمًا عوض الدمع · واحفظي له ذكرى الوداد ما حييتِ وما دام اهلوكِ · نوحي على من كان ذا كرم في شجاعة · وذكاء في بهاء · وقدرةٍ في وفاء · وانتَ يا ميتم القصير

اندب باكياً من بذل النفس والنفيس في تشييد صروح العلم · نح على باني المجد والفخر · اندب متنهداً على من جمع اليتامى · وكسا العراة · واطعم الجياع · وأوى الغرباء · اندب حسرةً وتلهفاً على من كان وجوده كالشمس تبث المنافع في الكون · ولا تقصد ان يعرف الناس احسانها · او تتخذ عندهم جاهاً · وانما هي تفعل ذلك · لانها منقادة اليه من تلقاء فطرتها

اية صفة من اوصاف المثلث الرحمات نصفهُ بها ولم نرَها فيه · الكرم · فانهُ كان مبدعهُ واولهُ وآخرهُ · فحدث عنه ولا حرج · الاقدام · فافعالهُ العجيبة تشهد لهُ · الباس والشجاعة · فانه افتتح القلوب فمالت اليه · وعلقت بحبه · الغيرة · فانه ايليا بغيرته · الايمان · فانه ابرهيم لكنه عاكس التشبيه فانه قدم ذاته ضحيةً على جبل الغيرة ومات شهيد الحق ولم يرد ان يقدم ابنهُ ·

تبكيك ياحبراً مأسوفاً عليه الارامل · يا من غادرنا فجاءة · وتنوح عليك اليتامى نادبة بعادك · والمساكين تئن حسرةً وتاسفاً على فراقك الدائم · يبكيك الجود والكرم · تبكيك المكارم وذووها · يبكيك الوفاء · تبكيك النوادي الخيرية · تبكيك المدارس واربابها · تبكيك الجمعيات الخيرية · تبكيك المحابر والاقلام · تبكيك الغيرة الوطنية · يبكيك شعبٌ ذليل عند هذه المصيبة وعزيز عند ذكرك يحافظ على حبك · ويردد ما ناح الحمام · افعالك الغراء · والتفاتك اليه · وغيرتك نحوه · لا بل يذكر موتك ضحية عنه · فيشتد مداوماً على شرف اسمك · نعم انك غادرتنا · والقيت طي حنادس القبر · ولكن اسمك باقٍ في افواهنا وبك ما بنا · ورسمك مطبوع على صفحات قلوبنا · لنتمثله آونة الشدة فيزيل عنا الغمة والحزن على بعادك · لا تنسنا ايها الحبر عند وقوفك لدى الديان الرهيب من ان تشفع فينا

من يصف ومن يعدد ما تركت . من يعرف حق المعرفة فضلك . ومن يطلعنا على هذه الخسارة التي لا عوض لها . او يعطينا البرهان الدامغ والادلة البينة على انك كنت ثميناً . ويقول لنا ان الفعل الجميل يحييه الذكر الجميل . لا احد يعطينا الجواب الاَّ الموت

(لا يحمد القوم الفتى الاَّ متى مات فيعطى حقه تحت الثرى)

وما ادراكم ما الموت

ما الموت غير منبهٍ ومحذرٍ والعين سكرى بالجمال المبهرِ
نلهو ولا ندري النهاية اننا متغافلون عن العدو المزار
والعيش حلم ينقضي فكاننا وكأنه طيفٌ مضى لم يقررِ
فدع الغواية والتكبر جانباً واعكف على فعل جميل مؤثرِ
واعدد لنفسك خير زاد صالح فالفعل بين مؤرخٍ ومسطرِ
واذا اصبت من البلايا برزءٍ فاصبر على حكم الاله الاكبرِ
واشدد يديك تصبراً واخضع لما نفذ القضآء بحكمه المتنكرِ
ان المنية حاكم ما مثلها تعطي لكلٍ حقه من مفخرِ
حتى يخلد فضل ارباب النهى ذكراً يدوم الى اوان المحشرِ
فالحيّ ما لفعاله من قيمةٍ حتى يوسد طيّ رمسٍ اقفرِ
فهناك يصدق مدحهُ او ذمهُ يقضى لهُ بتقدمٍ ومؤخرِ
ان كان هذا الامر حقاً بيناً عن بطرس بطريكنا لم ينكرِ
ذاك الذي ايدي التقى قد طوقت في جيدهِ دراً لفرد الادهرِ
ذاك الذي فيه الفصاحة والحجى ومواعظ قد ختّمت بالعنبرِ
ذاك الذي شاد المدارس جنة تثني اليه صروحها بالخنصرِ
يبغَ تشيد بحمده وبذكرهِ فوق الثريا والسماك الانورِ
تبكي المدارس والمعاهد فقده حتى الجماد وعرش هذا المنبرِ
تلك الفتوحات التي قد جددت تبكيه من جفنٍ يفيض باحمرِ

ذو غيرة وقادة ذو همةٍ   فاق السهى نال العلى لم يقصرِ
كم مرةٍ نال المثول تعطفاً   من بحر جود مليكنا المتفجرِ
كم خطرة عادت اليه بنصرةٍ   قد فاق عزم شجاعة الاسكندرِ
كم مهمهٍ كم حادث كم علةٍ   كم كم وكم من سفرة في الابحرِ
تلك المحامد والصفات جميعها   هيهات نلقى مثلها في الاعصرِ
يا ايها الطود المتين اساسهُ   فتقوضت اركانهُ لم يعمرِ
يا من غدا طي البلى متوسداً   وقلوبنا من ذكرهِ لم تفترِ
غادرتنا نجري المدامع انهراً   وذهبت تسقى من مياه الكوثرِ

وما لبث ان خرج الجمع من الكنيسة حتى خطب فيه المعلم دانيال زعرب فعدَّد مآثر الفقيد باسلوب كان له تاثير في القلوب

وفي ٢٨ نيسان اقيم في كنيسة حلب الكاتدرائية جناز حافل وقد نصبت في وسط الكنيسة منصة عالية وعليها الحلة الحبرية والعصا والتاج وصورة الفقيد وكان تلامذة المدرسة الاسقفية بالملابس الرسمية والشموع الموقدة يحيطون بتلك المنصة ويضربون بموسيقاهم الالحان المحزنة وحضر الحفلة الرؤساء الروحيون من جميع الملل والمامورون من قبل الحكومة السنية وقناصل الدول وفي نهاية الصلاة ابن الفقيد سيادة المطران يوسف دياب اسقف الطائفة المارونية ثم تلاه حضرة القس اغسطين صايغ المنتخب الاسقفي لطائفة الارمن الكاثوليكيين وتبعه حضرة الخوري جرجس شلحت فذكروا للمؤبن مساعيه المشكورة واعماله المبرورة وختم الحفلة حضرة الخوري قسطنطين خضري من اكليروس مطران حلب للروم الكاثوليكيين فشكر الرؤساء الروحيين وذوي المناصب وبقية الطوائف على ما اعلنوهُ من الحزن والاسى

واقيم في راشيا في ٢٩ نيسان جناز حافل شهدهُ سعادة القائمقام وسائر الموظفين وجمع كبير من الاهالي وكانت الكنيسة موشاة بشارات

الحداد وصورة الفقيد مرفوعة على اعلى الكرسي الاسقفي والاكاليل المتقدمة من اعيان الطوائف محدقة بها

وفي نهاية الجناز تليت خطب عديدة في رثاء الفقيد القاها حضرة الخوري بطرس الخوري النائب الاسقفي الماروني والاستاذ يوسف افندي داغر قسيس الطائفة الانجيلية والياس افندي ابي ابرهيم من طائفة السريان الكاثوليكيين وانطون افندي مالك من طائفة الروم الارثوذكسيين ورشيد افندي ابي زيدان من الروم الكاثوليكيين وختمت الحفلة بتأبين نفيس لفظهُ حضرة الخوري ميخائيل ناشف خادم الكنيسة الكاتدرائية للروم الكاثوليكيين . واقيمت الصلوات في سائر انحاء ابرشية بانياس بامر سيادة راعيها

وفي ٢٩ نيسان اقيم جناز حافل في كنيسة بك اوغلي في استانة العلية وكانت الكنيسة وصورة الفقيد والمباءة البطريركية موشاة بشارات الحداد وكان في جملة المدعوين جناب المسيو كونستان سفير فرنسا وغبطة السيد عمانويليان بطريرك الارمن الكاثوليكيين وبعض اساقفته ونيافة السيد بونتي القاصد الرسولي ونواب البطاركة الكاثوليكيين ورؤساء الاديار والكنائس الكاثوليكية وكثيرون من اعيان الملة وسائر الملل وفي نهاية الحفلة وقف خطيباً سيادة الاكسرخوس ميخائيل شريم النائب البطريركي العام وابن الفقيد بابلغ عبارة معدداً ما لهُ من جميل الآثار ثم شكر الجمع لمشاطرته الملة احزانها

وفي ٢ ايار سنة ١٩٠٢ اقيمت حفلة الجناز في القاهرة فحضرها حضرة الخوري نيقولاوس غطاس الذي امره غبطة السيد الجليل كيريوس كيريوس فوتيوس البطريرك الاسكندري للروم الارثوذكسيين بتلغراف ارسله اليه من الاسكندرية لينوب عنه في جناز اخيه المثلث الرحمات وحضرها ايضاً كثيرون من الوجهاء من جميع الملل وقد ابن

الفقيد العزيز في ختامها حضرة الخوري فلابيانوس مطران بخطاب نفيس نذكر نبذة منهُ وهي هذه :

ايها الاخوة بالرب

ليس قيامي بينكم خطيباً مثله بالامس وقد طالما وقفت في ظهرانيكم حاضاً على التقوى مبشراً بكلمة الخلاص مذكراً بالحسنات واعداً بالخير من اتبع الهدى اما اليوم فان الموقف حرج والمسلك صعب والمهمة دون التعبير عنها بذل المهج وفطر الاكباد وترقرق الدمع بل الدم وتصعيد الانفاس وتصويب الزفرات على ان الامر فادح والخطب جسيم والهول عظيم والداهية دهماء والحادث جلل تصطك لسماعهِ الركب ويضطرب الفؤاد وينقبض الصدر كيف لا وقد دهانا الدهر براعي رعاة كنيستنا وعماد امتنا وفخر ملّتنا ورافع منار طائفتنا ومشيد اركان جماعتنا بطريركنا ورئيسنا المثلث الرحمة السعيد الذكر الى الابد من يغني ذكر محامده عن ذكر اسمهِ . فاضت روحهُ الى خالقه رحمة الله عليهِ منتصف ليل الجمعة الواقع في ٢٥ الخالي وهو يردد آية سيده لتكن يا رب مشيئتك فيَّ بعد ان تجشم بالصبر الجميل تباريح ذلك الداء الوبيل الذي برح به من منذ ستة شهور حتى ضاقت على نفسهِ السكنى في حبس هذهِ الحياة الدنيا قائلاً مع النبي داود اخرج من الحبس نفسي فطارت الى حمى باريها كقول النبي ايضاً من يعطيني جناحين كالحمامة فاطير واستريح وقد طالما سمعناهُ ينطق بها وهو في ابان الصحة فها انه قد طار الى دار البقاء تاركاً دار الشقاء تبكيهِ ناطقة بفضلهِ فلو ان للمدارس التي شادها والمبرات التي اتاها والمآثر التي خلفها والجمعيات التي الفها والكنائس التي بناها والمنابر التي تسلقها والملاجئ التي عضدها والاخويات التي اسسها السنة ومحاجر لبكتهُ دماً بدل الدمع ولرفعت اصواتها الى العلى لاستسكاب شآبيب الرحمة على ضريح الفقيد لتبريد ثراهُ

مات ايها الاخوة بالرب رجل الاقدام والفضل مات رجل الحزم والعزم مات رجل الهمم الشماء مات رجل البذل والعطاء مات ابو الايتام والفقراء مات مؤاسي الحزانى مات من تفانى في حب القريب الى حد العبادة الا وهي علامة المسيحي الحقة بها يعرف الناس انكم تلاميذي قال السيد لتلاميذهِ . واذكر اني نظمت يوم تنصيبهِ بعض ابيات ضمنتها شيئاً من اوصافهِ المثلى منها قولي بعد المطلع

وتردّ عن اغنامهِ بعصاً لموسى سلّما
وتذود عن اقوامهِ بحسام بولس باسما
ولسان قس فصاحةٍ وذكا اياسٍ حازما
وبحلم معنٍ سابقاً بندى اكفك حاتما

الى ان قلت

نورٌ على المشكاة يستهدي الفواد الهائما
ان قام يخطب واعظاً فكأنه وبلٌ همى
الفاظهُ درر ولا حرج اذا بحرٌ طمى
يا حبذا احكامهُ ان قام فينا حاكما
بطل المكاره لن يهاب حلولها او يسأما
صافي السريرة لا يرى من دون ربٍّ مغنما

فعلى فقد هذا الرجل ننوح اليوم وعلى خسارة هذا العظيم نأسف افلا يحق الاسف والبكاء والنوح اجل بيدَ ان لنا ايها الاخوة بالرب عزاءً بالصبر كقول الرسول فضلاً عن ان الاناء المصطفى عينهُ ينكر علينا الحزن نحن معاشر المسيحيين بقوله يا اخوة لا تحزنوا كما يحزن سائر الناس الذين لا رجاء لهم نعم ان لنا الرجاء الوطيد بان فقيدنا لم يمت الاّ ليحيى هنا بآثاره وهناك باثماره بل انه لم يمت لان موت الابرار نوم ورقاد كقول الكتاب . رقد بالرب بسلام ليقوم حالاً في دار آبائه كقول

المرتل ويدخل الى جيل آبائه فقد انضم اذًا الى سلفائه الرسل الابرار وقداشتهر بغيرته الرسولية قد انضم الى مصاف الابكار وقد اشتهر بالعفاف الصارم قدانضم الى النساك ورجال الزهد وقد عرف بالتجرد والتهجد والقنوت الى حد الغلوّ قد انضم الى رجال الاحسان وقد اشتهر ببذل الدرهم قد انضم الى رجال الرسالة والتبشير وكانه لم يُعطَ لسانًا الا ليعظ به ويبشر. الطوبى لمن يعلم ويعلّم فانه يدعى عظيماً في ملكوت السماء. فان نكن قد فقدنا ابًا حنونًا ونصيرًا قويًا فان لنا معظم الرجاء بان يكون فقيدنا اليوم اطول باعًا منه بالامس واوفر حنوًّا وهذا ما يعزينا عن فقده نوعًا لان لنا بطريركاً في السماء بل يشوعًا ثانيًا لا يزال رافعًا يديه الى الآب الازلي داعيًا لنا بالنصر منه تعالى فاملنا اذًا نحن اولاده المحاربين معقود بالفوز الاكيد ولا سيما وانه قد جاهد امامنا وفي اظهرنا وقد علّمنا عراك الخطوب ومقاتلة الدهر وبذل النفس والنفيس في سبيل الجهاد واستذلال الصعاب وتمهيد العقبات كل ذلك بقوة من قال عنهُ الرسول اني اقدر على كل شيءٍ بقوة من يقويني فحق لهُ ان يقول مع الرسول ايضًا ها قد جاهدت الجهاد الحسن واتممت السعي فهوذا اكليل المجد معدّ لي (وهنا ترجمة الفقيد مطولة) . اهـ .

وفي ٤ ايار اقام حضرة الخوري ديمتري قندلفت النائب الاسقفي في كنيسة النبي ايلياس في دير القمر جنازًا حافلاً بجمهور الموظفين والاعيان وفي ختامه خطب حضرة الخوري فلابيانوس زهار موءبنًا الفقيد باحسن تأبين ثمَّ خطب جناب ميخائيل افندي عيد البستاني باشكاتب محكمة تلك القصبة فقال ما نصهُ :

خطبٌ المَّ فكل عينٍ تدمعُ والصبر اصبح بعدهُ لا ينفعُ
فلقد فقدنا سيدًا آثارهُ تبقى بقاءَ الدهر لا تتضعضعُ

وايمِ الله . لقد اكبرنا الخطب . واعظمنا الرزء . ولم يبقَ في البلاد

عينٌ لم تدمع . او قلبٌ لم يوجع . وهل شدو الوُرق في الايك الا في ترديد نواح الرجال . او تهدُّل اغصان الرياض الا من اعباء انباء المصاب . او ضباب علا . الاَّ من بخار زفرات الاسى . او عارض هتن . ولم تحاكه دموع الحزن . وهل من ينكر علينا الاستسلام الى البكاء . ووقف الالسن على الرثاء . بعد ان فجعنا الدهر . بقرة عين العصر . ركن الفضائل والحسنات . ورب الفواضل والمبرات . من اعتذر به الزمان عن سابق سيئاته . وعدهُ على البلاد من اسنى هباته . من ترنحت له اعطاف الفخر . وتضوعت بعبير تقواه زنابق الطهر . من ضارعت محامدهُ ضياء الشمس ذيوعًا . وشاعت مآثرهُ في المشرقين شيوعًا . ابي الفقراء الحنون . وصارم الحق المسنون . من عاش لله . ومات بالله . السيد السند . البطريرك بطرس الرابع الممجد . ومن ازيدهُ علماً بعظمة ذاك الفقيد . فما للمطري وان بالغ على حقه من مزيد . فان حياته اجمل الله العزاء على فقده . حياة اجتهاد . في سبيل الخير والرشاد . وسعي لاعالة البائسين . وعزم لاعلاء منار الدين . ونشاط الى انماء المعارف . وجد في شد اواخي الاتحاد والائتلاف . في اكناف الدولة العلية الابدية القرار . وتحت ظلها الحميدي الوارف . فهل للقلم او للسان ايفاء حق رثائه . وهل للعين ان تبكيه حق بكائه . وهل للبلاد بعد مصابها بفقدانه . الاَّ استمطارُ الرحمات على ضريح جثمانه . ضريح لو درى من حلهُ لعالى البدر . بفخرٍ ايّ فخر . فيا نسيم الصبا ان ضالت . تهدِكَ نفحاتُ عبيرهِ . ويا غاديات القطر . روّي تراب حفيره . فان فيه كفَّين . قد حاكتاكِ جوداً . وان فيه لساناً . قد كان اوفى عهوداً

نسال الله لتلك النفس البطرسية الطاهرة رضوانهُ وجواره . وللبلاد عامةً . وللطائفة الكاثوليكية الكريمة خاصةً . عزاءً يخفف البلاء . وان يوفق احبارها الرعاة الفضلاء . الى ما فيه مرضاة قداسة ابينا وسيدنا

الحبر الاعظم لاون الثالث عشر بانتخاب خلفٍ · يحيا به السلف · باعلاء منار الدين والمعارف · ونشر الفضائل والعوارف · لتقرَّ عيون سخنت وتهدا قلوبٌ هلعت · وتتصل آمالٌ انقطعت · بعون الله وحوله

وتلاه جناب يوسف افندي الياس نجم فقال ما ياتي :

وقفنا اليوم موقف المتوجع الكسير القلب المشيع راحلاً عن شعبٍ طالما كان واقف النفس على خدمته متفانياً في محبته ساعياً وراء تعزيز الشؤون الارتقائية · لا بل ان هذا المقام يعيد علينا صدى ذلك النعي الهائل الذي وافانا اذ كنا في موقفٍ من الرجاء والاستبشار بقرب تعافي ذلك الفقيد المغبوط وما اشبه ذلك النعي الا صاعقةً قد انقضت علينا فاحنت منا المفارق وتشققت لها المرائر ولم تدع الاَّ دمعاً مستبقاً وقلباً محترقاً وتاثيرات ناتجة عن ذلك النبإ البرقي الحامل الينا خبر انهدام ركن الملة وزعيم احبارها · ورجل الوطن المنعطف على تعظيم الشعائر الوطنية ورفع منارها · المثلث الرحمات السيد بطرس الرابع · فهات ايها الدمع هات · واسكبي ايتها العيون عبرات على اثر عبرات · وتفتتي يا شؤون المقل بجانب تلك المصيبة التي يصغر عندها كل عزاء

فاي امرءٍ عرف الجريجيري ولا يتاسف عليه ويجري سحب الدماء بدل العبرات · ومن يسمع باسم الجريجيري ومقدار ما له من الهمم والغيرة والمحبة ولا يستنزف مهجة القلب في مجرى الانين والزفرات · ومن يجهل الجريجيري الذي احيا البلاد بالتاسيسات الخيرية والسعي وراء المبرات فقد عرف بانه الرجل المنفطر على الجد والنشاط الميال الى اعانة البائسين · وتربية اليتامى ونشر الوية المعارف والعلوم على الديار الشرقية · الزاهد في دنياه · الباذل في سبيل الخير ما تملك يداه · الداعي ابناء الوطنية الى الاعتصام بعروة الوئام وتاسيس كلمة الاتحاد بين كل الملل والنحل · المكتسب ثقة العموم المجاهد في دينه ودنياه · وقد كانت حياتهُ كلها معرضاً للجهاد

الذي لم يقدر لسواه

اجل ان فقيد الملة المغبوط قد ترك في تاريخ الانسانية اثارًا لاتبرح بفضله ناطقة ولو اردتُ تعداد ما له من جلائل الاعمال لصرفت في تبيانها وقتاً طويلاً ولكنما المحسوس لا يحتاج الى ايضاح · فهذه ابرشية بانياس مع انها حديثة العهد قد وسع باجتهاده نطاقها · واحيى ايام اسقفيته في السعي وراء اصلاحها · فجاءت معدودة في مصاف الابرشيات التي توالت عليها عهود مديدة ولا يبرح حيها وجمادها ناطقين بمساعي ذلك المؤسس العظيم وهو فضل لو لم يكن للجريجيري سواه لكفى

اما وطنية هذا الفقيد وجسارته الغريبة وسعة فصاحته فهي ابين من ان تبين · فقد كان معروفاً بصحة الوطنية حريصاً على محبة الجامعة العثمانية صادقاً في خدمة سلطان البلاد الذي اقبل عليه وزين صدره باسمى الوسامات الافتخارية فضلاً عما منحهُ ابان زيارته دار الخلافة الكبرى من التعطف الاسنى الذي مهد لهُ سبل الظفر بمكان فسيح في اعتبار جلالة الخليفة الاعظم وصداقة رجاله الكرام · مقداماً ثابت الجاش طيب السريرة · خطيباً معدوداً في مصاف خطباء الشرق المفوهين وكثيرًا ما كان موضوعاً لعجب سامعيه وهو يخطب فوق منابر الغرب على مسامع سبعين الفاً باللغة الفرنساوية بمقدار ما كان يعجب فيه سامعوه وهو يخطب على المنابر الشرقية · ومن كان جامعاً لمناقب ذلك الفقيد العظيم لجدير بان يبلغ اعظم مبلغ من محبة الناس واعتبارهم

فلا عجب اذا راينا كل امرءٍ كان هائماً ومشغوفاً بحب الجريجيري وكل امرءٍ امسى متاسفاً على رحيله عن هذه الديار · فقد عاش فيها ممدوح المساعي معزز المكانة · ومات مذكورًا بالتاسف المشفوع بافضل ما يقال من التأبين في رجل لو امتدَّ عهد بطريركيته لاستفادت البلاد من مساعيه واستعداداته فوائد لا يطمع طامع في ان يزيد عليها الا من منح

اقتدار الجريجيري الذي ذهب شهيد المحبة الملية مشيعاً بالتأسف والترحيم

ولما كانت تلك المصيبة قد عمت البلاد وبنيها واشترك فيها القاصي والداني فلنشترك جميعنا بقلب واحد في اسداء الدعاء للدائم السرمدي بان يتغمد فقيد الانسانية بسعة مراحمه ويحصيه مع اصحاب اليمين ويجبر الخواطر المكسورة بفقده بانتخاب خير خلف لخير سلف

هذا ولست ارى بدًّا في هذا المقام من ان اسدي بلسان طائفة الروم الملكية اخلص عبارات الشكر مقابلةً لما اظهرتموه لنا ايها الكرام من الحاسات الشريفة بمشاطرتنا الاحزان بتلك الفاجعة العظيمة. فهو المسؤول بان يبقيكم سلوانًا لكل حزين. ويضيف عمر كل فقيد لحضراتكم. ويجعل عروة الاتحاد الوطني موطدة على مدى الايام

وفي اليوم نفسه أُقيم جناز في دوما وأبَّن الفقيد حضرة الخوري سمعان صوايا وكثيرون من الادباء. وايضاً فقد اقام حضرة الخوري يعقوب الخوَّام رئيس دير القديس جورجيوس الشير للرهبانية الحلبية جنازًا حضرهُ لفيف الكهنة وبعض المأمورين والاهالي وفي مقدمتهم جناب مدير الناحية وتليت بعض الخطب من الكهنة وغيرهم في رثاء الصالح الذكر. واقام حضرة الخوري اكليمنضس تركمان مرشد الراهبات في دير الملاك ميخائيل للرهبانية الحلبية في زوق ميكائيل جنازًا حضره فريق من الرهبان وجمهور الراهبات

وفي ذات اليوم احتفل بجناز في الكنيسة الكبرى في بيروت قام به سيادة المطران ملاتيوس الفكاك راعي الابرشية وسبعة من اساقفة الملة وعاونهم غبطة السيد افرام بطريرك السريان الكاثوليكيين وسيادة المطران يوسف الدبس مطران بيروت للطائفة المارونية وسائر اكليروس الطوائف الكاثوليكية وحضرهُ بعض موظفي الحكومة السنية من ولاية

بيروت ومتصرفية لبنان وجناب قنصل فرنسا في الثغر ورجال القنصلية وغيره من قناصل الدول وكثيرون من الاعيان من جميع الملل واعضاء الجمعيات الخيرية على اختلاف نحلها وفرقة من الراهبات وتلامذة المدرسة الكلية البطريركية وكان على منصة في صدر الكنيسة موشاة بالنسيج الاسود صليب وتاج وعصا ومن حولها الشموع الموقدة · وبعد الصلاة صعد منبر الخطابة سيادة المطران يوسف الدبس فالقى كلمات بليغة جزأَها ثلاثة اجزاء وهي رثاء وتعزية ونتيجة اما الرثاء فاستهله بقول بولس الرسول «قد جاهدت الجهاد الجميل واتممت شوطي وحفظت الايمان وانما يبقى اكليل العدل المحفوظ لي الذي يجزيني به في ذلك اليوم الرب الديان العادل» وقال ان هذا الكلام يصح ان ينسب للفقيد اذ هو في جميع ادوار حياته منذ حداثته الى آخر عهد بطريركيته حفظ الايمان القويم وسعى السعي العظيم فاستحق ان ينال اكليل المجد الوسيم في جنات النعيم واما العزاء فوجهه الى الملة واساقفتها بداءة بدء ثم الى سائر الملل وقد اكبر الخطب وعده اعظم خسارة على الكنيسة والوطن واما النتيجة فحصها في محض النصح لانتخاب خلف يحذو حذو السلف الصالح وكان لكلامه وقع مؤثر · وتلاه في الخطابة سيادة المطران ملاتيوس الفكاك فابن الفقيد بما هو حقيق به وعدد مناقبه الطاهرة واعماله البارة وكنّاه بالقديس وساله ان يشفع الى رب السموات في رعيته التي تركها بدون راعٍ ثمَّ اثنى على ابناء الطائفة لما اقاموه نحو رئيسهم المحبوب من مظاهر التجلة والاكرام في موته كما في حياته وشكر لرجال الحكومة السنية وقناصل الدول والجمعيات الخيرية والرؤساء الروحيين ما صنعوه من الجميل مما كان مدعاة للتعزية وذكر لسائر الملل مؤاساتهم الطائفة الاسيفة ومشايعتهم اياها في الحزن على فقيدها الغالي الى آخر ما قاله في هذا الباب وبعد نهاية الحفلة طلع الجميع الى الدار الاسقفية فجددوا عبارات التعزية

وكرروا ذكر صفات الفقيد

وايضاً فانه في ذلك اليوم احتفل بجناز في الكنيسة الكبرى في زحلة قام به سيادة المطران كيرلس المغبغب راعي الابرشية وعاونه لفيف الاكليروس الكاثوليكي وقد وضع في صدر الكنيسة منصة مجللة بالسواد وعليها صورة البطريرك وفي الساعة المعينة للحفلة وفد الى الكنيسة خلق لا يحصى عدده من جميع الملل ثمَّ قدمت تلامذة المدرسة الشرقية بالكسوة الرسمية تتقدمهم موسيقاهم وامامهم رئيس المدرسة واساتذتها يحملون اكليلين احدهما بديع الصنع في وسطه رسم الفقيد الطيب الذكر ومن حوله آية من الكتاب الشريف وهي «كريم بين يدي الرب موت ابراره» ثمَّ قدمت وفود بقية الطوائف ومع وفد الطائفة المارونية لوح حديد اسود مكتوب عليه بماء الذهب «الموت بالمسيح حياة» وعليه اطار بديع الشكل وحسن الاتقان وقد وضعت هذه التقادم فوق المنصة وفي نهاية الجناز وقف سيادة المطران كيرلس المغبغب موقف الخطيب فابن الفقيد العزيز وسرد ترجمته بعبارات ملؤُها المدح والحمد ثمَّ خرج الجمع الى الحوش ونقلت اليه المنصة التي عليها رسم الفقيد والاكاليل وهناك انبرى الخطباء للرثاء فخطب بعض الكهنة ثمَّ حبيب افندي فارس بالنيابة عن الطائفة المارونية والياس افندي البحمدوني بالنيابة عن الروم الارثوذكسيين والتي عزتلو حبيب بك هواويني تابيناً باللغة التركية ختمه بمنظومة عربية وخطب بالعربية المير وديع الشهابي وخطب عيسى افندي اسكندر المعلوف فقال

خسف البدران خسفاً كاملاَ	ليته قد كان حكماً عادلاَ
ما تجلّى الحبر في اضوائهِ	كتجلي البدر فيها عاجلاَ
قد وددنا ان بدراً حاضراً	يفتدي بالنفس حبراً راحلاَ
ذاك حكم الله في هذا الورى	لستَ تلقى في قضاهُ عاذلاَ

ايها الفقيد المثلث الرحمات والوافر المبرات يعزُّ علينا ان نقف موقفاً كنت ترسل فيه من اشعة انظارك علينا ما ترسله الشمس على النبات فتحييهِ . ومن حنان قلبك ما يرسله السحاب على الروض فيرويه . ومن لطفك ما يبعث به النسيم الى الغصن فيحييّهِ . ومن عبير فضائلك ما تبثهُ الازهار في الفضاء فتعليه . وتسمعنا من الفاظك ما ينتظم في اصداف الأذان درًّا منضوداً . يرن صداها في مسمع الغربي كالشرقي مذكوراً محموداً . فلا عجب اذا صهرتها حرارة الاحزان فسالت عقود مدامع نقلد بها رمسك . وجمعت المحبة من آثارك اكاليل فخر نحيّي بها نفسك

يعزُّ عليَّ حين أُدير عيني افتش في مكانك لا اراكا

ومن لنا بتمثيل تلك الطلعة الغراء . والملامح الحسناء . غير رسم كريم حفر على قلب الاوطان . وطبع على مخيلة السكان . كما يطبع نور الشمس رسم الاشباح . على صقيل الالواح . فنستعيض وا اسفاهُ عن العين بالاثر ونجتزئُ عن الخبر بالخبَر . ونكاله من القلوب بحبّات . ومن ربيع الحياة بزهرات . ولكي نستنطق رسمك استنطاقاً . وكأنَّ عليه من حدق نطاقاً . نستنزل نفسك المقدسة فتجلى لنا كحمامة بيضاء . يمثل لونها بياض ذلك القلب الطاهر . منقضة من علو السماء بسرعة ذلك الخاطر فتنازلها يشبه وداعتك الشهيرة . ونظرتها الينا رأفتك الكبيرة . وعيناها المتلألئتان ما كان يلوح على محيّاك الوسيم . من الذكاء والاقدام والفضل العظيم . مرفرفة على قلوبنا الاسيفة . باجنحة حنانك ثابتة فوق رؤُوسنا ثبات جنانك ممثلة لنا كمالك القدسي . وجمالك العلويّ . فنستوقفها بضع دقائق حائمة على رسمك هذا فنستجلي عظم الخسارة . وتجتلي هذه الوجوه الاسيفة المحتارة . ولكن كيف يمكن ان نستعيد نطقك لتشنف الآذان . بدرر البيان . وتسلب الالباب . بشذور الآداب . فقد انطقتنا بسكوتك . وتركتنا متمتعاً بملكوتك :

من كانت الآذان تنصت عندما   يروي نراه صامتاً متحيرا
من كان ينطق باللغات فصاحةً   امسى عليه سماعنا متعذّرا

فكيف لم تردّ عنا المصائب وانت الذي علمتنا ان نتلقاها بدرع الصبر الجميل . فليتك افدتنا ما يجب ان نتخذهُ من الذرائع لاحتمال هذا الخطب الجليل . نعم ايها القوم الكرام . يزيد احزاننا اخر كلمة فاه بها في هذا المقام . فبالله لا تكلفوني اعادة تلك العبارات . لئلا تثير في القلب ثائر الحسرات . كلمة بليغة رددها بغير انقطاع . كأنها آية الوداع . شريفة ولكن تذكارها مرّ . يتركنا على احرّ من الجمر . عبارة احب ان اعيدها على مسامعكم . واخشى ان تبلوا الثرى بغيوث مدامعكم . فيقاطعني العويل ويخونني جلدي . فيزيد تأثري ويسقط في يدي . فأُناشدكم الله ان تصيخوا اليها سمعاً . وتحبسوا عند تلاوتها دمعاً . الى ان تبلغ آذانكم . وتزيد اشجانكم . كيف لا وهي « تنساني يميني ان نسيتك يازحلة ويلتصق لساني بحنكي » تلك هي الآية فاين الدموع :

اعيدي النوح معولة اعيدي   وزيدي من بكائك ثمَّ زيدي
هو الخطب الذي ابتدع الرزايا   وقال لأعين الثقلين جودي
بنفسي انت من حبرٍ رمتهُ   منيتـه بسهم ردًى سديدِ
فيالكِ وقعـةً جللاً اعارت   اسىً وصبابـةً جلد الجليد
ويـالكِ ساعة اهدت غليلاً   الى اكبادنـا ابد الابيدِ

فنغبطك ياثغر بيروت اذ ضمت تربتك جوهرتنا الثمينة التي نحسدك عليها ما طالت الايام . وكرت الاعوام . انحرص عليها حرص الاجفان على الاحداق . وتسقيها بغيوث الآماق . وتضمها ضم الصدر للفؤاد . وتتعهدها من الحب بعهاد . نعم لا تخشوا يا قومنا لان الاحتفال . كان فاقد المثال . إلا وقد تدفقت الجموع من الدار البطريركية الجديدة . الى كنيسة القديس الياس البعيدة . كالسيل الربيعي حاملة الازهار . جارية جري الانهار .

كأن زبدها الحسرات · وخريرها تصاعد الزفرات · مما يدل على اجلال قدره · واشتهار فضله وذكره · فقد اشتركت جميع الطوائف بتشييعه · وتلهبت جميع القلوب عند توديعه · وعدَّد المؤبنون ما اتاه من الحسنات وجاد به من المبرات · ثمَّ

عادت وفود الارض عن قبره　　فارغة الايدي وملأى القلوب
قد علمت ما رزئت انما　　يعرَف فقد الشمس عند الغروب

فاذا كان وداعك هكذا حافلاً · فكيف كان استقبالك في الاعالي متكاملاً · واذا كانت اكاليل البشر تتناثر حول ضريحك عشرات حتى عدَّت بالمئات · فكيف اذاً اكاليل السماء المعدَّة لك خير جزاء · فوحقّ حبك لوطنك لقد كملت حتى ادركك الخسوف · والقمر لا يحل به ذلك حتى يكمل كما هو معروف · افلا يودعك وطنٌ تفانيت في ترقيه تفانيهُ لفقدك · متذكراً آثار غيرتك وكدّك · كان جباله تحدق به ممثلة الاحزان · وسهوله منبسطة انبساط مآثرك الحسان · ونهرهُ يسير سير ذكرك على كل لسان · مترقرقاً في المنعطفات يردّد صدى الاستحسان · افلا يودّعك ابناءٌ سهرت على تقدمهم فيفتخرون انهم من غرسك · ويجرون من العيون انهاراً تنساب الى بحر رمسك · افلا يبكيك مواطنون قد فقدوا بفقدك عماداً · افلا تبكيك ملة جاهدت فيها جهاداً · افلا تودعك كنائس وجمعيات خيرية اعليت منارها ورحلت تاركا للحاضرين والآتين آثارها · وذوو قربي تركتهم في مر الاحزان · تشاركهم فيها الملة والاوطان · ومدارس بثثت في طلبتها روح النهضة الادبية · والغيرة الوطنية · نخص منها مدرستنا الشرقية · التي كثيراً ما تعهدتها بنصائحك الابوية · فانهضت فيها الامم · واجزلت عليها النعم · فعليك من رحمات ربك ما يستمطره فضلك العظيم · ولنا من جميل الصبر والعزاء ما يلهمنا اياه الرب الرحيم · ونحن نحفر على صفحات الافئدة تاريخ وفاتك · ونردّده

عداد حسناتك . قائلين :

لبطرسنا الجريجيري اياد ٍ على اوطاننا كعقود درّ ٍ
فغيث دموعنا يسقي ثراهُ كما يسقي السحاب فسيح بحر ِ
له الشكران بالتاريخ نسدي ونبكيه بكا الخنسا لصخر ِ (١)
١٩٠٢

وخطب الياس افندي سمعان الخوري المر فقال

مالي ارى الكنيسة قد اتشحت باثواب الحداد ما لي ارى على وجوه الحشد سيماء الكآبة والحزن وكلكم اراهُ يتنفس الصعداء فينفتق لسانهُ برنات التأوّه والتاسف مالي اراكم وما فيكم الا كل ذي همة شماء ونهضة تناطح الجوزاء قد تألبتم على غير عادتكم المالوفة وكل منكم يقف وقفة المتفجع ويردد انين المتوجع

قد عرفت الآن الداعي لغصة البكاء وترديد الرثاء نعم اتيتم لتجنيز فقيد الكنيسة والوطن والانسانية آية الفضل في الاعجاز وتحجة الفضيلة في الصدور والاعجاز الشخص الفرد الذي يعد بالالوف رجل الشرق سؤدداً واعلاءً وواحدهُ اشتمالاً على الفضل واستيلاءً . رافع منار العلم ومطلع شموسه ومشيد ربعه بعد دروسه . المطوب الذكر المثلث الرحمات البطريرك بطرس الرابع . ركن من اركان الكنيسة الكاثوليكية وشيخ احبار طائفة الروم الملكية . الخطيب المصقع الذي اشخص بآيات خطبه الزاجرة عيون القوم فابكاها . ذو العزيمة الماضية كغرار السيف المرهف والهمة العالية التي كانت تنقاد اليها المصاعب صاغرة والغيرة التي كانت تتقد في فواده اتقاد اللظى بين الهشيم فانه لم يدَع ظلماً يلحق برعيته الاّ بادر لدفعه . راضع ثدي المعالي وهو المتواضع العالي

فما هذه الغمة ما هذه البكمة اصمتٌ بعد افصاح اصمٌ بعد استماع اغلٌ

(١) ولا تخفى التورية وبطرس تأويله الصخرة

في اليدين بعد بسطهما في الصلاح والسماح اضجعة في اطباق المقابر بعد اعتلاء على صهوات المنابر · فكيف لا تسيل الدموع من المآقي دماً وكيف لا تنفجر شرايين الافئدة من الكآبة عندماً · وقد عزَّ علينا الصبر والرثاء فامسينا في لوعة وبكاء وحرقة وحسرة وعبرة وزفرة وقلوب تشقها النبال والسهام واكباد تحرق بنار الضرام

هذه هي حالتنا بعدك ايها الحبر النطاسي فقيد الكنيسة والوطن يا من خدمت الطائفة والانسانية بهمة قدسية لا تعرف الملل وعزيمة لم تالف الفتور والكلال وكنت في حياتك مهبط اسرار الفضل والفضيلة وعنوان الصلاح والسريرة

ايها الاب الحنون لقد تجندت منذ نعومة اظفارك للفلاح في كرم الرب فعقدت قلبك على ولاء الفضيلة والايمان مجاهداً تحت لوائهما حتى اذا اعياك الجهاد اتاك رسول مولاك فلبيت طائعاً مختاراً وتركت بعدك ابناء على اختلاف الطبقات والرتب وهم يؤبنونك بدمع العيون و يودعونك بلهف القلوب فان مصابهم اليوم في من فقدوه مصاب جلل وخطب فادح يعز فيه النوح والبكاء ويجل الندب والرثاء اجل فقدنا حبراً ليس كالاحبار يتلهب غيرة على الجنس والعشيرة فقدنا اباً ليس كالاباء يتسعر قلبه مروءة وشهامة وحزماً وعزماً واقداماً على اختلاف الامم والطوائف الكثيرة فقدنا صفاة ثُلّت بانثلالها عروش الالفة والاخاء ودكت باندكاكها معالم المعالي ومعاهد المجالي

اترى عرف هذا القدَر ان كل دواء مهما عزّ مبذول في ما يعتريك من الادواء فابتلاك بالداء الذي لا يرجى منه شفاء وسطا على اقنومك الطاهر فاذواهُ واعتدى على هيكل جسمك الشريف فارداهُ واستطال على عمران ظهرك فقوض اساسهُ واستحكم من هامك المتوج بعلة عضالة واخمد انفاسهُ

ايها المثلث الرحمات يا مثال الحزم والاقدام هل شاقك البعاد الى لقاء اخيك غريغوريوس يوسف الاول ام هاج بك الشوق الى اجتلاء طلعة ابنائك الروحيين نخبة الطائفة وعيون اعيانها الذين لم تمض السنون القلائل على احتسابك اياهم فرضة في سبيل الله فاحببت مسكنهم ورغبت لقاءهم اننا لم نكد ننسى احزانهم حتى فجعتنا الايام بك فيا الله من نكبات الزمان التي صالت فينا جهاراً ويا الله من جنود المنون التي كأنها تطالبنا ثاراً فاعلم ايها الحبر الراقد الفاقد ان حولك من الابناء الوفا مؤلفة وهم يستوكفون العبرات ويقلعون من القلوب حسرات فيسقفون فوق ضريحك ويسمعون الصخر نعيك وانت ساكن لا تتحرك وساكت لا تتكلم يا مصداح المنابر وقد ودعوا تجالي المعالي يوم ودعوك وشيعوا رسل السلام والصفاء يوم شيعوك ولسان حالهم يقول الوداع الوداع يا راحلاً يتبعك حمد قومك وتثوي معك الرحمة الى الابد

فعلى مثلك يجب ان تشق الجيوب والقلوب اذ يندبك العلم والعلماء تبكيك المروءة يا خير نصرائها وتنوح عليك المحافل يا نخبة روسائها تبكيك الكنائس والمدارس التي رممت اطلالها الدوارس تبكيك اعمالك المشكورة واثارك المبرورة نرثيك ما دام شخصك المحبوب لا يبرح رسمه عن الواح القلوب التي طليت بحمر الكآبة فاجتهادك وجهادك وكرم اخلاقك ورقة جانبك ولطف محاضرتك وحسن سيرتك وطيب سريرتك وحبك للقريب والغريب وتعلقك الزائد بابناء طائفتك ستخلد لك في قلوب سائر الطوائف والنحل ذكراً الى الابد منقوشاً على صفحات الافئدة باحرف من نور لا تمحوها كرور الايام ولا إعصار الأعصار

فانك وايم الحق كنت صافي السريرة نزيه النفس مصيب الفكر حازم الراي تقياً نقياً كريماً حليماً مستقيم الشان مقداماً جسوراً حكيماً ذكياً عالي الهمة لا ترهبك الامور العظام محباً للعدل تقضي به ولا تخشى في

جانبه لومة لائم

فلا عجب ايها السادة اذا استعظمنا فيه الخطب وطلبنا الصبر فوجدناه عزيز المطلب اجل نصبر لو كنت مريضاً على قرب ابلالك نصبر لو كنت في سفر على امل رجوعك الينا بسلامة عاجلاً او آجلاً نصبر لو كنت في بعض مشاريعك الخيرية على رجاء انجازك له

والصبر يحمد في المواطن كلها   الا عليك فانـه مذمومُ

كيف نصبر وقد قلت وانت خير القائلين لاكثر من واحد من ابناء طائفتك بانك آسف ليس على موتك العاجل ولكن لكون القدر لم يفسح في اجلك لتاتي طائفتك ووطنك بالخير الذي يكنهُ لهم فوادك مع ان اعمالك قد طبق ذكرها الخافقين وسارت بها الركبان فحدا بها الشادي والحادي وتغنى بها الرائح والغادي وقد اتيت في ايامك القلائل ما لا يقوى على بعضه غيرك في الاعوام الجلائل فكيف نفيك الان حق رثائك ولا يقوى على ذلك الا من كان مثلك طلق اللسان جري الجنان قوي العارضة جامعاً لشتات المعارف والفضل الوارف وكأني بذلك الشاعر الرقيق الشعار لما راى علو منزلتك وسمو مكانتك في افئدة قومك حياً وميتاً اشار اليك بقوله

كان الناس حولك حين قاموا   وفود نداك ايام الصِلات

كأنك قـائمٌ فيهم خطيبـاً   وكلهمُ قيـامٌ للصلاةِ

ولما استعظم الخطب وعلم ان لسانهُ يكاد يدركه الاعتقال اسرع هاتفاً

ولو اني قدرتُ على قيامٍ   بفرضك والحقوق الواجباتِ

ملات الارض من نظم القوافي   ونحت بها خلاف النائحاتِ

عليك تحية الرحمان تترى   برحمات غوادٍ رائحاتِ

واني اليك الآن اشكو الزمان وبك اشكو الاقدار طالباً اليك انت

يا فقيد الطائفة الكاثوليكية وحبيب الطوائف جمعاء ان تشفع بطائفتك لتقوى على احتمال مصابها بك والثبات في حظيرتك البطرسية وتضرع الى الله تعالى كي يرسل روحهُ القدوس تعزية للسادة الاساقفة والملة واعانة لهم في من ينتدبونهُ ليقوم مقامك ويتمشى على اثارك فيجتمعون بالهام روحهِ القدوس الصرف وينتدبون بالهام روحه القدوس الصرف خير خلف لاطهر السلف اللهمَّ حقق سؤلنا واشفع ذلنا انك ارحم الراحمين آمين

وخطب ابرهيم افندي غزاله فقال

الوقوف ياسادة في مثل هذا المقام حريٌّ بفقيدنا المحبوب سيد البلاغة وامير الكلام والخوض في مجال تأبينهِ الفسيح يقتضي له مثل لسانهِ الفصيح

قضى رحمات الله عليه غير مفتكر بجواب يؤدّيه ساعة الحساب لان اعمالهُ تجيب عنه ولا مفتقر الى زاد يزيده كرامة في يوم المعاد فانهُ حوى اكثر مما يطلب منه فيا ايها الملحود في رمسهِ المحجوب عنا بهاءُ شمسهِ هبنا صبرك العظيم لنتغلب به على هذا الخطب الجسيم فكم قضيت مطالب واغنيت من طالب وازلت مصاعب ولطفت متاعب وكم ارحت من بال وبذلت من مال واتيت من اعمال وتعلق عليك من آمال وكم بنيت كنائس وانشأْت مدارس واسست معاهد خير وانقذت من الضير هل من مظلوم لجأَ اليك الاَّ واعنتهُ وهل من حقٍ تستر وراء مطامع النفس الا وأبنتهُ وهل من معضل اشكل حلهُ الا وعرفتهُ وهل من ضيم تضايق اهلهُ الا وكشفتهُ فلقد طالما رايناك راي العين لا ترعى لنفسك مهجة ولا تسعى وراء عافية كأنك خُلقت لغيرك فلا كنت تبالي بانصابك اذا ارحت بلادك ولا تسال عن اوصابك اذا افرحت اولادك تناطح الاقدار وتصابر على الاكدار وتحتمل سهر الليل وعناء النهار بعزم شديد وقلب

من حديد لا يكل لك قلم ولا يحجم لك قدم كل ذلك حباً بربوع وقفت لها نفسك فوقفت لك الدموع وودعت هناءها يوم ودعت شمسك قضي عليها بالثبور فارخت الشعور ولم تفارق السرور فقط يوم فارقتها بل الشعور

انظر يا من تعشق الدين والوطن الى وطنٍ حزين اوجدك صغيراً فنشأْت كبيراً تامل ان يرقى بك اعلى مكان فثكلك قبل الاوان فكفاك كفاك يا سيد الابطال انك علمته كيف تكون الرجال وكيف يعبد ذو الكمال وكيف تبعث الهمم من اوهاد الاهمال الى جلائل الاعمال

فيا سادتي الكرام ما الحيلة بنوائب الايام خان الاجل وخاب الامل فالخطب لا يستقل والصبر لا يستحل لكن زهرة بلدكم لم تذبل في الفناء الاَّ لتشرق في البقاء وحقها ان تزهر في العلاء لانها نبات سموي كما قيل فلا تبكوها فهي ضاحكة واعتصموا بالصبر الجميل مات من كنتم به تباهون فلا لقاء ولا اجتماع الى يوم يبعثون

وخطب يوسف افندي سليم بردويل فقال

كذا فليجل الخطب وليفدح الامرُ فليس لعينٍ لم يفض ماؤها عذرُ

ما كاد هذا الدهر الخؤون يحسن اليناحتى ساء وندم على ما فعل واسترجع ما وهب وما ذلك بعجيب لان الزمان أَبو الحدثان فلا يدع غصناً يتكامل حتى يقصفه ولا بدراً في سماء فضلٍ حتى يخسفه ورحم الله من قال

الموت نقادٌ على كفهِ جواهر يختار منها الجياد

يا للفاجعة ما قبض انسان عين المجد والفخر ومعدن البرِّ والطهر بطرس الصفا على عصا البطريركية حتى ضرب الدهر على يدهِ ورشقته المنية بسهم اودى بحياتهِ الطاهرة و بعد ان كان يرعى ذلك القطيع العظيم اصبح تحت الثرى جثة هامدة وا اسفاه ايها الراعي الصالح لقد رمتنا الايام برزءٍ جسيم يضيق عنهُ الصبر ذرعاً واحر قلباه وهبناك بالامس سلبناك اليوم لم نتمتع بتمام ما كنت مصمماً عليه من مقاصدك الصالحة الآيلة لخير الدين

والوطن شلت يمينك ايها الدهر لقد نلت المرام وفزت بالقصد وعضضتنا بنابك ليت ما حل بنا بك

يـادهر بع رتب المعالي بعده · بيع الهوان ربحتَ ام لم تربحِ
قدّم واخر في العباد كما تشا · مات الذي قد كنت منه تستحي

لا نغالي اذا قلنا اكثر من هذا لانه بموتهِ ماتت الفضيلة والفضل وبدفنه دفن الذكاء والنبل وبمصابهِ اصيب العلم واللاهوت باحد ايمتهِ العظام · اجل ايها السادة ماذا عساني ان اعدد من مناقب فقيدنا الغراء التي يعجز عن تعدادها ابلغ البلغاء فالموضوع جليل والخاطر كليل وما فيكم من يجهل تاريخ حياتهِ وما اتاه من الاعمال الجليلة والاجرا آت الخطيرة الشاهدة له بعلو الهمة والنشاط فباوجز عبارة اقول ان هذا الخطب الجلل قد ادمى القلوب وقرح الاجفان والاسى عمّ الطوائف اجمع على فقيد الشرق ومن كان شامة في جبين الدهر حتى لم يبقَ احد من الواقفين على كمال صفاتهِ حتى تمنى لو يفديه بنفسهِ حقاً لو قبل الفداء لفُديَ الجريجيري بالوفٍ من الارواح ولكن يالاسف

واذا المنية انشبت اظفارها · الفيتَ كل تميمةٍ لا تنفعُ

يابطرس صخرة الايمان والتقوى نعم ان نابوليون الاول كان محبوباً جداً ولكن من شعبه وجنودهِ فقط اما انت فمحبوبٌ من كل ملة ومذهب محبوب من كل من سمع بذكرك محبوب من العالم محبوب من الله · بفقدك فقد الشرق نيّراً عظيماً كواكب فضلٍ عديدة كانت تكتسب نورها منك كما يكتسب القمر نوره من الشمس كم من تلامذة نجباء تثقفوا على يدك الطاهرة ودرسوا عليك العلوم التهذيبية والادارية فوجدوا الان انجماً زهراً في سماء البيعة الكاثوليكية المقدسة معترفين بفضلك العميم اما انت اول من شاد المدارس في هذه الابرشية اما انت مؤسس الجمعيات الخيرية في مدن الشرق اما انت قائد جنود المسيح نعم لعمري انت هو ذلك الرجل

العظيم ذلك القائد الباسل الذي عاقبتنا السماء بفقده اه يا عمونيل كاهن الاله العلي يا من افنيت حياتك الرسولية على مذابح الرب ارفع عينيك وانظر الى مواطنيك الذين طالما ناديت فيهم بالالفة والاتحاد قد اتحدوا الان في هذا المحفل لتقديم الصلوة عن روحك الطاهرة بيدَ ان هذا الاجتماع ذكرنا عبارةً صدرت من فيك العزيز في مثل هذا المقام وهي « تنساني يميني ان نسيتكِ يازحلة » يا لها من عبارةٍ نقشت على صفحات القلوب لا تمحى الى ما شاء الله كما وان صوتك الرعائي حتى الان يرن باذاننا ويذكرنا وقوفك على هذا المنبر وتلك الايادي الطاهرة التي كنت ترفعها وتبارك بها رعيتك من صميم الفؤاد فباي دموع نكافئك عن تلك البركة الفعالة وباي قلوب يجوز لنا ان ننسى ذلك الراعي الصالح الذي بذل نفسه عن الخراف لا لا قسماً بيمينك الطاهرة لا ننساك وفينا بقية حياة وحتى آخر نسمة نلهج بذكرك ونفوه بشكرك يا عماد الدين والوطن ونصير المروءة والشرف حقاً لقد تشوه بفقدك وجه الانسانية ولكن ما تركت من الآثار الحميدة سيمثل لنا عمرك الفاني لان آثار المرء كما قيل عمره الثاني فارقد بسلام لانك قضيت الجهاد وحقَّ ان يقال لك كنت اميناً على القليل فكن اميناً على الكثير ادخل الى فرح ربك يابطرس وكن محامياً لنا في السماء كما كنت على الارض تغمدك الله برحمتهِ ورضوانه واسكنك فسيح جنانه

وكانت موسيقى المدرسة في خلال تلاوة الخطب تعزف بالحانها الشجية حتى ختمت الحفلة فانصرف الحشد والعبرات تسكب والزفرات تتصعد

وفي ٧ ايار سنة ١٩٠٢ اقام الآباء اليسوعيون جنازاً على نفسه في كنيستهم الكبرى في بيروت ودعوا لحضوره جلة الاكليروس الكاثوليكي وخاصة الناس

وفي ١٠ منه احتفل بجناز في كنيسة السيدة في مشغرة وكانت صورة الفقيد واكاليل الازهار على منصة مغطاة بالنسيج الاسود في وسط الكنيسة

وقد حضر الصلاة بعض الموظفين وجمع عديد من الاهلين بينهم اعضآء جمعية زهرة الاحسان المشغرية وفي الختام بادر الخطبآء الى الرثآء فكان اوّلهم حضرة الخوري خليل الحائك فذكر ما كان للمطوب الذكر من الايادي البيضاء على الكنائس والمدارس والملة والوطن وتلاه المعلم فارس الحواني فاظهر نظماً ونثراً ان الخسارة به لحقت جميع الملل ثمّ عقبه داود افندي ابي خليل فابان مكانة الفقيد لدى ابنآئه عامة ولدى الابرشية الزحلية خاصة واظهر ما له عليها من الفضل لكونه ارواها بباكورة اعراقه الرسولية

وفي اليوم نفسه اقيم جناز كبير في طنطا برئاسة حضرة الخوري اثناسيوس الدبس وكانت الكنيسة مغشاة بالسواد وحضر الحفلة حضرات المرسلين الافريقيين والراهبات وجمهور من الموظفين والاهالي من جميع الطوائف وفي النهاية تلا رشيد افندي سعادة تابيناً مؤثراً

وفي ١١ منهُ احتفل السيد المطران اثناسيوس ناصر النائب البطريركي (رحمهُ الله) بجناز في كنيسة الاسكندرية الكاتدرائية حضرهُ سعادتلو محافظ الثغر ومندوب من قبل دولتلو مختار باشا الغازي وجناب قنصل فرنسا وغيره من قناصل الدول ووفود من لدن جميع الطوائف الكاثوليكية وجمع لا يحصى من الوجهاء وابن الفقيد حضرة الخوري فلابيانوس المطران

واقيمت جنانيز عديدة في مدن اخرى من القطر المصري

وايضاً في ١١ ايار أُقيم في كنيسة سيدة النياح الكاتدرائية في الشام جناز حافل وكانت اعمدتها والمباءة البطريركية موشحة بالسواد وكانت في وسطها منصّة مغطاة بالمخمل الاسود ومن فوقها رسم الفقيد والتاج وعصا الرعاية تحيط بها اكاليل الازهار . وقد حضر الحفلة من قبل دولتلو ناظم باشا ملجا الولاية ومن قبل دولتلو المشير كلٌ من صاحبي السعادة خسرو باشا قومندان الجندرمة ورفعت بك مكتوبجي الولاية وعزتلو سليمان بك

قومسير البوليس ومصطفى بك واصف مدير مطبعة الولاية وصاحب جريدة الشام واحد امراء العسكرية . وحضرها كذلك قناصل الدول بعضهم باشخاصهم و بعضهم بنوابهم وجمع عديد من اعيان الاهالي على تباين مذاهبهم ولفيف الاكليروس وفي طليعته السيد غريغوريوس حداد مطران طرابلس الشام لطائفة الروم الارثوذكسيين بالنيابة عن غبطة السيد كيريوس كيريوس ملاتيوس الدوماني البطريرك الانطاكي للطائفة المذكورة والسيد ميخائيل بخاش والسيد غريغوريوس هبرا اسقفا الشام والموصل لطائفة السريان الكاثوليكيين وسيادة ورتبيت الارمن الارثوذكسيين وجميع نواب بطاركة الطوائف الكاثوليكية ورؤساء الاديار وسائر الكهنة وجمعيات الروم الارثوذكسيين وغيرها من الجمعيات والراهبات اللعازريات و بنات اليتامى و بنات مريم وتلامذة المدرسة البطريركية بموسيقاهم . وتولى الصلاة سيادة المطران اغناطيوس الحمصي النائب البطريركي . وفي الختام ابّن الفقيد سيادة المطران ميخائيل بخاش بكلام بليغ وتبعهُ سيادة المطران اغناطيوس الحمصي فشكر لرجال الحكومة السنية وقناصل الدول والرؤساء الروحيين وجميع الطوائف

و بعد ظهر ذلك اليوم اقام سيادة المونسنيور يوحنا كيرلس النائب البطريركي للطائفة المارونية جنازًا عن نفس الفقيد في كنيستهِ حضرهُ جناب قونشلير قنصلية فرنسا وكثيرون من اعيان جميع الطوائف وفي ختامهِ ابن الفقيد سيادة النائب المنوّه به ففاه بعبارات محزنة ملؤها اطراء صفات المرثي وتمجيد اعماله العظيمة

وفي مساء اليوم ذاتهِ زار سيادة المطران اغناطيوس الحمصي و بعض اعيان الملة نادي غبطة السيد ملاتيوس بطريرك الروم الارثوذكسيين فشكروهُ على مجابرته الطائفة الاسيفة فاكرم وفادتهم واجمل تعزيتهم وذهبوا من لدنه ممتدحين مما ارتبط به جميع الملل من حبال المصافاة والاخلاص

وفي ٢٥ ايار سنة ١٩٠٢ أقام حضرة الخوري ابراهيم بشواتي في كنيسة القديس بطرس في نيو يورك جنازًا حضرته الجالية السورية على اختلاف مذاهبها و بعض الاعيان الاميركيين وعند نهايته ابن حضرته التفقيد فمدح اعماله وجرى مجراه الافندية اسعد اليان وميخائيل ابي سليمان واسعد المالكي وامين غريب وخليل الخياط ولم نقف من مراثيهم الاَّ على خطبة اسعد افندي اليان فنجتزئ بذكر بعضها دلالةً على سائرها . قال

يا مولاي الكلي الغبطة الجزيل الشرف بطرس الرابع الجريجيري الغير المائت

في بيعة من بيع الغرب الاقصى وقف الان احد تلاميذك الصغار ليؤبنك وانت تحت الثرى ولكنه قبل البداية يستأذنك لذلك كما نعل في حياتك بعد ان يقر لنفسك الطاهرة وللهيئة الموقرة الحاضرة بقصر معرفته وجمود قريحته بجانب عديد مآثرك الجلى ومحامدك الرفيعة بيدَ انني اعتمد في ما اقول على ما استلهمه من الحق لشرح الحقيقة بيانًا لافضالك وعلو منزلتك في القلوب فاعذري ايتها النفس الطاهرة واعذروا ايها المواطنون الكرام

قلت انك غير مائت وهي حقيقة بينة لا تحتاج زيادة برهان ومن مات وتخلفت عنه اعمالك المبرورة ومشروعاتك الكثيرة المشكورة الباقية على العمر شواهد عدل فهو ليس بمائت ابدًا ولزيادة البيان اقول بمَ اتذكرك ولا اشكرك وكيف اسوق الفكرة اليك ولا اتلهف واترحم عليك ان هذذت بك بفعل الخير فانت مصدره خُلقت لدومت به كما يعلم القاصي والداني . وان بالصدق فانت معدنه . ام بالحلم وسلامة الطوية فانت كذلك . ام بالحكمة فانت سيدها . ام بالعلم فانت رجله . ام بالجرأة فانت الجسور الحازم ام بالعفاف فانت بعينه . ام بالوجاهة فاصبحت بسمو مداركك عنوانها . ام بالدين القويم والاتضاع المتناهي فكنت

الانموذج للجميع

هذا وان صرفت النظر عن كل هذه المحامد وجئت اتذكرك على طريقة حسية بما تركته لنا بعدك من الاثار المبرورة الا تسمح لي بان اسال نفسك الطاهرة يابطرس الصفا بعض اسئلة من هذا القبيل بياناً للحقائق « الست انت مرمم باب كنيسة سيدة النجاة الزحلية عليها السلام وبانيه من المرمر الفاخر ؟ الست انت المنشئ الاثنتين والاربعين مدرسة في بقاع العزيز باكثر قراها ودساكرها تنويراً لاذهان الاحداث ؟ . الست انت مؤسس جمعية طلب المعارف بالسهرات فوق مهماتك الرابطة لكبار رجال بلدتك زحلة وفئة رجال المعرفة فيها والتي تشرفتُ وكنتُ عضواً فيها حيث كنت تطارحنا اسئلة المعارف وتمرننا على فن الخطابة وحب العلم وتعزيز جانبه واحياء الهمم بالصغار والكبار معاً ؟ الست انت الوحيد المؤسس مدرسة الحقوق الفقهية بزحلة واتيتها بخيرة اساتذة الفقه لترضع الشبان قوانين البلاد واصول الشرع ؟ الست انت الكاتب بماء الذهب فوق ابواب المدارس الآية الذهبية « حب الدين والوطن » تحريكاً لعقول القوم لهذين المبدأين الجليلين دعامة العمران والنجاح لكل امة على الارض ؟ الست انت الساعي لتاسيس مدرسة ايتام في مرجعيون وكم مدرسة من هذا النوع شيدت بشرقنا للان ياترى ؟ الست انت مشيد مدرسة الزراعة هناك لارضاع الطلاب علم الزراعة لاصلاح شؤون المعايش وكيفية استنتاج خيرات الارض على محوري الخبرة والعلم ؟ هذا ولغبطتك يامولاي مآثر عديدة جمة تفوق الاحصاء لو عددتها واحدة فواحدة لطال بي المجال كثيراً اما انت عظيم من بعدها وهلاَّ اقدر ان اقول انك غير مائت ولو نظرنا ايها الكرام بلا غاية الى التاريخ من الجهتين المدنية والكنسية فاي رجل عمل اعمال فقيدنا العظيم ولم يقم له شعبه تمثالاً والكنيسة عيداً حقاً لو كان عند عالم الغرب لعظموه وكرموه فوق الوصف ونادوا به قديساً

او مصلحاً شهيراً

ولكم ا . ى ياMolاي من قرب المشاكلة بحياتك بتاريخ معلمك السيد المسيح له المجد من الجهة البشرية ولا يبعد ان يكون جعلها رمزاً عن حياته جلَّ شأنهُ فامرٌ بيّنٌ كيفية ولادة المخلص ونشأته واضطراره بكبره للاسفار والانذار بالحق لدعوة الناس لربهم وهكذا انت يامولاي ولدتَ فقيراً ونشأتَ عزيزاً وعرضتَ نفسكَ للاسفار وراء العلم والتبشير الخ الخ

وقد رثى الفقيد وعدَّد محاسنهُ حضرة الخوري دانيال المعلوف الوكيل البطريركي المتجوّل في الولايات المتحدة الاميركية ولكننا لم نحصل على نسخة من خطابه هذا . ورثاه ايضاً شبل افندي نصيف دموس نزيل نيويورك فقال ما يأتي مع بعض اختصار

ماذا نحن صانعون للرجل الذي عاش لوطنه

ومات شهيد الاصلاح

مات بطرس الرابع فنقد به الوطن السوري ركناً متيناً وخادماً اميناً مات الرجل الصالح فكان موتهُ ضربة قاضية على العمل المبرور والفعل المشكور مات المصلح الشرقي قتيل الضغينة والاحقاد فهلعت لموته قلوب محبي الوطن واشتفت قلوب الحساد ولكن ابت الشفاه التي علمها في صغرها ان تقول الحق وتجاهر بالحق الا ان ترفع صوتها حتى يبلغ عنان السماء ويملأ الفضاء وتعلن للدنيا باسرها بان بطرس الرابع لم يمت اذا كان في هذه الامة التي نحن منها اقوام لا يدفنون حقيقة افعال الاشخاص مع جسومهم تحت التراب فان يكن بطرس الرابع قد مات كما يموت كل حي واودع جوف الارض فان لهُ افعالاً حية يجب استبقاؤها حية ما دام في الدنيا بقية من محبي الدين والوطن

ان بطرس الرابع لم يكن مختصاً بملة من الملل ولا بطائفة من الناس بل كان للكل ملتهباً غيرة في سبيل منفعة الكل ان هذا الرجل عاش

لاخوانه في الوطنية ورفاقه في الانسانية انه وقف حياتهُ لخدمة الامة السورية وصرف احدى وستين سنة بلياليها ساعياً وراء المنفعة العمومية مضحياً لذات الدنيا وراء لذة روحه العظيمة التي لم ترغب في غير خدمة الحقيقة لترقية شان الامة السورية . درس في صغره العلم ليتمكن بواسطته من معرفة واجبات الخدمة التي اعتبر نفسه انه وُجد لاجلها ولما بلغ اشده اخذ على عاتقه خدمة الامة بقدر استطاعته وعرف ان المعارف حاجة الامة الكبرى فانشأ المدارس ليؤهل الاحداث الذين هم رجال الغد لاستقبال الغد وافرغ فيهم من روحه الحارة في طلب العلم فما خاب سعيه ولا خابت آماله ولما ترقى الى درجة الاسقفية وامتد نفوذه لم يغفل ساعة عن الاستعانة بهذا النفوذ عن توسيع دائرة سعيه واستمداد القوة الممكنة لمد روح العلم بين مواطنيه علماً منه ان العلم روح الامة وبدونه لا حياة لها ولما ترقى الى درجة البطريركية السامية وكان قد ادركه الكبر وظن ان لم يبقَ امامه من العمر الا القليل فيفوته ما هو ساعٍ لاجله من منفعة الامة التي كان يحبها في المرتبة الثانية بعد ربه اخذ يسعى بهمة لا تعرف الملل ولا تشعر بالضعف وبقوة يقصر عن مثلها الشباب واحب ان يجعل الاصلاح امراً مفعولاً فنظر الى ما حولهُ والى الاعمال العظيمة التي يرجو اتمامها فراى ان المال يعوزه وليس لديه الا القليل الذي لا يروي غليلاً ولا يغني فتيلاً فاجمع فكرته ونظر بعين حادة فراى ارزاق الاديرة وراى دخلها الكثير فقال ان اموال هذه الاديرة جمعت من الامة ويجب ان ينفق دخلها في سبيل الامة . . . ولكن خار بموته جسم الامة التي كان روحها وحياتها الدينية والمدنية وظنَّ معارضوه وقد خابت ظنونهم انهم يميتون روحه الحية وما عرفوا ان روحه لم تزل حية في قلوب رجال الحاضر الذين نشاوا في فضله واستقوا من ينبوع معارفه واثروا من جراء جده واجتهاده ظنوا وظنهم فاسد ان نهاية الرجل الصالح عند الضريح وما

علموا ان وراء الضريح حياة اشد تاثيراً على الاحياء وافعل في النفوس وما ادركوا انهم بموت الرجل الصالح ستنتهي افعالهم اذ يخرج من صدر الشعب صوت كهزيم الرعد ممزوج بغضب يرتجفون لهوله و يرتعدون فيؤمرون بالكف عما هم فاعلون

فيا ايها الوطنيون من جميع الطوائف و يا ابناء سوريا عرفتم الان كيف عاش الرجل الصالح بطرس الرابع وكيف مات فماذا انتم له فاعلون انه مات ولحق بربه وقد كان بربه شديد التمسك مشتاقاً الى اللحاق به فهو لا يطلب انتقاماً ولكن أتدفنونه وتدفنون معه اعماله اتكتفون بالبكاء على فقده والبكاء لا يمحو مسطوراً ولا يرد مقدوراً اتريدون ان تدفن الفضيلة وتطمس اثارها ام تريدونها ان تنشر ؟ اظنكم تريدون ان تحيا اعمال الرجل الصالح لتبقى لكم دليلاً يهديكم الى الطريقة الفضلى ونوراً يقود خطوات بنيكم الى اجيالهم من بعدكم في السبيل الحق والمنهج القويم اظنكم لا تنكرون على بطرس الرابع خدمته الطويلة الصادقة النافعة احدى وستين سنة الخدمة التي كانت في سبيل الكل ولاجل الكل اظن الارثوذكسي يشعر كما يشعر الكاثوليكي بان الرجل كان لكليهما اظن الماروني يشعر ان بطرس الرابع كان له كما كان لغيره اظن كل سوري من اية طائفة كانت لا ينكر ان ذلك الرجل الصالح كان للامة وان الامة امنا كلنا والامة نحن فهو كان لنا ونريد ان يبقى فان كان كذلك وكان له خدمات صادقة قدامنا جميعاً فله واجبات علينا جميعاً ويجب ان نقوم بها كما قام هو في واجباته حق القيام

ايها السوريون كلكم تعلمون . انه لم يقم قبل بطرس الرابع مصلح سوري وان كان قد قام واحد او احاد فقد طمست اثارهم ومحي تذكارهم لان الامة كانت غافلة ولكن حاشا الامة السورية اليوم ان تكون غافلة . وماذا ترى الامة السورية فاعلة اليوم لمصلحها العظيم الذي مات شهيد حبها

الا ترون كلكم ، ايًا واحدًا ان يقام للرجل تمثال تحيا به افعاله وتعيش باقامته اعماله الا ترون ان نقيم تمثالاً لرجل مات وفي صدره حب الوطن لم يزَل يختلج وهو موسد في ضريحه الا ترون ان نقيم للرجل تمثالاً ينطق وهو من جماد بان هذا ما فعلته الامة العاقلة لرجل عاش لها ومات في خدمتها الا ترون ان نقيم تمثالاً يشعه بالروح كل ناظر اليه يقول حب الدين والوطن وافعل كما فعل صاحب التمثال واخدم الامة بامانة فتعظم قدرك الامة ونقيم لك تمثالاً خالدًا برهانًا على حبها الكبير واعتبارها الخطير اما ترون ان نقيم تمثالاً للرجل ورجال الافعال قليلون يرى في معناه الناظر اليه ان الامة تريد في خدمة نفوسها مثل هذا الرجل رجلاً عف الازار كريم السجايا صادق الوطنية ماضي العزيمة محبًا لوطنه محبًا لدينه ملتهبًا غيرة على مصلحة ابناء جنسه باذلاً في سبيل اخوانه في الانسانية كل قوة جسمه ونفسه ومن رغب في ان ينال من هذه الامة حبها واعتبارها فليقتفِ خطة افعاله ويعمل بحسب طرقه واعماله . انكم اذا فعلتم تقومون بواجبين الاول نحو من خدمكم بحياته فاكرمتموه في مماته والثاني نحو انفسكم اذ اعربتم عما تحبون في رجال الامة من السجايا وما تريدون ان يتصفوا به من المزايا . والا فانتم تسعون مع الذين سعوا لدفن الرجل مع امجاده تحت التراب وانكم راضون ان تخفوا ذلك النور العظيم تحت حجاب نكران الجميل وبئس الحجاب

وانكم ايها الوطنيون لو نظرتم الى المستقبل وادركتم حقيقة الغد ورايتم رجال الجيل القادم يذكرون تاريخ هذا الرجل واعماله العظيمة ويتساءلون قائلين ماذا فعل اباؤُنا للرجل الصالح بعد موته (فان هذه الحوادث قد دونتها اقلام الكتَّاب) ورايتموهم يغبطونه ويعظمون قدره لكنتم خوف غضبهم العتيد تتسابقون الان لتظهروا كما يجب ان تظهر الامم المتمدنة باقامة الذكر الخالد للرجل الذي افعاله تخلد ذكره الى الذرية

فيقول ابناؤُ كم من بعد كم ان اباءَنا قدروا رجل الامة حق قدره فنعمَ الاباء الذين بهم نفتخر نحن الابناء · اه

ونظم ميخائيل افندي اسعد النحل من نزلآء تلك البلاد مرثاة قرأنا بعض ابياتها في احد اعداد جريدة المحيط الغرّاء ومنها قوله ُ

يا زحلةُ ابكي رسولاً طاهرًا   قطف الملا من كفه خير الثمرْ
مولايَ هبهُ نعمةً يزهو بها   اكليلهُ بين الملائكِ والبشرْ

وبلغنا ان المساعي مبذولة في اطراف الولايات المتحدة الامريكية لإقامة تمثال للسعيد الذكر والساعين باذلون الدرهم بسخاءٍ للقيام بهذا الاثر الجليل وفقهم الله

وقد كان السيد المطران بولس ابي مراد نائبًا بطريركيًا لدى الكرسي الرسولي في رومية فلما اتصل به خبر اشتداد العلة على الفقيد قصد ان يعوده ُ فتشرَّف بمقابلة قداسة البابا مودعًا ومستأذنًا في ١٣ نيسان سنة ١٩٠٢ ثم برح مركزهُ في ٢١ منه وريثما وصل الاسكندرية بلغهُ نعي السعيد الذكر فحزن عليه حزنًا مفرطًا وهمَّ بالعود الى مقرّه ولم يثنه عن عزمهِ الا الرغبة في زيارة لحد الفقيد والتزوّد منه بنظرة فابحر الى بيروت فقضى في محجرها اياماً ثمَّ ما عتم ان خرج منه في مساء ١٧ ايار حتى وافى الكنيسة الكاتدرائية وجثا امام الهيكل الكبير حيث أُلحد هيكل الحبر الخطير فقضى نحوهُ الفرض الاخير وبكى وناح واستمد منه البركات واسترجع الله ورجع الى الدار البطريركية يتبادل مع اخوتهِ الاساقفة عبارات العزآء

واتفق ان جمعيات الملة الثلاث اقامت في كنيسة المخلص بحي الدحداح جنازًا على نفس الفقيد في ٨ حزيران سنة ١٩٠٢ فدعت اليه السادة الاساقفة وكثيرين من الكهنة والجمعيات الارثوذكسية والكاثوليكية والراهبات وجمعًا عديدًا من الاعيان وفي تلك الحفلة خطب سيادة المطران

كيرلس جحا (غبطة البطريرك الحالي) بصفة كونهِ قيم الكراسي البطريركية (لكونه تنصب في هذه الخطة من قبل الكرسي الرسولي في ١٠ ايار) فاثنى على الرئيس الفقيد ثناءً طيباً وشبَّههُ بيهوذا المكابي من حيث اهتمامهُ بامور شعبهِ واشتغالهُ بانقاذهِ من قيود الذلّ وانهاضهِ وحلهِ من ربقة الرومانيين وتعلق شعبه به ثمَّ خطب سيادة المطران بولس ابي مراد فسرد اعمال المطوَّب الذكر واجلّها وكان لكلامه وقع محزن في نفوس جميع الحضور . وفي الختام طلع السادة الاساقفة وجمهور المدعوين الى دار الكنيسة فاعادوا عبارات العزاء والشكر . وتلا نخله افندي بطرس شكوي رئيس اخوية القديس يوسف المارونية مقدمة وبعض ابيات وهي

سادتي الافاضل

ان اخوية القديس يوسف المارونية قد شاطرتكم الاحزان مع سائر الجمعيات ورفعت الادعية الحميمة لراحة المطوب الذكر البطريرك بطرس الرابع وبما انكم في هذا اليوم تحتفلون بتذكاره السعيد ارجو ان شئتم سادتي استماع هذه الابيات البديهية

ودّعوا اليوم يا كرامُ عظيماً　　كان كالبدر في سما الآفاقِ
واذكروا نفعهُ اليكم دواماً　　ولدين المسيح بالاطلاقِ
هو حبر قد كان شهماً فريداً　　حاز فخراً يعلو على كل راقِ
فضله يا كرامُ كان عميماً　　ولذا قد بكتـه كلُّ الماقي
موته عدَّ نكبةً اشعلت في القلـب ناراً تئجُّ في الاعماقِ
فالوداع الوداع صعبٌ اليمٌ　　حيثُ بالموت لايعود التلاقي
فسلامٌ عليه بعـد سلامٍ　　ما ترقى الى متون الطباق
وعزاءٌ لكم جميعـاً وسلوا　　نٌ يدوم بنعمة الخلاَّق
الهمَ الله سادةً لانتخابٍ　　فيه تحيا القلوب بالاتفاقِ
وليعيدوا ذكراً لاكل حبرٍ　　بطريركٍ في جنة الخلد باقِ

فيطيبَ الهناءُ بعد شقاءٍ وتعيشوا بلذةٍ ووفاقِ

وفي ١١ حزيران سنة ١٩٠٢ أُقيمت في سان باولو من بلاد البرازيل حفلتان دينية ومدنية يندر اقامة مثلهما لغير الجريجيري من اكابر الرجال وعظمائهم

اما الحفلة الدينية فقد تمت في كنيسة السه الكاتدرائية وتولاَّها سيادة مطران الولاية وحاشيته الاكليريكية وحضرة الخوري باسيليوس الباشا خادم كنيسة الملة في ريودي جانيرو والخوري مكسيموس صليبا خادم كنيستها في سان باولو والخوري يعقوب صليبا كاهن الطائفة المارونية ووفود من اكليروس شركتي قلب يسوع وقلب مريم والرهبان البندكتيين والكبوشيين واليسوعيين وحضرها جناب قنصل فرنسا وقنصل النمسا. وقيصر افندي ابرهيم المعلوف صاحب جريدة البرازيل بالنيابة عن سعادة قنصل الدولة العلية وترجمانه. ووفود من قبل الملة في ريودي جانيرو وفي سانتوس ومن قبل الجرائد العربية. والجمعيات الخيرية المارونية والارثوذكسية وجمعية الاحسان البرتوغالية ونواب عن جمعية الشبان السوريين والجمعية الحمصية وجمٌّ غفير من الاعيان البرازيليين والجالية الافرنجية والعربية وفي مقدمة الجميع مندوبان من قبل رئيس الولاية ورئيس الشحنة وقائد جنود المطافئ ورجال الشحنة وغيرهم من المدعوين حتى ضاقت بهم الكنيسة على رحبها وكانت هيا كلها ونوافذها وشرفاتها مغشاة بالنسيج الاسود. واقيمت في وسطها قبة عظيمة عالية وُضعت فوقها عصا الرعاية والتاج وصورة الحبر الفقيد مرسومة بهيئة مجسمة وحولها اطار نفيس والاكاليل الثمينة الفاخرة المقدمة من لجان الطوائف والجمعيات وارباب الصحف والاعيان. وكانت الموسيقى الكنسية في الداخل تساعد الكهنة والموسيقى العسكرية في الخارج المؤلفة من ٦٠ قطعة تعزف بالانغام الشجية. وفي ختام الصلاة رقي المنبر حضرة الدكتور ميكال كروز رئيس دير سان بنتو وهو ابلغ خطيب

اكليريكي في البرازيل فأبن المثلث الرحمات باللغة البرتوغالية بعبارات اسالت العبرات . وتلاه حضرة الخوري مكسيموس صليبا فخطب بالعربية تابينًا نفيسًا

واما الحفلة المدنية فقد تمت في نادي (كلوب) داس فاميلياس في ردهة فسيحة اعدت لهذا الشأن وكان مسير الموكب الى النادي على ما يأتي بيانه

خرج الناس من البيعة ومشت امامهم الموسيقى العسكرية وهي تعزف بالالحان المحزنة ثم تبعتها مركبة فاخرة اقلت رسم الفقيد الجليل ومن حوله الاكاليل وقد احاط بالمركبة بضعة رجال من علية القوم فامسكوا باطراف البنود وساروا بها والجموع على رصيفي الطريق يكشفون رؤوسهم احترامًا للرسم الكريم وعند وصولهم الى الموعد أُنزل الرسم من المركبة ورُفع على ايدي الكهنة حتى وصلوا به الى الردهة فوضعوه فوق دكة مهيأة له وطوّقوه بالاكاليل وهناك قامت قيامة الخطباء والشعراء المؤبنين فصعد المنبر حضرة الخوري يعقوب صليبا ثم فارس افندي سمعان نجم محرر « المنارة » فأبّن بالنيابة عن الطائفة المارونية ثم الدكتور سعيد افندي ابي جمرة فأبن بالنيابة عن الروم الارثوذكسيين ثم نعوم افندي لبكي صاحب جريدة « المناظر » فابن باسم جريدته وباسم جمعية الشبان السوريين ثم شكيب افندي جراب باسم الجمعية الحمصية ثم شكري افندي جرجس انطون مدير « العدل » فابن باللغة الفرنساوية باسم جريدته وباسم الاخوية المارونية في ريودي جانيرو ثم شكري افندي الخوري بالنيابة عن جريدة « الصواب » ثم تلا ابرهيم افندي دياب المعلوف مرثية منظومة وهي هذه

الا انشطي يارعايا الشرق والتئمي ... شعبًا لشعبٍ وردّي هجمة الازمِ
على بنيكِ سطت يا شرقنا دولٌ ... من الرزايا همت كالعارض العرمِ
هيا نردّنّها او لا فلا جرمٌ ... ديار اصلاحنا تغتال عن امَمِ
منا النفوس واطفال المذاود في ... هذا السبيل نضحيها بلا ندمِ

وسوف تبصر ابحارًا تسيل دمًا ... من مقتل الدمع لا من مقتل الجسمِ
على الفقيد الذي كم هزَّ مصرعه ... من امةٍ اسخنت دمعًا ومن اممِ
قضى وما هذه الدنيا سوى عدمٍ ... والمرءُ في قفرها ساعٍ الى العدمِ
مني عليها سلام الراحلين فما ... فيها سلامٌ لانسانٍ اخي سلمِ
ما تي الحياة وما هذا الفناء ولا ... هذا يدوم ولا هاتيك لم تدمِ
أَجامعَ المال لا تغني به احدًا ... سواك هل دام الاستئثار بالنعمِ
وانت يافارق الدين الذي التامت ... اديان غيرك فيهِ كل ملتئمِ
دع المذاهب والدنيا على حدةٍ ... وكن من الشعب كالمخدوم والخدمِ
واذهب الى ذلك القبر الذي ارتسمتْ ... جفوننا في ثراهُ ايّ مرتسمِ
واقرأْ لبطرسَ آياتٍ يقول بها ... عليكِ مني سلام الله يا غنمي
احييتُ بينكِ روح الحبّ منعشةً ... لجسمكِ فذريهِ غير منفصمِ
وارعي الذمام الذي خولفتُ فيه انا ... ان رُمتِ مثلي مرامًا قط لم يرَمِ
رعيتي ودّعيني بالاسى واذا ... ما نمتُ عنكِ فعين الله لم تنمِ
هذا وداعي ومالي بعدُ من رمقٍ ... الاّ الذي هبَّ فوق القبر من نسمِ
رعاتنا واسمعوا قول الفقيد ولو ... بعض الكلام ففيه ابلغ الكلمِ
نعيتمُ فقدهُ للشرق قاطبةً ... فهل وجدتمُ دمعًا غير منسجمِ
والله ياموتُ قد فاجأْتنا باذًى ... لم تدرِ من قبلهِ ما شدّة النقمِ
مصيبةٌ قد جرت مجرى الدماء بنا ... لذاك كل دمٍ يجري مع الالمِ
ورعد حزنٍ دوى بين الضلوع اسًى ... فامطرت بعدهُ الاجفان صوب دمِ
وارسلتْ من غوادي دمعنا رسلاً ... للشرق قد سيرتها دمعة الالمِ
تسير في بحر ماءٍ وهي بحر رثا ... على بخارٍ بموج الخطب ملتطمِ
عسى ببيروت ترسو حيث وجهتها ... حبرٌ عليهِ جنى الاصلاح بالسقمِ
ان مات او لم يمت من علةٍ فقضى ... مستشهدًا وبسهم الخائنين رُمي
هناك تلقى ضريحًا فيه قد دفنتْ ... مصالح الشعب بين الترب والرممِ

هيَّا فنسأَلـــ عنها بطرساً فعسى منه جواب مبيحٌ كل مكتتمِ
يا ايها الحبر قم أَهِّلِ بوفدِ اسى من جوهر الدمع والاوزان منتظمِ
يهديك آياً وطيَّ الآي افئدة لنا أَلا تُشترى منا بينت فمِ
الله الله يـا هذا الفقيـد فلا كنا فكنتَ قتيل الحكم والخصمِ
خيبت آمال شعبٍ في مماتك قد صارت ْمن الضعف تمشي مشية الهرمِ
ادهرَنا كيف قد باديتنا حسناً واليوم أعقبتَ سوء المنتهي ولمِ
هذا وحيدك قد ولى على عجلٍ نخف ْعلى الحزم ان يقضي مع الهممِ
ذابطرس الشعب والاغنامُ قدنقدت بنقدهِ اليوم راعي امة النِّعمِ
لذاك نبكيهِ مـا نـاح الحمـام على غصن نعيد بكاهُ غير منصرمِ
الى اللقا يا فقيداً كان مبتدئاً بالف حسنى وولى غير مختتمِ

وتلاه خليل افندي الخوري المساعد بتحرير جريدة «البرازيل» فابن باللغة البرازيلية وخطب بعده ابرهيم افندي الحاج فرح ثم نعوم افندي شداد ثم وديع افندي فرح المعلوف ثم المعلم طنوس افندي الياس ثم المعلم خليل افندي سالم فابن باللغة الفرنسوية ثم نجيب افندي الحداد فابن نظماً ونثراً ثم تلا خليل افندي الخوري مرثية من نظم قيصر افندي ابرهيم المعلوف وهي هذه :

﴿ الخلود ﴾

ليمت نظيرك في الجهـاد شهيدا من شاءَ مثلك ان ينالـــ خلودا
نازلتَ قوات الضـلال بهمةٍ شماءَ تابى ان تكون قعودا
وغزوتَ جيش النائبات بصارمٍ هجر الغمود وحالف التجريـدا
لما حملت على الضلالة لم تقدْ الاَّ العزيمـة والوفاءَ جنودا
ما صدَّ عزمكَ عن مقاتلة الخنى خوفٌ وان تكُ في الجهاد وحيدا
فتحتَ للاصـلاح بابـاً مغلقـاً وجعلتَ باب بلائنـا موصودا
حتى قضيتَ شهيد حزمك فاغتدى سيف البلا بقلوبنا مغمودا

يا من نعاه البرق يرعد هيبةً كم اعقبت سحبُ العيون رعودا
لو كان مثلك يرتجى راعٍ لنا ما كان خطبك في البلاد شديدا
من يترك العيش الرغيد مفضلاً ان لا يعيش وان نعيش رغيدا
من ذا يجود بنفسهِ لرجالهِ رحماكَ بطرسُ قد هتكتَ الجودا
قم شاهدِ الاقوامَ في اقصى الدنى لك قد اقاموا مشهداً مشهودا
من كل طائفةٍ وكل مدينةٍ هبوا يحيوا رسمك «المحمودا»
لم يثنهم فرق المذاهب كونهم علموا كيانك للجميع ودودا
يا راحلاً عنا الى دار البقا اثكلتَ منا سيداً ومسودا
ايّ القلوب عليك لم يقطر دماً ايّ الجلاد عليك ظلّ جليدا
من لم يرقْ لبلاك دمعاً احمراً فلانهُ اختار الدموع السودا
بيروت يومَ مشوا بنعشك اوشكتْ لولا المهابة والوقار تميدا
ما شاهدتْ من قبل يومك فوقها حشداً كحبات الرمال عديدا
من كل مفجوع وكل مروّعٍ امسى يعيد النوح والتعديدا
ما ان راى تلك المشاهد مبغضٌ الاّ وكان على الممات حسودا
الله اكبر كنت محسوداً على الـ نعمى وصرت على البلا تحسودا
من كان يبغي ان يعيش مكرماً ليمتْ نظيرك في الجهاد شهيدا

وكان خاتم المؤبنين قيصر افندي المعلوف المذكور آنفاً فخطب بلسانه ولسان ابناء الملة وشكر وعزّى بالنيابة عن سعادة منيبيهِ قنصل وترجمان الدولة العلية وهذا نص خطابهِ :

ايها السادة

اراني في موقف رهيب . بين سائل دمع العيون و بين دمع مجيب

فاسألنها واجعل بكاكَ جواباً تجد الدمع سائلاً ومجيبا

فلم يعد والحالة هذه افصح من الدمع ناطقاً بلسان القلوب . ولا ابلغ من هذا المشهد المهيب معدداً مآثر فقيدنا المحبوب . ولقد كان فيما مضى

اسهل شيء على لساني ايراد جمل التابين . واخف امر على قريحتي وجناني نظم المراثي وندب الدفين . كيف لا وانا القائل

قد رق شعري في الرثآء لكثرما   داعي الخطوب الى الرثاء دعاني

اما الان وانا في تيار بحر هذا الخطب المريع تلطم امواج الشجون باخرة جناني . فتوقف عن الجري لساني . ثم تغرقني دمعة اجفاني . فليس أذن يا سادتي بالامر العجيب . جعل الدمع افصح خطيب . ان الفقيد ولا ازيدكم به علماً لا يفيه حقه النظم والنثر . اذ لا تخضع مآثره الجليلة لسلطان الحصر . وكان الاولى بالناظم . والمؤبن الحازم . اذا اراد ان يجمع في قوله شتات البلاغة وقوة التعبير . ان لا يزيد على قولـه

(قضى بطرس الجريجيري الشهير)

ولكن لما كان القول مسعفاً على البلوى . وفيه للمصاب بعض التعزية والسلوى . خصوصاً وقد جرى عليه جماعة المتأدبين . من المتقدمين والمتاخرين . كان لا بد للواقف هذا الموقف نائباً عن ابنـاء طائفته . ومحدثاً عن عاطفته . ان يقول شيئاً على قدر الامكان . ولو قصر عن التعداد البيان . فلذا اقول ما يمليه القلب على اللسان

اقول ياسادتي انهُ لو اودى بنا الحزن على فقده . الى ادراج الاجسام في لحده . او لو اتاحت لنا الحسرات . شرب ثمالة تلك الكاس المرة التي شربها في نخب اصلاحنا لقضينا بذلك بعض الواجبات

بيدَ اننا لسنا وحدنا مصابين بهذا البلآء . بل نحن بالمصاب وكل رجال الشرق سوآء . بل لو ان للحجر الاصم محاجر . وللتراب مشاعر . او لو ان النطق من خصائص المنابر . والحس من صفات المحابر . لجرى الدمع من الصخور بحوراً بدلاً من الجداول . ولابدى التراب على فرط حزنه دلائل . ولندبت الاعواد رجلها الراحل . وجفَّ من المحابر دمعها

السائل . لان فقيدنا المعظم . وشهيدنا المكرم . جعل بفرط حزمه من الصخر درًّا . ومن الترب تبرًا . وعصر من الاعواد خمرًا . واستخلص من الحبر سحرًا

اقول ذلك واستغفر الله من المبالغة والمين . وانزّه قولي عن الاطراء المشين . اذ لست بسارق بوصفه عن غيره خلة . ولا ملبس قولي من غير مآثره حلة . ولا عجب فعندي على كل ما اقول. شهود عيان عدول

امَّا انه رحمات الله عليه جعل من الصخر الاصم درًّا . فذلك بما شاده منهُ وبناهُ . حتى اعزه واغلاهُ . فكم صرح للعلم اقام . وكم ملجا بنى للايتام . بل وكم اسس لفتيات العصر امهات المستقبل من مدارس . وكم انشا من معالم للفنون الدوارس . ومن رغب على ذلك تزكية الشهود وزيادة البيان فليسال زحلة والبقاع . وسكان تلك الاصقاع . بل فليستشهد بانياس . ومن حوته من الناس . وليستحلف مصر . عما اسسهُ لشبان ذاك القطر . وليناشد بيروت . عما نواه لها من الاصلاحات لو لم يدركهُ الموت

فوا اسفاهُ على رجل الجدّ والاقدام

واما كونه جعل من الترب تبرًا فذلك ما تنادي به على رؤُوس الاشهاد في كل البلاد . مدرستهُ الزراعية التي شادها في ابرشيته البانياسية في وقت نحن فيه بأشد الحاجة الى انقان فن الزراعة . الذي سبب لنا اهماله القحط والمجاعة . حتى هجرنا الاوطان وتشتتنا في البلدان . نطلب الرزق من براثن الشدائد وانياب الهوان

فوا حسرتاهُ على فقيد الاوطان

اما كونه كان يعصر من المنابر خمرًا ويسيل من المحابر سحرًا . فذلك ما تنبئنا عنه محافل بلوى و باريس العظيمة وقصور العواصم الفخيمة . واعواد وادي النيل . ومواقف الفاتيكان وكل محفل جليل . بل منابر

بيروت والشام واهل الفصاحة من عرب واعجام · فان صيت الجريجيري ضارب في كل صقع ومكان واسمه يجري اعذب من الشهد على لسان كل انسان · وذكر فصاحته مالئ السهول والوديان

فوالهفاهُ على فقيد العلم والعرفان

اما جهاده اجزل الله ثوابه في سبيل الاصلاح فذكره يدمي القلوب ويدمل الجراح · فما شبَّ رحمه الله عن الطوق في هذا العالم الفاني وما فرق بين القاصي والداني · حتى ابتدأ حياته الجهادية · وجرد عساكره من حميته الوطنية تقودها نفسه الابية · الى حيث مخيم الجهل فاصلاهُ حرباً وايّ حرب · املاً بان يفاخر بشرقه الغرب · وظل في معترك الجهاد · يفرق صفوف الفساد · ضارباً بذراع شديد · مقلاً صارم حزم يفل الحديد · غير ملوٍ عنان الجدّ ولا خائف في الحقيقة احد · ففتح ابراج المعالي · رغماً عن معاكسات الليالي · وظلّ حاملاً الوية الاصلاح · مبلياً البلاء الحسن في جنود الطلاح · حتى اصابهُ وا اسفاه سهم الخيانة فاستشهد على مذبح الامانة · ومات بموته امل الامة وادرجت بكفنه ماضيات العزيمة والهمة · وكان وقع المصاب به على قلوب العباد في جميع البلاد · كوقعه ما بيننا وانتم تشاهدون · فليفحص كلٌّ منكم قلبهُ ومن قلوبكم تعلمون

فوا حرّ قلباهُ على شهيد الاصلاح المفدَّى

هكذا كانت حياة الفقيد يا قوم طراداً وجهاداً ومقاومة واضطهاداً ثم حسرة واستشهاداً · فمن لا يستنزف الدمع على مثل هذا الرجل المفيد · والمصلح المجيد · اذ لمن تذخر الدموع وتصان الضلوع وقد مات من كان يبرد لوعة المصدوع ويخفف الم الموجوع · مات رجل الامة والوطن واُدرج واحد الدنيا في الكفن · مات الجريجيري

هيهات ان ياتي الزمان بمثله ان الزمان بمثله لبخيلُ

فيا ابناء سوريا الوطن المحبوب من عموم الملل والشعوب . لنبكه كما بكى على يوسفهِ يعقوب . فما كان ليفرق في حبه بين ابناء الطوائف المسيحية وغير المسيحية بل كان لديه الكل سواء في الوطنية . ويشهد الله ومن انقاه ومن عرف فقيدنا وسبر غور نواياه . انه اول رئيس ملي نادى على رؤُوس الاشهاد بالمحبة والتآلف والاتحاد . لا بل هو السابق الى ما لم يفعله قبله انسان في عضد كل بائسٍ من اي مذهب كان

ولكن اراني في حثكم على البكاء كمن يفسر الماء بالماء . فكم من ماروني بكاهُ وكم من ارثوذكسي رثاهُ وكم من مسلم حزن لدى منعاهُ . وكم من درزي" تفتت قلبهُ لدى بلواهُ

فيا لخسارة الشرق الجسيمة

وانتم يا ابناء طائفته الكاثوليكية في الديار البرازيلية . ان كان قد عز عليكم العزاء . فلا تجعلوهُ بلوى في الصباح وسلوى عند المساء . فان للفقيد من الاتعاب على الملة ما لا يجمل بكم نسيانهُ ومن الفضل ما لا يحسن كتمانه ونكرانه . فاجمعوا كلمتكم الى احياء تذكاره وتخليد اثاره . بتمثال يقام له فينطق بمعرفتكم للجميل ويكون على طيب غرسكم وشرف احساساتكم خير دليل . فما شرف المال المجموع الا ليبذل بعضهُ في مثل هذا المشروع فلتجد اياديكم ببعض المال كما جادت الان لإعظام هذا الاحتفال . وانتم اكرم من أن استحثكم على البذل . وانبل من ان انبهكم الى واجبات النبل . فيجب ان لا نخيب بنا الامال ولا نضيع فرصة تخلد لنا افخر الاعمال . وها قد قضينا بهذا الاحتفال العظيم بعض الواجب نحو الفقيد الكريم . ولا اظن الا ان كل واحد من كرام المواطنين . يكون لنا في ما نشرعهُ من اكبر المساعدين

وانتم يا ابناء زحلة يا مواطني هذا الفقيد . والمفاخرين بمآثر هذا العميد . يا من نشأتم سوية بذاك الوادي . وترعرعتم واياهُ بتلك النوادي .

بل يا من ملحت اجسامكم بتراب ملح به جسمهُ . ومشيتم على ارض مشى عليها قدمه . وانعشتم واياه من ماء نهر واحد . وكثيراً ما جلستم معهُ على الموائد . وربيتم سوية مربى الابناء . في حضن الاباء او الاخوة في محافل الاخاء . فبماذا احرّك شعائركم وبايّ شيء انبه خواطركم . لكي تهبوا الى تخليد تمثالهِ . وحفظ رسمهِ وخيالهِ . في بلدتهِ التي عزّز اسمها بين البلدان . وخلد ذكرها بافعاله في بطون التواريخ الى منتهى الازمان . والتي جعلها بما شادهُ فيها من صروح العلم العديدة مدينة تعدّ بين المدن الفريدة . وعهدي بكم انكم لا تنسون من حفظ لكم المودة طول حياته ولم ينسَها ساعة مماته . وحاشاكم ان تنسوا بطرسكم القائل « تنساني يميني ان نسيتكم يا اهالي زحلة »

بلاؤنا قد غدا يا قوم مرّا فقـدنا سيّدًا علماً ابرّا
رئيساً حازماً واباً شفوقـاً جليلاً فاضلاً وهلمّ جرّا

فيا ايها الزحليون الكرام

ها بيروت قد حرمتنا من جسمهِ وضنت علينا بعظمه . فهل اقل من تمثال نقيمه لهُ في بلدتنا احياءً لذكره واجلالاً لقدره . فما كنا لنجدّ في جمع المال الا لبذله في مثل هذه الاعمال . فشمروا اذًا عن ساعد الكرم . يا رعاة الذمم . فبطرسكم أولى بالاكرام والاجلال واحقّ بان تبذل لهُ النفوس الغوال

اما انا الواقف هذا الموقف الرهيب . فلي من هذا الخطب اوفر قسمة واوفى نصيب . اتأسف عليه مع عموم الناس لانهُ كان من آحادهم . واحزن عليه مع ابناء طائفته لانني فردٌ من افرادهم . واتوجع عليه مع ابناء مسقط راسه لانني احدهم . واشقّ الجيوب مع تلامذته لانني كنت به اسعدهم . واسكب الدموع وحدي ومن مني احرى بسكب الدموع وتمزيق الضلوع

ومن احرى بطول الحزن مني   واجرى في الاسى دمعاً هطولاَ

وقد كان رحمه الله يتفقدني بكتاباته الخصوصية وبركاته الرسولية · ويرعاني واياكم بعين ساهرة ولو كنا في اقصى بلاد المهاجرة · وهذه كتاباته لديَّ اجمل الآثار واشرف تذكار · احفظها الى يوم يسمح الله به بلقياه في تلك الدار

واكثر ما يزيد الحسرات ويستنزف العبرات · قولهُ لي باحدى كتبه الشريفة « اجتهد في مركزك ان تكون رجل اصلاح مخلص الوطنية قبل اجتهادك بان تكون نحوياً · لان النحويين في بلادنا كثيرون ولكن رجال الاصلاح قليلون » · فمن يتفلسف بهذه الكلمات يعلم من نعى بنعي بطرس النعاة

وها لم يعد يسمح لي الوقت بالوقوف على هذا المنبر الحزين اكثر من بعض ثوانٍ استرقها لوداعك ايها الراحل الكريم والمصلح العظيم · الذي اجتمعنا لتحية رفاته في اقاصي البلاد الجديدة فافتح عينيك من قبرك وانظر هذه الجموع العديدة · ترها تودع بوداعك كل امل وتدفن بلحدك حرية الضمير والقول والفعل والعمل · انظر تجد قلوباً آسفة ووجوهاً كاسفة · وعيوناً قرَّحتها الدموع ونار حزنٍ حامية تؤجج في الضلوع · وفكراً حرًّا يوحي الى لسان كل انسان آية هي الحقيقة وبنت البيان · وهي مكتوبة على جبهة الحرية بحروف نارية مآلها « لا تستحقك يا بطرس سورية · فاذهب الى ربك بسلام » · اه

ولقد كان غير من ذكرناهم مستعدين للرثاء غير ان ضيق الوقت حال دون ما كانوا يرغبون · واطلعنا على منظومة لنسيم افندي ابرهيم الخوري وهي هذه :

❊ المشهد العظيم ❊

علامَ الجمع في سان بولو مادَا   وقد خضب الاسى منهُ الفؤادَا

وآثار الكآبة فيه تبدو كأنَّ الجمع مكتئب حدادا
وقد لبس السوادَ ولم نراهُ قبيل اليوم قد لبس السوادا
وسالت من مآقيه دموعٌ غزارٌ لا يريد لها ارتدادا
واجراس الكنائس قارعات يحرّك قرعها الصخر الجمادا
واعلام الفخار منكساتٌ كأنَّ الخطب قد ملأ البلادا
وآيات الرثاةِ مؤبناتٌ لقد أفنتْ بكثرتها المدادا
وابيات القصائد نادباتٌ تسابق في تجاريها الجوادا
واعيان البلاد ومن عليها غدوا يمشون ازواجاً فرادى
وحكام المدينة بانتظامٍ وهول الخطب قد شمل العبادا
اليس لأنَّ من قاد المعالي براحته وما عرف القيادا
واصبح في بلاد الشرق قرناً على الاصلاح قد عقد الجهادا
وقد ساد الرئاسة فاستعزَّت بهِ الاوطان عزماً واجتهادا
وأرجع للكنيسة ايَّ مجدٍ بهِ اضحت معزَّزة قيادا
وشاد مدارساً وبنى صروحاً بها اتقى عن العلم الكسادا
وكان يدير حادثة الليالي ويحسب للعلى ابداً عمادا
ويؤْخذ رأيهُ في كل امرٍ أضاع بهِ مريدوهُ الرشادا
ويذكر اسمهُ مثلاً لفخرٍ وليس بمن يجيءُ به انتقادا
وينظر للمعالي ما استطالت بعينٍ لم تذقْ ابداً رقادا
قضى فقضتْ برفقتهِ المعالي ولم يرعَ الزمانُ لهُ ودادا
هو الحبر الجريجيري فلما قضى مادتْ لهُ الدنيا تعادا
قضى من كان للاوطان سيفاً نقدُّ بهِ من الجهل القيادا
قضى فلذا المنابر قد نعتهُ وقد ملئتْ جرائدنا سوادا
فكم بالشرق قد ندبتْ عيونٌ على حبرٍ بهِ الاصلاح سادا
وكم سالت لمنعاهُ كبودٌ وكم خسرت بهِ الدنيا عمادا

كفى ان قال في منعاهُ ناعٍ　　اری صخر الكنيسة فيه بادا

وقد فصلت جرائد سان باولو وجرائد ريودي جانيرو هاتين الحفلتين بشروح مطوّلة ملات منها عدّة جداول في عدّة صحف. وبلغنا ان النزلاء السوريين من ابناء الملة وغيرهم فتحوا ثمة اكتتاباً لاقامة تمثال للنقيد اجمل الله فعلهم واجزل اجرهم

وفي ١٥ حزيران سنة ١٩٠٢ اقام حضرة الخوري سلوانس منصور جنازاً في كنيسة القديس ميخائيل في سدني (اوستراليا) دعا لحضوره لفيف الاكليروس الكاثوليكي وجميع الطوائف والشعب الانكليزي وفي مقدمة الجميع جناب اسبر افندي جريديني قنصل الدولة العلية وفي نهاية الصلاة ابّن النقيد حضرة الخوري المذكور نظماً ونثراً وابّنهُ ايضاً كهنة الطائفة المارونية والخواجا سبع المعلوف وغيرهم ورثتهُ جرائد سدني وادرجت سيرة حياته وصدّرت اعدادها برسمه الكريم

ذلك ما علمناهُ من اخبار الجنانيز وبقي مما لم نعلمه شيء كثير ومجمل القول ان الحزن على النقيد كان عاماً جميع الاقطار فسبحان الحيّ الباقي

وها نحن الآن موردون بعض فصول مما نشرته بعض الجرائد على تباين نزعاتها وصبغتها في مدح فقيدنا المطوب الذكر مكتفين باقل من معشار الذي كتبته رعاية للاختصار على انها في الجملة قد زانت صدورها برسمه ودوّنت سيرة حياته وذكرت صفاته وحسناته بفصول ضافية لا تسعها المجلدات الضخمة واليكم ما لخصناه عنها

جرائد بيروت

قالت جريدة الاحوال بتاريخ ٢٥ نيسان سنة ١٩٠٢ ما خلاصته

الفاجعة العظيمة

بمداد دمع يقطر دماً نسطر الفاجعة الاليمة التي رزئت بها الكنيسة الكاثوليكية وسائر الكنائس المسيحية بل عموم الملل بفقد الحبر العظيم الهمام عنوان الحمية والاقدام مثال التقوى والفضيلة وقدوة الطهر والعفاف والخلال الجميلة بطريرك الروم الكاثوليك الطيب الذكر المثلث الرحمات

السيد بطرس الرابع الجريجيري

واي امرءٍ لم يعرف الجريجيري وقد طبق اسمه الافاق واي لسان لم يتحدث بذكره وقد اشتهر بالغيرة والاتضاع وكرم الاخلاق فلا نغالي اذا قلنا ان الرزيئة عامة والاسف شامل الخاصة والعامة وان كان بنو ملته قد خسروا به اباً جليلاً حنوناً فان ابناء سائر الملل قد فقدوا به شهماً غيوراً ومحسناً شفوقاً ونصيراً كبيراً فالجميع يتحدون اليوم حول جثته الكريمة مستكبرين الفاجعة الوطنية العظيمة وساكبين عبرات الحزن الحميمة

اجل ايها الحبر الجليل الراحل قبل الاوان لقد طالما ناديت من اعلى المنابر بوجوب اتفاق الملل والتحام القلوب والتعاضد بالسعي في ما يؤول الى خير البلاد فهوذا القوم قد لبوا اليوم نداءك وازدحموا امام منصتك لتكريمك فارفع يدك وباركهم وافتح فمك وشدّدهم بنصائحك الحكيمة امل عينيك الى ذلك الزرع الذي سقيته بعرق الجبين ملتمساً منك دوام العناية لينمو ويصير فى المستقبل القريب شجراً باسقاً يؤتي ثمره في حينه

ولكن وا اسفاه من نخاطب والى من نادي ان ذاك الذي تطالت اليه الاعناق يوم ارتقائه الى الكرسي البطريركي وعلقت عليه الامال باتيان جلائل الاعمال قد غدره الزمان وهل يعاند الزمان الا الابطال وتراكمت

عليه المهام الخطيرة كالجبال فهدت ركن حياته واقعدته عن الاعمال الكبيرة فلم يستطع الى انجاز الوعد سبيلاً فيا لسوء الحظ ويا لخيبة الآمال الخ الخ الخ

وقالت جريدة « لسان الحال » بتاريخ ٢٥ نيسان ما ملخصه

رزء عظيم

ان المصائب تتفاوت في المقدار حسب تفاوت الاقدار . وما الحياة سوى لمع سراب خاب آمله . والدهر مطبوع على الكدر فلا تصفو مناهله . وان المرء لا تخلده في الدنيا فضائله . ولا تذود عنه الردى معاقله . والمنية مصير الاولين والاخرين وشرعة لا بد من ورودها لكل العالمين فلا يكاد يتألق في سماء الفضل بدر حتى تعاجله المنون بالخسوف عند الكمال . ولا يورق في روضة النبل والتقى غصن الا وتستاصله عند الاعتدال . فافٍ لدنيا نعيمها نغص . وحشو قلبها غصص

فجعت طائفة الروم الكاثوليك برئيس احبارها . واصيبت الكنيسة الكاثوليكية بفقد فرد جليل من اوطد اركانها . وخبا في سماء البيعة المسيحية جمعاء شهاب كان من اثقب شهبها . وثل طود كان من اشمخ اطوادها نعني به المطوب الذكر المثلث الرحمة

بطرس الرابع

بطريرك الروم الكاثوليك وكان رحمه الله حبراً غيوراً ومقداماً حزوماً وخطيباً بليغاً متضلعاً من العلوم اللاهوتية وجانب عظيم من اللغات قوي العارضة سريع الخاطر فاضلاً ورعاً لطيف المعشر طيب السريرة رقيق المحاضرة وديعاً حليماً ميالاً الى الخير والاحسان لا يصد راغباً ولا ينهر طالباً وكان محبوباً من سائر الطوائف متعصباً في حب دولته ووطنه وما اقبح التعصب بحد ذاته ولكن ما احسنه اذا كان فيما ذكر

وعلى الجملة فانه كان متحلياً بالممدوح من الصفات مشكور المقاصد والنيات ومع كل ما اوتي من النعم فان المنية لم تحجم عنه ولا خلدته فضائله على حد ما قيل

لو كان يخلد بالفضائل ماجد ما ضمت الرسل الكرام قبورُ

عرف ان الدنيا دار بؤس وشقاء فلبى دعوة ربهِ مؤثراً دار البقاء ومات ولكن مآثره الجلى حية لا تموت وذكره محفور على صفحات القلوب لا يمحى الى ما شاء الله الخ الخ الخ

وقالت جريدة « البشير » بتاريخ ٢٨ منه ما خلاصته

فاجعة عظيمة

لما بشرنا القراء في العدد الصادر بتاريخ ٢٨ شباط سنة ١٨٩٨ بانتخاب السيد الجليل مثال الفضيلة والاقدام ونموذج الكمال والطهر المطران بطرس الجريجيري بطريركاً على ملة الروم الكاثوليك ختمنا الكلام بقولنا « ان غبطته يحقق الاماني لانه معروف بالاقدام والهمة والجد وبذل النفس والنفيس في سبيل الخير » غير ان المنية التي اختطفت روحه الطاهرة يوم الخميس ٢٤ نيسان قبل نصف الليل بقليل اضاعت كل ما كان معقوداً من الآمال الكبيرة على ذاك الحبر الاثيل الذي تطالت اليه الاعناق يوم ارتقائهِ الى الكرسي البطريركي

ولما طلع صباح الجمعة وانتشر خبر هذه الخسارة الاليمة اخذت اجراس الكنائس تدق دقات الحزن واشتركت الطوائف المسيحية في الحداد وبادر اساقفة الملة فأطاروا منعى رئيسهم الماسوف عليه الى الاستانة فرومية وسائر المقامات العالية وجميع الابرشيات والمدن القاصية التي اتصلت بها شهرته فما لبثت ان وردتهم الاجوبة بلسان البرق مشاركة لهم ولطائفتهم في الاسى واستعظام الخطب ونادبةً فقد بطريرك همام قد طالما تعطرت الاندية بريا محامده ومزاياه

وليس من غرضنا في هذه العجالة ان ندون تاريخ ما اتاه الفقيد الجليل من الاعمال في مدة بطريركيته القصيرة التي نغصتها المنية ولا ان نعدد ما قام به من الاسفار لزيارة بني ملته وتفقد شؤونهم في الانحاء المختلفة ولا ان نذكر ما اسس من الكنائس والمعابد والمدارس حباً بتقوية روح الديانة ونقدم الاكايريكيين والعوام فان هذه الامور كلها ما زال الجميع يتذكرونها نظراً الى حداثة عهدها ولكن غايتنا هنا ان نبسط الكلام خاصةً على المظاهر الحافلة التي دعت اليها وفاة الفقيد فانه ما كاد ينتشر خبرها حتى اهتزت بيروت من كل جوانبها ولا نغالي اذا قلنا ان المدينة كلها ذهبت لتوديع البطريرك الراحل الخ الخ

وقالت « ثمرات الفنون » بتاريخ ٢٨ منهُ ما ملخصهُ

فجعت طائفة الروم الكاثوليك بكبير احبارها ورئيس اساقفتها المأسوف عليه البطريرك بطرس الجريجيري

فاكبرت الطائفة خطبه واحتفلت بمأتمه احتفالاً لم يسبق له نظير

وقد كان الفقيد لين العريكة حسن الاخلاق متضلعاً بعدة لغات صادقاً بخدمته للحكومة السنية وله اياد بيضاء على طائفته فاسس لها مدارس عديدة نهضت بها نهضةً مهمة ولهذا كان الاسف عليه كبيراً اشترك به كل من عرف مزاياه . اه

وقالت جريدة « بيروت » غير الرسمية بالتاريخ نفسه ما ملخصه

نشبت المنون اظفارها بالمأسوف عليه الذائع الصيت البطريرك بطرس الرابع بطريرك الروم الكاثوليك فشق ذلك على كل من عرف حسن صفاته وطيب سريرته وشيعت جنازته بحفل حافل لم يسبق له مثيل في بيروت لان الطرق غصت بالناس فكان اولهم في كنيسة مار الياس واخرهم في الدار البطريركية حيث توفي الفقيد الخ الخ

وقالت مجلة « المشرق » بجزء شهر ايار سنة ١٩٠٢

خطب جلل

نحيل قراءنا الى ما كتبه البشير في عدده الاخير عن الفاجعة العظمى التي اصيبت بها في ليلة الخميس الماضي طائفة الروم الملكيين بفقد كبير احبارهم وفخر ملتهم المثلث الرحمات غبطة البطريرك الجليل بطرس الرابع الجريجيري ولا يسع المشرق الا ان يردد صدا حزن رصيفه . وقد اهدى بهذه النسبة طلبة مدرستنا الكلية من الطائفة الملكية اكليلاً بهياً حملوه امام نعش الفقيد وكان احدهم الاديب ميشال بيطار قد كتب عليه هذه الابيات

نشر الطهارة عند موتك فاحا ... واسير فضلك يوم بعدك ناحا
يا نائياً عنا سبيت قلوبنـا ... فالى سوى ذكراك لن نرتاحا
لاغرو ان مشت الزهور امامنا ... ان الزهور ترافق الارواحا

وقالت مجلة « الرئيس » بجزئها لشهر ايار ١٩٠٢ ما ملخصه

هوى طود بيت المجد وانهدّ ركنه ... وبيت العلى ثُلّت دعامته الكبرى
لذاك على تأبينه الارض والملا ... قد اتفقا ما الدهر ابقى له الذكرى

رزئ الفضل وركنه . والتقى وحبره . والجود وطائيه . والعلم ومشكاته . والوطن ونبراسه . والفضيلة على صنوفها عموماً . ورزئت الطائفة الكاثوليكية خصوصاً بوفاة السيد المفضال والعلامة الجليل شمس الهدى وبحر الحكم السامي الذى والرفيع القدر الهمام النبيل البطريرك بطرس الرابع الجريجيري بعد ان قضى حياته في معارج الارتقاء ونال الحظوة بمقابلة الروساء العظام والملوك وحصل على النياشين والرتب السامية وخدم طائفته ووطنه خدمة الاحبار الامناء . وكان لمنعاه دويٌّ في الافاق وعظم الخطب على آله واخصائه وابناء وطنه الخ الخ الخ

وقالت «النشرة الاسبوعية» بتاريخ ١ ايار سنة ١٩٠٢ ما ملخصه

خسر الوطن والانسانية فرداً كريماً من رجاله ورؤسائه الافاضل وهو بطريرك طائفة الروم الكاثوليك غبطة بطرس الجريجيري . فانه كان تقياً ورعاً مجتهداً غيوراً وجيهاً جداً خالياً من التعصب لغير الحق يحب الالفة المسيحية ويسعى في الوفاق والمحبة بين كل الفرق النصرانية ويرغب في ترقية الوطن الخ

وقالت جريدة «المصباح» بتاريخ ١ ايار سنة ١٩٠٢ ماخلاصته

خطبٌ جسيم

لعمرك ما الرزية فقد مالٍ ولا حصن يدك ولا قصورُ

ولكن الرزية فقد شهمٍ يئن لفقده خلقٌ كثيرُ

اجل ليست الرزية انهدام قصور حسنت لديك . ولا فقد مال يعوضه الله عليك . بل الرزية فقد شهم كان عنوان الكمال . ورجل مقامه مقام الالف عند ما تعد الرجال . رجل كمن فقدنا يشفي الفقراء من ضربات الدهر . بما يفيضه على كلومهم من بلسم الصدقات بل يستدرك خبث نيات القهر . بما يسبق فيعده من مفيد المؤسسات . ونافع المشروعات . رجل لا تمنعه الرئاسة عن العلم . ولا تقعده السياسة عن الحلم . يعزز بتعاليمه الحقيقة ويرفع الى الجوزاء منارها . ويشق بسيف برهانه صدر الاضاليل ويمزق ستارها . يوقف للفضيلة قلباً لم يرَ في سواها جمالاً . ويسحق بتقواه رأس الرذيلة ويذلها اذلالاً . اوَ ليس هو مشيد صرح المعارف اللامع كالنجم . والراسم على جبهته شعار «الفضيلة والعلم» اوَ ليس هو المزدان صدره بالوسامات العالية الشاهانية . اشارة الى ما ضمه ذلك الصدر من خزائن ثمرات الفضل الشهية . اليس هو النائل الحظوى لدى رئاسة الكنيسة الرومانية . لما تجملت به من الفضائل والمحامد نفسه الطاهرة الذكية . همة عالية تناطح في الحق هامة الجوزاء . ونفس

وديعة تترامى للخير لدى اقدام الفقراء · اجل لقد فجعت الكنيسة الجامعة بفقد شهابها الساطع · وملة الروم الكاثوليك ببدرها اللامع · الحبر العالي بين الاحبار · والرئيس المفضال الرفيع المنار · العلامة الكريم · المثلث الرحمة

بطرس الجريجيري

بطريرك الروم الكاثوليك استأثرت بـه رحمة الرحمان فكان لنعاه رنة الم سرت من الاذان الى القلوب · فاعظمت الخطوب كما كان في القلوب دقة حزن سمعتها الاذان · فاثارت الاشجان · وقد اتشحت الكنائس بوشاح الحداد · والبست صروح الفضيلة والعلم البسة السواد · ولا غرو فان الفقيد كان سراج قومه ورجل يومه · يقصر قلمنا العاجز عن ايفائه حقه من الرثاء والتأبين · ويعجز لساننا عن وصف مناقبه المشتهرة بين العالمين الخ الخ

وقالت جريدة « المحبة » بتاريخ ٣ ايار سنة ١٩٠٢ ما ملخصه

فجعت طائفة الروم الكاثوليك برئيس من اعظم رؤسائها وحبر من خيرة احبارها الطيب الذكر المثلث الرحمات السيد بطرس الجريجيري اتم انفاسه المعدودة ليل الخميس الماضي فوقع الخبر كالصاعقة على القلوب وعم الحزن كل الارجاء

مات السيد بطرس الجريجيري مات الحبر النشيط والرئيس الحازم والراعي الوديع والخادم الامين · مات الرجل الذي كان محط امال قومه ومطمح ابصار الناس مات الوطني المخلص والعثماني الصادق والحر الكريم فلا غرو ان عم المصاب فيه وشمل الاسف عليه

وساوى قلوب الناس في الحزن رزوه
كأن صدور الناس في حزنها صدرُ

قضى الفقيد ولم تقضَ بغيته في تحقيق اماله ولم يتم اربه في تتميم ما

شرع به من اعماله . كانت رئاسته على قصر عهدها ميدان جهاد واجتهاد ومظهر حزم يطاول السماك ومجلى همة تناطح السحاب برز بها الى مضمار العمل ونفسه تتقد بالغيرة والنشاط وجسمه يبشر بالعافية وطول الاجل وقلوب رعيته من حوله تلتهب محبة وسروراً وتدعو له بالخير الجزيل والعمر الطويل والامال تبسم له وتحوم عليه ومشاريع الاصلاح تنتظر منه يداً من حديد تضرب على الخلل فتقتلعه من اصوله وتقبض على اعنة الرئاسة فتكبح جماح الاهواء والمطامع وتؤيد اركان النظام وترفع بين الخلق رايات التآلف والسلام ولا يخفى ما دون ذلك من النصب والجهد وشق النفس لان طريق الخير في هذا العالم محفوفة بالمخاوف والمخاطر وسبيل الاصلاح صعب المسلك على من طرقه بهمة كبيرة ونفس متجردة عن المآرب والغايات ولكن الفقيد رحمه الله لم يكن بين هذه العوامل ليلوذ بالتردد والاحجام بل اقدم غير مشفق على صحته ولا مبقٍ على قواه فرزح جسمه تحت عبء نفسه الكبيرة على حد قول الشاعر

واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسامُ

ولم يعتزل ادارة الاعمال وسياسة الرعية الا ليلزم الفراش و يقاسي آلام المرض ويختم رسالته باشرف الاعمال واسماها الا وهو موته شهيد الغيرة والمروءة وتقدمة حياته ضحية الخدمة العمومية والواجبات

وهيهات ان نستطيع في هذا المجال الضيق وصف خلال هذا الحبر الجليل وبسط المآثر التي اتاها في خدمة ملته وذكر ما طبعت عليه نفسه الكريمة من المزايا السامية

والمزية الظاهرة على كل صفاته محبته للالفة والسلام وسعيه لتاليف القلوب وضمها بروابط الاخاء البشري والجامعة القومية ولم يكن يقف في منبر الا يدعو الى التحاب والتعاضد وفي اي مجلس وجد كان موضوع حديثه ذم التعصب والمتعصبين وشجب تعاليمهم وتصرفاتهم وقد اتاح لنا

الحظ اكثر من مرة ان نحضر مجالسه فكنا نسمع من فيه اقوالاً يليق ان تكتب بماء الذهب . فاي الاسف لا يحق على هذا السيد السند والحبر المنادي بالسلام بل كيف لا نستعظم المصيبة فيه ونحن نشعر بحاجة الى امثاله في هذه البلاد واذا بكيناه بالدموع الغزيرة واستوقدنا عليه نيران الصدور فانما نحن نبكي فيه الرجل الحر العفيف والرئيس الطاهر الذيل والراعي الصادق الامين

وكان الناظر اليه لاول وهلة يتوسم فيه مظاهر الكبر والاعجاب ويظن ان تحت ثوبه الحريري صدراً مملوءًا بعظمة الرئاسة وسمو المنصب ولكن ما كان اسرع ما يزول ذلك التأثير عند ما يحضر مجلسه ويقف على معيشته الداخلية فيرى فيه سيداً لم يكن له من السيادة والمجد الاَّ مظاهرهما فقط ولم يكن يستفيد منهما الا لخدمة رعيته ونفع القريب ويعرف في ذلك الخطيب اللسن القابض على اعنة الفصاحة رجلاً بسيطاً في كلامه رقيق العواطف حلو الحديث يلاطف الصغير والكبير ويخاطب كلاًّ على قدر مقامه ومعرفته ولا يجيب في كل الامور الا بنعم نعم او لا لا الخ الخ

جرائد لبنان

قالت جريدة « الروضة » بتاريخ ٢٦ نيسان سنة ١٩٠٢ ما خلاصته

خطبٌ جلل

فجعت طائفة الروم الكاثوليك بفقد رئيس احبارها وتخرم اوطد اركانها المثلث الرحمات والكثير المبرات الماسوف عليه

السيد بطرس الجريجيري

استأثرت به رحمة الله تعالى فاشتد الحزن على فقده وكبر المصاب

على خسارته لما كان رحمة الله على روحه الطاهرة متزيناً به من نبالة القصد وجرأة الجنان ورحابة الصدر واستقامة المنهاج وشرف المبادئ الى غير ذلك من الخلال الكريمة التي يندر اجتماعها في شخص واحد الخ

وقالت جريدة « النصير » بالتاريخ نفسه ما ملخصه

خطبٌ جلل

نعى النعاة للبيعة الكاثوليكية ولسائر الكنائس المسيحية حبرًا عظيماً ورئيساً كبيرًا وركناً ركيناً ومصباحاً منيرًا فكان به الخطبُ اليماً والمصاب عميماً

اجل ان الرزيئة لجسيمة واي رزء اجل من رزء اصيبت به طائفة جمعاء واتصل المهُ بجميع الطوائف ودوى صوته في العالم المعمور فجل وقعه عند القاصي والداني وكبر حتى هان عنده المُ الحزن والجزع فاليوم تندب الطائفة الروم الكاثوليكية رئيس احبارها والملل المسيحية آسفة على خسارة الدين ركناً من اوطد اركانه وبدرًا خانه سماءُ نيسانه نريد به السعيد الذكر والمثلث الرحمات

السيد بطرس الرابع الجريجيري

خبا شهاب حياته الصالحة فعلا الوجوه صفرة الوجل وتساوت عاطفات القلوب في شدة اللهف

توفي فقيد الدين والكنيسة المسيحية ولم ينفعه تقوى وعفة اذيال ودين وعلم ومضاءُ همة وصحة آراء وحنو وانعطاف على ابناء الرعايا ولا دفعت عنه المنون فضائله وفواضله فقضى مبكياً مقل الغمام قبل الاوان

كذاك الكريم الحرّ ليس له عمرُ الخ الخ

وقالت جريدة « لبنان » بتاريخ ٢٨ نيسان سنة ١٩٠٢ ما ملخصهُ

رزءٌ عظيم

فجع الدين وذووه والفضل وبنوه ورزئ العلم وآله والتقى ورجاله

بالمثلث الرحمات الكثير الحسنات الغزير المبرات رجل الاحسان والفضل ومثال الكمال والنبل المغفور له السيد بطرس الجريجيري اثر داء عياء ابي لدوحة الفضل الا تخرما ولصرح الكمال الا تهدما فكان الحزن عميماً والاسف جسيماً لما كان عليه طاب ثراه من جليل المناقب وكريم الخلال فانه كان مشهوراً بسلامة القلب وطهارة الذيل وكرم النفس والميل الى عمل المبرات والخير استقامت قدمه على الصدق فلم تزل وسار على ما فطر عليه من الاستقامة فلم يذل ولم يبدل من صبغة الله شيئاً فارتقى باجماع الكلمة الى ذروة البطريركية متحصناً بمعاقل الصلاح اذ كان مثال الطهارة للصالحين وقدوة الفضل للمتبتلين ذا نفس ملآنة من انوار الهدى لم يشغلها عن حقائق الدين شاغل وكان فوق ذلك ولوعاً بالمصلحة العمومية وقلبه مفعماً من الحكمة والحزم جاعلاً شعاره الاخلاص في الوطنية والصدق في التابعية العثمانية ذا عزم شديد وراي سديد آخذاً على عاتقه كثيراً من الاعمال الخطيرة فرزح تحت اثقالها باذلاً نفسه في سبيل النفع العام

واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسامُ

الخ الخ الخ الخ

وقالت جريدة « الارز » بالتاريخ نفسه ما خلاصته

رُزئت طائفة الروم الكاثوليك الكريمة بفقد كبير احبارها ورائع منارها الكثير المبرّات المثلث الرحمات بطريركها بطرس الجريجيري فاكبرت الطائفة هذا الخطب الجسيم ونال منها الحزن منالاً نكى قلوبها وجرحها وأحرّ اكبادها وقرّحها وساهمها ابناء الطوائف الكاثوليكية أجمع الم المصاب الخ الخ

جرائد القطر المصري

قالت جريدة « الاخلاص » بتاريخ ٢٥ نيسان سنة ١٩٠٢ ما خلاصته

خطب جسيم

مات شهيد المروءة والوفاء وشهيد حفظ الحقوق والواجبات بل مات شهيد العدل والانصاف مات بعد ان عاش في التقوى وكان مثال الغيرة والنشاط مات بعد ان تحمل آلام المرض واوجاع الضنا بالصبر والسكون من كان مرآة الكمال وصاحب الفضل والجلال ركن الدين في الشرق وعماده بل فخر ورئيس الطائفة الرومية الكاثوليكية السيد السند الجليل والحبر الفهامة المفضال المثلث الرحمة كيريوس كيريوس

✵ بطرس الرابع الجريجيري ✵

وكان رحمه الله محباً للفقراء والمساكين مشهوراً بالتقشف والزهد والتجرد عن حب المال جريء الكلام حر الافكار نقي القلب صافي السيرة والسريرة لا يعرف المداهنة ولا المدالسة شديد التمسك بالطهر والعفاف غيوراً تقياً فاضلاً عالماً عاملاً خطيباً واعظاً حكيماً وديعاً باراً كريماً الخ الخ

وقالت « الاهرام » بالتاريخ نفسه ما ملخصه

حمل الينا التلغراف نعي السعيد الذكر الطيب الاثر اب الطائفة الكاثوليكية للروم الملكيين واحد اعمدة النصرانية وقطب من اقطاب الشرق وركن من اركانه البطريرك المطوب بطرس الرابع دعته رحمة ربه الى جنة خلده فذهب بحسناته الطيبات ومبراته الكثيرات تاركاً في دنياه احسن ذكر ومقدماً لاخراه انفس ذخر فاليوم تبكيه طائفة كبيرة كان لها اباً واليوم تبكيه المحامد وكان لها عميداً واليوم تتشح عليه الحداد المدارس ودور العلوم وكان المشيد لدعائمها والموطد لبنيانها مدة ١٨ عاماً

لا يأخذه في الجد كلل ولا يعتريه في فعل المكرمات ملل الى ان هد منه الداء عزماً اذل الصعاب وضعضعت منه العلة حزماً ينبلج عن نور الهدى والصواب واضاع به الموت حبراً كان كالمشكاة وضاءة فانطفأت الخ الخ

وقالت جريدة « المقطم » بالتاريخ نفسه ما خلاصته

طيَّر البرق نعيَّ السعيد الذكر الحبر الجليل بطرس الجريجيري بطريرك الروم الكاثوليك . انتقل الى دار البقاء في مدينة بيروت وكان رحمه الله عالي الهمة واسع الصدر مغيثاً لمن يلجأُ اليهِ بلا استثناء ولا تمييز بين ملة وملة الخ الخ

وقالت جريدة « المصوّر » ما ملخصه

الى رحمة الله

نعى الى القرّاء بل الى التقى والصلاح اميراً من امراء الدين كان للبرّ فاعلاً وللنقير محباً عن الشرّ ناهياً وفي حقل الرب مجاهداً . نعى الى العلم والحجى نوراً من انوار الكنيسة كان مبعثاً لاضواء الارشاد ومصدراً لاشعة الرشاد . والى المكارم والفضل سيداً في الملمات لم يكن محجماً وفي الشدائد لم يكن نسياً . والى الهياكل ورعاً وقوراً تقياً . والى المنابر واعظاً لم يكن عيياً . والى الطهر والعفاف من عاش ولم يدنس له عرض وقضى ولم تلحق بـه وصمة عار . نعى السيد العالم والحبر الكبير العامل صاحب الغبطة بطرس الرابع انتقل الى رحمة ربه فانطفأت بوفاته شعلة ذكاءٍ كانت متقدة وفقد الشرق بموته رسول سلام كان وراء كل وفاق جارياً واضاعت المدارس ساعداً الى تشييدها ممتداً الخ الخ

وقالت جريدة « المؤيد » بتاريخ ٢٦ منه ما خلاصته

نعت اخبار بيروت الطيب الذكر غبطة بطرس الجريجيري بطريرك الروم الكاثوليك وكان من اصحاب العزيمة الماضية في العمل ومن العاملين لترقية ابناء طائفته ولما انتخب بطريركاً لها فرحت به اشد الفرح

واكن ما لبث ان مرض بداءٍ عياءٍ نفدت حيل الاطباء دون شفائه الخ الخ

وقالت «المحروسة» بتاريخ ٣٠ نيسان سنة ١٩٠٢ ما ملخصه

فجعت الطائفة الكاثوليكية للروم الملكيين بفقد ابيها المفضال الجليل وراعيها العامل النبيل الطيب الذكر والخالد الاثر السيد بطرس الرابع ولقد كان الخطب على طائفته جسيماً والحزن على فقده عميماً فبكته محامده الكثيرة وقامت ترثيه حسناته ومبراته الوفيرة واتشحت عليه دور العلوم والمعارف المشيد لبنيانها اثواب الحداد واظلمت لانطفاء نور فضله سماء الفضائل والكمالات التي كان لها اكبر ركن وخير عماد وصفوة القول ان لهذا الفقيد المثلث الرحمة من جليل المآثر في مدة السنين الاربع التي قضاها في منصب البطريركية السامي ما يخلد له احسن ذكر يجب تدوينه على صفحات التاريخ بمداد الفخر والشكر فضلاً عما اتاه من عديد الاعمال الجليلة في خلال الستين عاماً مما استمال القلوب الى حبه وزاد في اعتباره ورفعة مكانته لدى جميع الطوائف على السواء الخ الخ

وقالت مجلة «الضياء» بتاريخ ٣٠ نيسان ١٩٠٢ ما نصهُ

البطريرك بطرس الرابع

في الرابع والعشرين من هذا الشهر رُزئت طائفة الروم الكاثوليك بل رُزئ الوطن السوريّ والمصريّ بفقد الحبر الكبير والعلم الشهير المثلث الرحمات السيد بطرس الجريجيري بطريرك انطاكية والاسكندرية واورشليم توفاه الله اليه في مدينة بيروت غبّ مرض طالت ايامه وبرَّحت آلامه فكان فقده رزءًا صدع به مفرق الانسانية وثلم ركن الوطنية وهيض جناح العلوم والآداب وتلجلج لسان الفصاحة والخطاب فلا بدع اذا اتخذت اسفاً عليه اعواد المنابر وخضبت وجوه الصحف بدموع المحابر وعدَّ فقدهُ خلةً في الوطن لا تسدّ ورُزءًا بواحد لا تغني عنه كثرة العدد فرحمهُ الله رحمةً تكافئُ جزيل احسانه وأفاءَ عليه ظلال غفرانه

ورضوانهُ

اما ترجمتهُ فقد وُلد رحمهُ الله في مدينة زحلة من جبل لبنان وبها نشأ وتأدب ولما بلغ الحادية والعشرين من عمره انتظم في سلك الاكليريكية وتقلب بعد ذلك في خدمة الدين والعلم فقضى صدراً من ايامه في المدارس الكبرى ما بين تهذيب وارشاد ثم سافر الى اوربا فأتم دروسه الدينية والفلسفية في مدرسة بلوا من فرنسا وعاد بعد ذلك الى سوريا فأنشأ فيها عدة مدارس في نواحي زحلة وما يتبعها من بلاد البقاع وفي سنة ١٨٨٦ قُلد مطرانية بانياس فلبث فيها اثنتي عشرة سنة حسنت فيها آثارهُ وبنى فيها كنيسة فخيمة على اسم القديس بطرس وأنشأ كثيراً من المدارس وكانت جملة ما أنشأهُ فيها وفي نواحي زحلة تزيد على اربعين مدرسة للذكور والاناث منها المدرسة الاسقفية في زحلة وثلاث مدارس كبيرة في حاصبيا وراشيا والجديدة ومدرسة زراعية للايتام في مرج عيون عزّزها بالاوقاف وهي لا تزال عامرةً الى اليوم. وفي سنة ١٨٩٨ وقع عليه الانتخاب لتولي المقام البطريركي فنهض باعباء هذا المنصب الخطير اتم نهوض وكان اول ما شرع فيه تاسيس كنيسة في القاهرة ومدرسة في طنطا وكان ينوي ان ينشئ مدرسة في القاهرة كالمدرسة البطريركية في بيروت فعاجلهُ امر الله دون ما نوى وبقيت تلك العزائم من ودائع القدر الى ان يقيض الله له خلفاً يضطلع بتلك الاعمال وينعش من بعده عاثر الآمال

وكان رحمه الله رجلاً جسوراً عالي الهمة رحيب الصدر بصيراً بسياسة العصر قيماً على مصالح الرعية وكان من مصاقع الخطباء حاد الذهن فياض القريحة بليل المنطق ولهُ الخطب الرنانة في بعض كنائس فرنسا وغيرها على رؤوس الآلاف من كبرائها واعيانها. ومما انفرد به واستحق لاجله جميل الذكر وطيب الثناء انه كان اول رئيس ديني في هذه

البلاد خطب في الحض على نبذ التعصب والدعوة الى التقرب واجتماع الكلمة فادنى بين القلوب المتباعدة والَّف بين النفوس المتنافرة وازال كثيراً من ذلك الصدى القديم ولو طالت مدته لقلع معظم تلك الجراثيم من البلاد ونفخ فيها روحاً جديداً

وعلى الجملة فقد فقدت به البلاد ركناً من اعظم اركان الانسانية وداعياً من اكبر دعاة الاصلاح ولما كان تأبينه فرضاً على كل من عرف منزلته ورثاؤهُ ديناً على من قدر الرزء فيه قدره لم نجد بدًّا من حمل القريحة الخامدة على وفآء هذه الذمة فاملت الابيات الآتية نثبتها في هذا الموضع وان كانت دون ما يستحقهُ رحمهُ الله وجزاهُ افضل ما جزى به المحسنين

خاننا فيك حادث الايامِ فاحتكمنا الى الدموع السجامِ
تلك اوفى في النازلات وان لم تكُ اشفى للوعةٍ وأُوامِ
وقليلٌ من بعد مصرعك الدمع ولو سال من جفون الغمام
ولعمري ليس البكآء بغنٍ من فوات قد عُدَّ في الاحلام
انما تلك سنةٌ للباقي سنها العجز في الخطوب العظام
جلَّ خطبٌ نفرُّ منه لخطب وسقامٌ نطبُّهُ بسقام
قدر انفع السلاحين فيه ال صبرُ واليأسُ غاية الاقدام
ان للدهر في الحوادث شأناً غير شان البكآء والابتسام
والشقا فيه والسعادة من احوا ل هذي النفوس والاجسام
والردى كالوجود ما فيه للمر ء اختيار ولم يكن عن مرام
يولد المرء للحياة اضطراراً واضطراراً يذوق كأس الحمام
ايها الراحل الحثيث رويداً واصحبنَّا ولو ببعض كلام
وامنح العين نظرةً من وداعٍ لك ديهات بعده من سلام
ويح ناعيك وهو اهول نعيٍ كيف اجرى لسانه بالضرام

نبأٌ برقع الضحى بظلامٍ ونفى في الظلام طيب المنامِ
لم يك الشرق فيه ادرى من الغر ب بزلزال رجفة واهتزامِ
لا ولا مصر والعراق بادنى لوعةً من صدور اهل الشآم
مأتمٌ باتت الفضائل فيه باكيات بادمع الايتام
ونواحٌ بين المنابر والحشد وبين الطروس والاقلام
يا لك الخير والمراحم من ابقيت فينا للحادثات الجسام
والى من عهدت في الحزم والعز م ونقض الامور والابرام
كنت ركناً لنا فلما تداعى آذن العزُّ والعلى بانهدام
غيرة مثلها اللهيب وعزمٌ دونه في المضاء حدُّ الحسام
قارعتك الخطوب دهراً فما وليت الا وغربها في انثلام
ان هذا المصاب اول خطب فيه اسلمتنا الى الايام
نتوخى عنك اصطباراً فيغدو ال صبر ماءً من المحاجر هامي
ونروم العزاء عنك فتبدو الف ذكرى تأتي بالف ذمام
ليت شعري ما يرتجي المرء في دنيا هُ ما بين صبحه والظلام
خالط الموت منذ كان دماهُ وثوى بين لحمه والعظام
نحن في دار قُلعة ليس فيها من دوام ولا لها من دوام
اهل ففر تناوبته رياح ال بين في ظل خيمة من ثمام
بل طريق نجوزها فتخيَّرْ لك منها زاداً لدار المقام
فهي ان شئتها طريق بوارٍ وهي ان شئتها طريق سلامِ

وقالت مجلة « الهلال » في ١ ايار سنة ١٩٠٢

أُصيبت الطائفة الكاثوليكية بفقد حبر من احبارها العظام السيد بطرس الرابع الجريجيري بطريركها الشهير ونحن لم نكد نفرغ من تهنئتها به لما كنا نتوسمه من علو همته واقدامه ورغبته في التآلف والتعاضد بين سائر الطوائف المسيحية فان فقده خسارة أُلمت بالعالم المسيحي بوجه الاجمال

وقالت مجلة « المقتطف » بعددها لشهر ايار سنة ١٩٠٢ ما خلاصته

اذا ذُكر رجال المشرق الذين ارتقوا بجدّهم حتى بلغوا اعلى منصب بين اقرانهم ووصلوا اليه بالانتخاب لا بالصنيعة وافادوا ابناء وطنهم قبل وصولهم اليه وبعده فغبطة البطريرك بطرس الجريجيري في مقدمتهم . وقد عرفناه قساً ومطراناً وبطريركاً ولنا معه احاديث مستفيضة لم يخرج فيها عن مصلحة طائفته كأَن لا غرض له من الحياة سواها « وهنا سيرة حياتهِ » وقد أَجمع الاهلون على حبه واكرامه من ابناء طائفته ومن غيرها وسمعنا قسوس الروم والبروتستانت يعجبون بهمتهِ ويثنون على تقواه . وزار باريس سنة ١٩٠٠ والتقينا بغبطتهِ هناك وكأَنَّ الحكومة الفرنسوية كانت عازمة ان تمنع مساعدتها المالية من الطائفة الكاثوليكية وهو يسعى في اقناعها بالعدول عن ذلك . وكان يود التقرب من رجال انكلترا خدمةً لابناء طائفتهِ في هذا القطر ولو فسح الله له في الاجل لجنت مصر والشام من ثمار اتعابهِ أَضعاف ماجنت . وكان يرمي الى غرض نبيل كاشفنا به وهو مطران ثمَّ جاهر بهِ مراراً بعد ارتقائهِ الى كرسي البطريركية وهو ان يعيد الاتحاد بين الروم الشرقيين والغربيين الخ الخ . وسيبقى مذكوراً بما انشأَهُ من المدارس والكنائس وبسعيهِ المتواصل في خير ابناء طائفتهِ

وقالت مجلة « الثريَّا » بعددها لشهر ايار سنة ١٩٠٢ ما خلاصته

" رزءٌ جسيم "

لقد هوى من افق المجد والمكرمات نجم لامع وكوكب ساطع وتصدَّع ركن من اركان العلم والمعارف . وخسرت الطائفة الكاثوليكية اليوم راعياً صالحاً واماماً كاملاً وخطيباً لسناً نريد به غبطة السيد الجليل والحبر العلامة النبيل صاحب الفضائل والفواضل ورجل المعارف والعوارف

رافع منار الفضيلة وموطد دعائمها السعيد الذكر البطريرك بطرس الجريجيري . وخسرت راعيها الامين وفقدت بفقده هادياً تهدى برأيه الصائب عند اشتداد المحن وسنداً تعتمد عليه عند تفاقم الخطوب فالرزء جسيم والخطب جلل يقل في جنبه الرثآء والبكآء

يشقّ على قلبي رثاءُ اخطهُ له ودموعي اوشكت تذهبُ الحبرا
وتوشكُ ان تصلى الصحيفة في يدي فتحرَق من تصعيد انفاسي الحرّى

ويتلو ذلك شرح مطوّل والترجمة ثمَّ بعض ابيات من مرثاة لناظمها سليم افندي سالم وهي هذه

هيكل الطهر في الجنائز سائرْ فقفوا خشعاً وغضوا النواظرْ
هيبة من علا سناءَ هيولا هُ تمشت على رؤوس الاكابرْ
أثقلتهم عن المسير فما تنقل أقدامهم ولا بزواجرْ
ثمَّ خفت بدمعٍ هتك الصبرَ وهزَّ الوقارَ وهو المكابرْ
فمشى الناس والهدى بسناهُ فاذا هم يمشون فوق العناصرْ
حيثما أُودعت رفات الجريجيري عالٍ مقامهُ في البصائرْ

وقالت في موضع آخر ما خلاصتهُ

كان شديد الصرامة على الكهنة والاكليروس وقد ساءه تغيب بعضهم عن الدار البطريركية لعلل واهية فاصدر امراً صارماً يمنع خروجهم لزيارة الطائفة منفردين وان يزوروا الاغنيآء والفقرآء على حدٍ سوى وحظر عليهم الاكل خارج الدار الاَّ في احوال نادرة باذن خصوصي ولعلَّ هذا مما ولَّد له البغضآء في قلوب بعض كهنتنا الاجلآء ..

وقالت جريدة «الاخبار» بتاريخ ١ ايار سنة ١٩٠٢ ما ملخصهُ

البطريرك بطرس الرابع

مات هذا الرجل الجليل فبكته ملته وتقوّض به ركن من اركان الكنيسة ولكن ذكره سيبقى حياً شريفاً بمآثره الطيبة وآثار اعماله الصادرة

عن همة واقدام اصاب بهما استحسان العموم في عهد الاسقفية ولم ينكرهما عليه الذين لم يروا رايه في جميع ما اتاه لعهد البطريركية

ولم تكن الصفات التي امتاز بها الفقيد سعة العلم او كثرة التأليف بل نهضته الوطنية ومناداته بائتلاف الشعوب وجراءته في المواقف الخطيرة مما ظهر في اجلى بيان اثناء اسقفيته فضلاً عن الاعمال الجليلة التي اتى بها في تلك المدة · والحق ان الطوائف الشرقية محتاجة في هذه الايام الى أئمة يتحلون بهذه الصفات ولاشك انه لو اطال الله بعمره وسهل له العقبات لكنا راينا منه خير ما يتوقعه الشعب من رئيس تميزه امثال الصفات المذكورة

ومما ارغب استلفات الانظار اليه ان الطوائف المسيحية اخذت تهمل حقها في مراقبة انتخاب بطاركتها ووكلت الامر الى الاساقفة وكثيراً ما انفرد الاساقفة بالرأي فانتخبوا رئيسهم مراعين او غير مراعين اميال الملة

على ان انتخاب الجريجيري قد نبه طائفة الروم الكاثوليك الى حقها فتمسكت به بالرغم عما اعترضها من العقبات والمصاعب ولم ترجع الاّ ظافرة غانمة · فانتخب الجريجيري بصوت الشعب وهو الانتخاب الوحيد الذي نذكره على هذه الكيفية في ايامنا ولا شك ان الشعب لم يكن مدفوعاً الا بما رآه من اعمال غبطته السابقة في ابرشية بانياس حيث بنى المعابد وشيد المياتم وأنشأ المدارس ولم يشأ ان يترك لغيره الاجر في الكرز والتبشير واظهر ان الاكليروس الشرقي ليس دون الاكليروس الغربي في المقدرة على اعمال الخير واجتناء ثمراته في الحاضرة والآخرة الخ الخ

وقالت جريدة « الرائد المصري » بتاريخ ٢ ايار سنة ١٩٠٢ ما ملخصه

البطريرك بطرس الجريجيري

نحن في مقام اسف ورثاءٍ لا في مقام انتقاد وانتقام ولهذا نضرب صفحاً عن البحث في الاسباب التي اودت بحياة هذا الحبر الجليل والزعيم النشيط تاركين الانتقام من الذين كانوا سبب هذه الفاجعة الى الحاكم

العادل الذي قال « لي النقمة وانا اجازي » اما الذين افرحهم موته فليعمروا الى الابد ان استطاعوا والاَّ فليبكوا فساد اخلاقهم وسوء نياتهم الخ الخ

وورد في جريدة " الفلاح " بعددها المؤرَّخ في ٢ ايار سنة ١٩٠٢ رسالة لمكاتبها الاسكندري منها قوله

انتقل الى الحياة العليا السعيد الذكر البطريرك بطرس الجريجيري بطريرك الروم الكاثوليك تاركاً لابناء طائفته من اثاره ما يخلده له التاريخ بمداد المجد والحمد ومن روح المحبة للامم على اختلافهم في الملل والنحل ما يذكر فيشكر حيث كان (رحمه الله) محباً للمسالمة كما كانت اقواله وافعاله منصرفة في سبيل الخير والمعروف فحزن عليه الجميع وشق مصابه على الرفيع والوضيع الخ الخ

ونشرت جريدة « الرقيب » بعدد ٣ ايار سنة ٩٠٢ : رسالة لاحد الافاضل البيروتيين قال فيها ما ملخصه

اليوم يتسابق مراسلو الجرائد في ميدان الكتابة بنشر الفصول الطويلة العريضة عن مأتم غبطة المرحوم بطرس الرابع بطريرك الروم الملكيين على انهم هيهات ان يتمكنوا من الاحاطة بهيئة الحفلة وان يلموا بوصف ذاك الماتم العظيم الذي لم تره بيروت منذ اجيال مهما حلا لهم التعليل لان اللسان عاجز والقلم قاصر عن الالمام بشرح هيئته ونشر تفاصيل تلك الحفلة النادرة المثال التي خشعت لها القلوب وارتجفت لهولها المناكب واما التاثير فكان عظيماً وشاملاً الجميع لان غبطته لم يعش كثيراً فقد مات غير متمم ما كان ينويه لا سيما وانه عوكس في ايام رئاسته من بعض اخصائه مما سبب له تلك العلة الدماغية التي قضت بافول بدره قبل اوانه الخ الخ

وقالت جريدة « الرأي العام »

فقد الشرق حبرًا من اعظم انصار الفضل فيهِ ورئيساً يقل نظيرهُ بين رؤساء الدين هو المرحوم بطرس الرابع بطريرك الروم الكاثوليك . لو كان بطاركة الشرق كلهم مثلهُ لما كان الشرق دون الغرب في شيء من لوازم التقدم والارتقاء . ولقد كان هذا الحبر الكبير جسورًا في قول الحق حرًّا لا تخرجه القيود القديمة واوهام الذين صغرت عقولهم من الناس عن اعلان الحقيقة على انقى اشكالها ميالاً الى الاصلاح محباً للناس بلا تعصب مثل الذي اشتهر عن كثير من رؤساء الطوائف . واني سمعته يلقي المواعظ التي لم اسمع مثلها من زعيم ديني قبلهُ فكانت اقواله كلها حكماً ودررًا يجب ان تسطر بماء الذهب وتجعل شعار اهل العقل والفضيلة في كل زمان ومكان لانه رحمهُ الله علّم الناس غير الذي تعودوا سمعهُ من المنابر وحضهم على خدمة الانسانية واعتبار الغير اخوانًا مرتبطين برباط الانسانية وشدد عليهم بالابتعاد عن التعصب المذموم وحذرهم من خطأ القول الذي زرعه في عقولهم جهلة القسيسين والرهبان عن هلاك بني آدم جميعهم في النار ما خلا اهل فئة واحدة ونشر كثيرًا غير هذا من مبادئ الحق والفضيلة وفعل فعال الرجال في اصلاح ما امكن اصلاحهُ مدة رئاستهِ القصيرة فلا عجب اذا عدت الطائفة الكاثوليكية فقدهُ خسارة لا تعوض ومصابًا كبيرًا والله يهدي اساقفتها الكرام الى انتخاب بطريرك يخلف بطرس الرابع وينسج على منواله في حرية الضمير وفي حب الحق والنفع العام والفضيلة والميل الخالص الى خدمة طائفتهِ والانسانية عامة ويكثر من امثاله في جميع الطوائف . اه

وقالت « المجلة المصرية » بتاريخ ١٥ ايار سنة ١٩٠٢

بطرس الرابع

(بطريرك طائفة الروم الكاثوليك)

توفي الى رحمة الله في الرابع والعشرين من الشهر الماضي بعد مرض مات به اياماً وهو حي قبل ان يدركه الاجل فكان كالشمس في الزوال ترى العين حيناً رسمها وتظنه جرمها ثم يمحي الرسم والجرم

وُلد في زحلة بلبنان وفي الحادية والعشرين من عمرهِ دخل في خدمة الدين فعلَّم وتعلم ثم اتمَّ دروسه في مدرسة بلوا بفرنسا وعاد منها بعد ذلك الى زحلة فانشأ مدرسة تلقينا فيها على يده مبادىء العلم وكانت في اول امرها كتَّاباً فلم يلبث ان جعلها من المدارس الكبرى بما كان عليه من الجد والحزم وانشأ في البقاع التابعة لزحلة مدارس اخرى ولما قلد اسقفية بانياس التي احدثت في سنة ١٨٨٦ شيد فيها كنيسة كبيرة ومدارس كثيرة منها مدرسة زراعية في مرج عيون للايتام . وقد رأت الطائفة آثاره هذه فحملت مطارنتها مرغماً اكثرهم على انتخابه بطريركاً فتم لها ذلك سنة ١٨٩٨

غير ان الاساقفة خافوا صولته لانه على ما كان يؤاخذ عليه من الاستبداد كان رجلاً كبيراً فعالاً عدواً للتقاليد الفارغة فاخذوا يناصبونه العداء سراً ويكاتبون المقامات العالية سعاية فيه وجعلوا يعرقلون مساعيه فلم يقوَ جسمه التعِب على النهوض بما حملوه من الاعباء وتدفقت المرارة من قلبه حتى غرق بها دماغه فمات شهيداً

بقي ان نذكر ما كانت منوياته التي بدأ بتحقيقها على مرأى ومسمع من الجمهور ليعلم ابناء الطائفة وسائر المسيحيين في الشرق اي ركن نقدوا واي سند خلا من بين ايديهم فاما من وجه عام فكان جل ما ينويه ان

يجمع كلمة الملل النصرانية المختلفة على ما تقتضيه مصلحتهم الكلية وهي تعزيز دينهم الشامل بقطع النظر عن تنوع الرأي في بعض فروعه ومعلوم ما لهذه الجامعة من الفوائد التي لا يدرك قيمتها الا الحكيم الواسع العقل البعيد عن التعصب البليد المؤذي . واما من وجه خاص فانه كان يرمي الى ثلاث غايات كبيرة اولاها ان يرقب حساب الابرشيات ويرتب نفقاتها على اعتدال بحيث ينفق ما يزيد من دخلها عن خرجها في سبل البر بالطائفة سواءٌ من حيث تعميم المعارف او تشييد المستشفيات او تأسيس المعامل الصغيرة التي تخرج من ابناء السوقة والاوساط صناعاً ماهرين مفتوحة في وجوههم ابواب الارزاق وثانيتها ان يفعل مثل ذلك بما يفيض من اموال الاديرة عما ينفق منها في الوجوه التي ارصدت لها الاوقاف وثالثتها تشييد مدرسة كلية في القاهرة تكون منارة بين المدارس الاخر كما هي المدرسة البطريركية في بيروت

وكانت له عزائم اخرى نافعة لا نذكرها اذ انه لم يتسنَّ له الشروع في شيء منها

هذا هو الرجل الذي رُزئ به الوطن وقد فقد بفقده عالماً عاملاً وخطيباً بارعاً ومقداماً هماماً فضلاً عن التقوى المتناهية والصلاح الاكمل

فنحن نبكيه ونستمطر عليه رحمات الله الذي اكرم سلامة نيته وطهارة نفسه عن دسائس هذه الارض ومفاسدها الخ الخ

ونطقت بمثل ذلك سائر الصحف المصرية كالنصير والعمران والاتحاد المصري واللواء وغيرها من الجرائد العربية . وكايرون اليونانية . وامبرسيالي الايطالية . واجبشيان غازيت الانكليزية . وفارد الكسندري وبروكره وريفورم وبورص اجبسيان وغيرها من الجرائد الفرنسوية . وقالت بعضها في عرض الرثاء ان الفقيد وجد في غير عصره ولذلك فان العصر الحاضر لم يستحقهُ . ونقلت جريدة «الاخلاص» بعددها ٢٠٤ كلاماً كتب به اليها

بعض افاضل المصريين المسلمين قال فيه « لم تفقدوا وحدكم هذا الرجل الجليل بل فقدهُ مثلكم جميع المسيحيين والمسلمين لانه كان أباً للجميع رؤوفاً ومحباً للوفاق والسلام » . انتهى

جرائد

الولايات المتحدة الاميركية

قالت جريدة « المحيط » بتاريخ ١٥ ايار سنة ١٩٠٢ ما ملخصهُ

صدى الزفرات

اليوم مات نظام الفضل واللسنِ ومات من كان يستعدي على الزمنِ
واظلمت سبل الاداب واحتجبت شمس المكارم في غيم من الكفنِ

هي المنون تدور رحاها على هام بني الانسان . في كل اين وآن . فتصرع الكبير والصغير . والغني والفقير . والملك والوزير

اين من سادوا وشادوا وبنوا ذهب الكل فلم تغنِ القلل

والآن اين فقيد الامة والوطن . اين رب المدارك والفطن . بطرس الرابع . . . مثال التقى والفضل . وعنوان الكرامة والنبل . الذي عاش منظوراً اليه . ومات واحرّ قلباهُ مأسوفاً عليه . الشهم الذي طبق صيته الخافقين . وملا ذكره البرين والبحرين

جبل هوى لو خرَّ بالبحر اغتدى من وقعه متتابع الازبادِ
ما كنت اعلم قبل دفنك في الثرى ان الثرى يعلو على الاطوادِ

بطرس الرابع من عرف بالسماحة والاريحية . وفرط الغيرة وصدق الوطنية . فصرف قسماً كبيراً من الزمن . في خدمة الامة والوطن

خدم البلاد وليس اشرف عندهُ من ان يسمى خادماً لبلادهِ
ولهُ الايادي البيض والغرر التي حاكت لفاعلها بياض فؤادهِ

من كان يرحم الشاكي · ويرثي لعبرة الباكي · يعول الفقير · ويجبر القلب الكسير · يشاطر الحزين احزانهُ · ويقاسم الاسيف اشجانهُ · ياوي الغريب · ويعزي الكئيب · ينشئ المدارس · ويبتني الاديار والكنائس · يدبر شعبهُ بفكر ثاقب · وراي صائب · يسعى في سبيل الاصلاح · متفانياً في حلبة الجهاد والكفاح · ياتي الصلات والمبرات · ويحيد عن الكبائر والمنكرات · حرّ الشمائل عفّ الازار · كثير الفضائل جزيل الوقار · زاهد في زخارف الدنيا الغرور · صبور على مضض الحياة ويالهُ من صبور · جنوح الى الالفة والوئام · محب للخير والسلام · اذا تكلم اوجز · وان وعد انجز · ففقدهُ بلا ريب نازلة عظيمة · وخسارة جسيمة

بعداً ليومك في الزمان فانهُ   اقذى العيون وفتّ في الاعضادِ
لا ينفدُ الدمع الذي يبكى بهِ   ان القلوب لهُ من الامدادِ

تبكيك دمشق ايها السيد الكريم · وترثيك بيروت ولبنان ايها الهمام العظيم · تندبك زحلة مسقط راسك · ومصدر اول انفاسك · يبكيك ايتام مدرستك ويلطمون الخدود · ويودون عودك اليهم وهيهات ان تعود · وتلامذة مدارسك الاسقفية · في الابرشية الزحلية · الذين هيأْت منهم رجالاً بحبل الله معتصمين · ولابناءِ جنسهم نافعين · يبكيك جميع ابناءِ الكرسي يا اباهم الغيور · وعضدهم المشهور · نبكيك جميعاً ونرثيك وقد آلينا على انفسنا الاَّ ننسى اياديك البيضاءَ · الى ان تجمعنا واياك افراح السماءِ · وفي الختام · نسوق الى ضريحك الشريف اذكى التحيات والسلام ·

سلام على قبرٍ توسد تربهُ   كريم عليهِ ما حييتُ اسلمُ

(وهنا الترجمة مطولة) ثمَّ نشرت الابيات الاتية لناظمها صاحب الجريدة منصور افندي حنا الحداد وهي

رثـآء

أَطلتَ الجدَّ في طلب العلآءِ ... كثيرًا فانتهيت الى السمآءِ
ولم تحفل بهذي الارض طرًّا ... لما لاقيت من مضض العدآءِ
فطرتَ على السماحة بين قومٍ ... تمادوا في القطيعة والجفآءِ
وظلماً ابغضوك لغير ذنبٍ ... جنيت سوى المحبة والولآءِ
ووددتَ الخير للاعدآء دينـاً ... بلا خوف الوعيد ولا عيآءِ
غفرتَ ذنوبهم وعفوت عنهم ... وقابلت الكدارة بالصفآءِ
فزادوا في الكراهة كلَّ يومٍ ... وسأْمًا قد منيت بشر دآءِ
برحت حياتك الدنيا شهيداً ... سبيل الحق سار بلا التوآءِ
هجرت الارض يا مغبوطُ لمَّا ... علمت بانهـا دار الشقآءِ
واورثت المـلا حزنًا ويأْسًا ... بلا املٍ يتاح ولا رجآءِ

وقالت جريدة «الصخرة» بالتاريخ نفسه ما ملخصهُ

استأْثرت رحمة الله في مدينة بيروت برئيس احبار طائفة الروم الكاثوليك المثلث الرحمات والكثير المبرات المأْسوف عليه

السيد بطرس الجريجيري

فكان موتهُ من اشد النوازل على طائفته لانه كان رحمهُ الله ركناً من اوطد اركانها وبلبلاً على اغصانها فلا غروَ بان يكون قد كبر على ابنائهِ هذا المصاب الذي تشاركهم بهِ الكنيسة الكاثوليكية باسرها وبقية الطوائف والامم نظرًا لسمو منزلة الفقيد عند كل عارفيهِ الخ الخ

ثم قالت في خلال ترجمة الفقيد

بذل جهده في ترقية شؤُون الطائفة واصلاح ما كان مختلاً من شؤُونها الى ان فاجأَهُ المرض الاخير على اثر الكدّ والجدّ ... ونرجو ان يلهم الله اساقفتها الاجلاء لانتخاب خلفٍ لهُ يكون وصياً على مشروعاته الخطيرة كافلاً لمساعيه الخيرية الكثيرة الخ

وقالت جريدة «كوكب اميركا» بالعدد ١١٢١ ما ملخصهُ

مصاب جسيم

الموت نقاد على كفه   جواهر يختار منها الجياد

لقد فقد الدين ورجالهُ رئيساً خطيرًا والعلم وذووهُ عالمًا كبيرًا وفجع الفضل والهُ بمفضال كريم والوطنية وبنوها بعاضد عظيم . مصيبة نزلت على القلوب نزول الصواعق فتفتتت لوقعها الاكباد وتفطرت المرائر فاسالت الدموع دماءً من المحاجر

اجل ان هذا الخطب جلل والفقيد جليل فلو جئنا نرثيه ونعدد حسناته لجفت المحابر ولم نفِ منها الا القليل كيف لا والفقيد العزيز هو العالم العلامة والحبر الفهامة رجل الفضل والاحسان ودرّة هذا الزمان المثلث الرحمات السيد الكامل بطرس الجريجيري بطريرك الروم الكاثوليك . فقد لفظ روحه الشريفة عن واحد وستين عاماً قضاها عاملاً نشيطاً في خدمة الكنيسة وترقي شان ابنائها جادًّا مجتهدًا لخلاص نفوس خراف حظيرته بامانة وحكمة باذلاً جهدهُ في عمل البر والخير فما سرى نعيه حتى اصبح الحزن عليه عميماً والاسف عظيماً نظرًا لما فطر عليه الفقيد من الخلال الحميدة الخ

ورسمت جريدة «مرآة الغرب» بالعدد ٢٥٥ ثلثة رسوم للفقيد

الرسم الاول وهو على كرسيه في المصلى تطوقهُ الازهار وفوق الرسم هذا البيت :

أَجاس الموتُ من ظهره ما   حدَّبتهُ الهموم والاثقالُ

والرسم الثاني وهو محمول على ايدي الكهنة من داره الى المركبة وفوق الرسم هذا البيت :

أَحاطوا به ميتاً وصلوا لاجله   وكم خالفوهُ في مصالحه حيًّا

والرسم الثالث وهو على عرشه في مركبة الموتى المذهبة وفوق الرسم

هذا البيت :

خرجوا به ولكل باكٍ خلفهُ صعقات موسى يوم دُكَّ الطورُ

ونشرت بهذا العدد ما تحصلهُ مع بعض تصرف قالت

شهادة غريب في شهيد الاصلاح

مما نسطرهُ بالاعجاب والمسرة ونثبته على صفحات هذه الجريدة بالافتخار هو شهادة رجل اميركي بالمثلث الرحمات بطرس الرابع وهذا الرجل هو المستر لويز غاستون ليري الموجود حالاً في بيروت فانهُ شهد المأتم العظيم الذي اقيم فيها لفقيد الوطن السوري وصوَّرهُ على ثلاث هيئات اثبتناها في هذه الصحيفة وبعث الى احدى جرائد هذه البلاد بمقالة طويلة نذكر منها ما يأتي :

« انتخب بطرس الرابع بطريركاً باسم الشعب وللشعب فان الطائفة الكاثوليكية بعثت الى مطارنتها المجتمعين في صربا يومئذٍ بانهم إن لم ينتخبوه بطريركاً عليهم فلا حاجة بهم للرجوع الى مطرانياتهم وهكذا انتخب ذلك الرجل العظيم رئيساً دينياً للطائفة التي احبتهُ وقد بقي اميناً على رعيتهِ مخلصاً في وطنيتهِ ومحققاً لآمال الشعب به الى ان توفاهُ الله . ومع انهُ كان ذا نفوذ عظيم في دائرتي الكنيسة والسياسة فلم يستعمل نفوذهُ لتحصيل المال له ولانسبائه ولذلك فقد مات فقيراً طاهر الثوب وظل محافظاً على عواطفه الشريفة ونزاهتهِ الى النهاية . ولهذا القول من الاهمية معنى فوق ما يفهم الاميركان منه لان الوظائف في الشرق وسائط للثراء من اموال الناس ولم يسمع ان كاهناً مات من قبلُ فقيراً . اما بطرس الرابع فقد بلغ من فقرهِ انه لم يترك لاخيهِ ما يكفيهِ لابتياع بدلة جديدة من الثياب ليحضر فيها جنازتهُ ولو لم يجمع له المال الكافي لسدّ تلك الحاجة لما قدر على حضور جنازة اخيه النزيه . وفوق كل هذا فبطرس الرابع كان حرّ الضمير متساهلاً مع غير ابناء ملتهِ ومما يذكر

له بالشكر هو انه اول رئيس ديني تقرّب من المرسلين الاميركان وغيرهم ولم يأنف منهم البتة بل كان عصريًا في كل اقوالهِ وافعالهِ وكان رحمهُ الله يقول انني اريد ان اقنع الاجانب بالبرهان لا بالقوّة وهكذا فعل. وكان محبوبًا من افراد طائفتهِ خصوصًا ومن السوريين عمومًا مستثنى منهم بعض اساقفتهِ الذين لم تعجبهم آراؤهُ الاصلاحية فظلوا على معاندتهِ الى ان مات شهيدًا حزينًا . ومما يدل على اتحاد جميع الناس في محبتهِ ان جرس الكنيسة الانجيلية اخذ يدق دقات الحزن لما مرّت عربة جنازتهِ من امامها فقيل لأحد البروتستانت لماذا تحزنون على بطريرك غريب عنكم فقال نحن نحزن على رجل وحّد الطوائف المسيحية في محبتهِ ومحا التعصب الطائفي من بينها . وكان في عداد الباكين عليه كثيرون من المسلمين . ولما وصلوا بهِ الى مقرّهِ الاخير صلى عليهِ المطارنة الذين سبب بعضهم موتهُ وأجلسوهُ في مدفنهِ بملابسهِ الكهنوتية وتركوهُ وحيدًا في مجدهِ » انتهى قول الشاهد

هذا ما قاله المستر ليزي الاميركي البروتستانتي عن فقيد الشرق الذي يهتمّ ابناء الطائفة الكاثوليكية وغيرهم من ابناء سورية الامثلين بعمدة انشاء التمثال البطريركي لاقامة تمثال فخيم له يخلدون بهِ ذكرهُ وفضلهُ وعندنا ان الاولى بعمدة التمثال أن تطلب الى المستر لو حاكم مدينة نيويورك ليأذن لها في اقامة التمثال المنوية اقامته في كاسل كاردن في نيويورك لتقع ابصار المهاجرين السوريين عليه حالما يطأون هذه الارض العظيمة فيستأنسوا بهِ ويتبركوا ببركتهِ ويقولوا ان ابناء سورية اقاموا تمثالاً لرجل الشرق الحرّ ليظلّ شخصهُ قائمًا فيما بينهم حاثًا اياهم على التشبُّث بتعاليمهِ الاصلاحية والاقتداء بقدوتهِ الوطنية الصالحة . والاجدر بتمثال رجل الشرق الحرّ ان يقوم بين اهل المشرق في هذه البلاد فنصير اذا فاخرَنا الاميركان برجالهم نقول لهم ونحن لدينا من نفتخر به

وها تمثالهُ في ارضكم ونصب اعينكم فانظروه . انتهى قول مرآة الغرب



جرائد البرازيل

قالت جريدة « العدل » بتاريخ ٢٨ ايار سنة ١٩٠٢ ما ملخصهُ

خطبٌ جسيم ورزءٌ اليم

مصيبة مدلهمة وفاجعة مسمة . فجع الدين بموت خطير من احبارهِ ورزئ الوطن بفقد اعظم رجالهِ ومات الفضل بموت اشهر ابنائهِ وقضى الاصلاح بفقد اكبر انصارهِ كيف لا وقد نعت الينا اخبار الوطن والجريدة تحت الطبع رجل العلم والبر والفضل والتقى رجل الاصلاح الشهير المثلث الرحمات

السيد بطرس الجريجيري

بطريرك الروم الكاثوليك فيالها من خسارة لا تعوّض خسرتها الكنيسة والوطن و يالهُ من مصاب لا يؤاسى اصاب كل من يعرف قدر الرجال العظام الخ الخ

وقالت جريدة « الصواب » بتاريخ ٢٩ منه ما خلاصتهُ

رزءٌ اليم وخطب جسيم

ورد بريد سوريا متأخراً عن ترمه في هذا الاسبوع كأنهُ درى ان بين ما يحمله من الاخبار خبراً ينكي القلوب ويضنيها و يقرّح الاجفان ويدميها كيف لا وهو نعي الحبر الجليل والسيد الكريم الكثير المبرّات والمثلث الرحمات السعيد الذكر

السيد بطرس الرابع الجريجيري

بطريرك الروم الكاثوليك

اجل فقد فجعت الطائفة الكاثوليكية بكبير احبارها ورافع منارها وخسرت النصرانية طودًا من اطوادها والفضيلة ركنًا من اركانها فقد العلم عَلماً من مشاهير رجالهِ والاصلاح عينًا من كبار انصارهِ والدين حبرًا من اجلّ احبارهِ فكيف لا تكون المصيبة عامة والخسارة شاملة او كيف لا تكون القلوب هالعة والعيون دامعة بعد ورود هذا الخبر المفجع الخ

وقالت جريدة «المناظر» بالتاريخ نفسهِ ما ملخصهُ

﴿ خسارة الشرق الكبرى ﴾

شهيد الاصلاح وانتصار مقاصده بموته

وقع المصاب المنتظر وكأن اليد التي تحرك الحوادث من وراء عالم المحسوسات وقد عرفت ان وقع المصاب سيكون بالمفاجأة اليماً ارادت ان تبعث امامه نذيرًا يهيئ له القلوب وما كان الوقع مع ذلك الا اليماً

وقع المصاب ومات شهيد الاصلاح . ومع ان موته سيؤيد له القصد الذي مات على سبيله ما كان وقعه الا اليماً

ذلك لان المصاب لم يكن اليم الوقع عظيم التأثير الا من حيث المقدمة التي انذرت بوقوعه والقصد الذي استشهد المصلح على سبيله الشاق

أُصيب الشرق ولا نقول طائفة الروم الكاثوليك وحدها كما تقول جرائد النزعة الطائفية . ونقول أُصيب الشرق لاننا فضلاً عن تحاشي التخصيص الذي ننتهي الان من التعريض به نعتبر ان المصيبة بمثل المصلح المتوفى عمومية شاملة . ويجعلها كذلك ان الاصلاح الذي باشرهُ الفقيد سيكون بفضله فيما بعد شاملاً . أُصيب بحياة المثلث الرحمة المغبوط الذكر بطرس الرابع بطريرك الروم الكاثوليك

ذلك هو النعي الذي يسوءُنا ان نسوقه الى قرائنا

استأثرت به رحمة الله فاضطربت سورية ولا نذكر انها اضطربت لموت رئيس او حاكم او عالم او فاضل مثل اضطرابها لموت البطريرك

بطرس الرابع · ونعته جرائد القطرين المصري والسوري ولا نذكر انها اهتمت بميت قبله اهتمامها به · ولا غروَ · فالاسم الذي يشيع شيوع اسم الجريجيري ويصير مثلهُ محبوبًا عذبًا لذيذًا لحريٌّ بان يكون لنعي صاحبه دويٌّ عظيم · ولا غروَ · فالبطريرك الذي يميل نحو الاصلاح ويؤيد الافكار العصرية في امة ارتقت وتنبهت وبقيت بين ما يساورها من اسباب الخلود الى العبودية لا تجد زعيمًا تقويه السلطة يؤيد افكارها الجديدة حتى كان هو ذلك الزعيم لحريٌّ نعيهُ بذلك الدويّ في اعماق القلوب

اما مشروع الفقيد فقوامهُ تسوية امر الاوقاف بما يحفظ القيمة التي تفيض عن حاجة الاسقفيات والاديار منها لتجتمع في صندوق للمنفعة العامة يتولاه مجلس اداري من رجال الطائفة واصلاحات اخرى

استشهد البطريرك بطرس الرابع في سبيل هذا المشروع · مات الذي طلب الاصلاح لانه طلب الاصلاح · ولكن الاساس الذي وضعه وجعل من نفسه له دعامة لن يتزعزع · والذي وضع هذا الاساس لن يموت لهُ ذكر

يقول مكاتب الرقيب « وهيهات ان يستطيع الكتّاب الاحاطة بهيئة حفلة الجنازة ووصف ذاك المأتم العظيم الذي لم ترَهُ بيروت مهما حلا لهم الوصف » فلماذا اهتم الناس بالفقيد حتى قيل ان بيروت لم تشهد بعد مثل مأتمه

هكذا انتصرت مقاصد الجريجيري بموته

فيا ايها العظيم المستشهد في سبيل الاصلاح · انت عظيم والعظام لا يفرقون بين الحياة المادية والحياة المعنوية · فاسمع لنا هذه الكلمة من حيث انت — من حيث اجتمعت بذلك السيد العظيم الذي متَّ مثله شهيدًا على مذبح الاصلاح

ان الوطن الذي احببته مختل وشاعر بالخلل ويريد ان يصطلح والمصلحون فيه كثيرون ولكنهم جبنوا وصغرت نفوسهم والاصلاح لا يتم بدون ضحايا . وقد عودنا التاريخ ان ضحايا الاصلاح لا تتكرر الا بعد ان يقدم جريءٌ على ان يكون هو الضحية الاولى . فاذا تكررت فينا منذ الان فالفضل كله لك ونتائج الاصلاح كلها ثمرة اقدامك

لذلك سيخلد ذكرك على الارض ولا تنتهي لك فيها حياة معنوية كما خلدت نفسك الطاهرة عند بارئها ولن تنتهي لها حياة الخ الخ

وقالت جريدة «المنارة» بتاريخ ٣١ منه ما ملخصهُ

سقط العلم الساطع فسقط معه رجاء الشعب وانطفأ نور الغيرة والمعرفة فانطفأت آمال الامة واندك طود العلا فتقطعت حبال التمني . والشعب اليوم يبكي عميده ويبكي معهُ سوء حظه ولا عجب اذا شمل الحزن وعمّ الاسف وتجسم الخطب فقد فقد الشرق ركناً من اركانه والدين واحداً من كبار رعاته . خسرا الطيب الذكر والوطني الذي قلما يولد الوطن مثلهُ

السيد بطرس الرابع الجريجيري

ومع ان وفاته كانت مقدرة بعد ما اشتدت عليه وطأة العلة في الشهور الاخيرة والناس ينتظرون من يوم الى يوم حلول النكبة لم يمنع هذا الاستعداد لتلقاء المصاب ان يحل الخبر كالصاعقة ويكون لهُ رنة حزن وألم في قلب كل وطني وكل من سمع باخبار غبطته عن الاعمال الخطيرة التي اتاها في الماضي والمشاريع العظيمة التي رسمها في الحاضر والاصلاحات الجليلة التي نوى اجراءها في المستقبل فان حياته كانت حياة جد وعمل ووجوده كان للشعب لا لهُ ولذلك تأثر لفقده وكانت خسارته فيه خسارة لا تعوض الخ

وقالت جريدة « البرازيل » بالتاريخ نفسه ما خلاصته

" الرزء الاليم والمصاب الجسيم "

واحرّ قلباه

خشعت القلوب وانهدت المناكب . وكبر المصاب وعظم الخطب . فوقف القلم وجمد الحبر فاستبدلناه بالدمع والدم

كسفت شمس المشرق وهوى بدر العلى والاقدام والحجى . فاسودت الوجوه وخفقت الافئدة رعباً لهول المصاب الجليل والرزء الاليم واي مصاب اواي رزء اجل واعظم

فقد الشرق عظيمه وواحده وفقدت الطائفة الكاثوليكية والطوائف عموماً عميدها ورافع رايتها ورئيسها الجليل وبطريركها الورع وحكيمها المفضال . فيا لعظم المصاب ويا لجسامة البلوى

ايها الراحل الجليل يا من تركت الشرق قبل الاوان وخلفت وراءك ذكراً لا يمحوه الزمان

لم يأسف عليك ابناء طائفتك فقط ايها الحبر الوقور بل بكاك الجميع فانك كنت اباً للكل اذ عرفناك نصير العاجز ومعين المنكوب والآخذ بيد القاصر ومعزي الحزين . فقد اتفقت قلوب كل من عرفك او سمع باسمك على حبك واجلالك وتكريمك وذكر اسمك بالاحترام والوقار انت يا من كنت وضيعاً بين الوضعاء وعظيماً بين العظماء . من هو هذا الراحل ايها القوم . ومن هو هذا الفقيد العزيز الذي نقلت خبر منعاه جرائد الوطن على غير انتظار هو المصلح العظيم ورجل الشرق الوحيد البطريرك السيد بطرس الرابع الجريجيري

ورد بريد الشرق واعمدته موشحة بالسواد فدهشنا لاول وهلة لذاك المنظر كأن صاعقة انقضت علينا

اختطفت المنون دعامة الكنيسة الكاثوليكية الشرقية في نفس

المثلث الرحمات البطريرك بطرس الرابع الجريجيري الخ

ورثته جرائد العالم قاطبةً وذكرت صحف دار السعادة واوربا اوصافه واعماله الشهيرة وقالت ان فقده خسارة ليس عنها عوض

ونختم الآن كتابنا هذا بايراد بعض ما وصلنا من المراثي الفرْدة بين نثر وشعر وهي :

قال حضرة الخوري ملاتيوس حجار وكيل الرهبانية المخلصية في بيروت

" هذه هي الدنيا "

ما للخطباء ترقى منبر الخطابة وقلوبها ملاى من الاحزان . ما الذي يسمع في خطبهم من تعديد مزايا وتحامد وصفات ومكارم والطاف وسجايا وما ثر وخلال عديدة جديرة بان تذكر فتشكر والجموع صامتون مترحمون ذارفون تيارات من الدموع . فما هو السبب يا ترى هل حدثت مصيبة عظيمة في الورى . وما هي تلك الداهية الدهماء التي احاقت بهؤلاء الحضور . فعلى ما ارى انكم فقدتم اماماً هماماً وخسرتم امراً عظيماً . فالدموع نازلة من مآقيكم مدراراً وقلوبكم متفتتة حزناً على هذا المصاب فهذه كلها تدل على ان الفقيد رجلٌ كبير وامام مهيب كيف وهل توجد مصيبة اكبر من هذه وهي هدم ركن الطائفة الكاثوليكية وفقد عظيم احبارها . نعم ان المصاب لكبير والخطب لجسيم . قد غابت شمس الحقيقة من افق الورى وافل نجم زاهر من نجوم الكنيسة الشرقية وسوّد الظلام ثغور الملا وعم الاسف قلوب الطائفة الثكلى على فقد من كان معلياً فخارها ورافعاً لواء الدين والفضيلة اعنيه الطيب الذكر المثلث الرحمات كيريوس كيريون بطرس الجريجيري من صرف ايامه جمعاء بحب الفضيلة والتقى وبما يعود على الطائفة بالخير والعلاء وعلى الدين برفعة الشأن كما يشهد بذلك ما خلفه من الاعمال الكبيرة والآثار الحميدة . فاي وقتٍ لم يكن به غيوراً الّا كان رئيساً على المدارس الزحلية كم اظهر من غيرة زائدة بتشييده

المدارس لتهذيب الاحداث وتثقيف اخلاقهم وترويض طباعهم فكم خلف من تلامذةٍ رضعوا من لبن فضله وفضيلتهِ وهم الآن منتشرون في المعمور اجمع يشيدون بذكرهِ الحسن مدى الدوران ام لما كان اسقفاً على ابرشية بانياس كم من غيرةٍ رسولية اظهر بتشييدهِ المعابد لخدمة الله والمدارس لتربية الايتام والفقراء بعد ان كانت قاعاً صفصفاً منسيةً مهملة احيا فيها العلوم واوجدها في تلك الديار وترك فيها مآثر ويا نعمَ تلك المآثر الامر الذي يشهده ظاهر الحال :

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثارِ

ودام على هذه الحال حتى دُعي من الله ليتربع فوق دست البطريركية المنصب السامي المقام العالي الشان فاجاب خاضعاً لارادتهِ القدوسة . ومذ وُضع ذلك السراج الوهاج على تلك المنارة قد ازداد جمال الكنيسة رونقاً والهيئة الاكليريكية كمالاً وقد علقت الطائفة آمالها بالنجاح والتقدم واجمعت قلوبها على حبه لما فيه من المزايا الحميدة . فان قلت فيه التقى فهو رجل الفضيلة والعفاف وان قلت الشفقة فهو ابو اليتامى والفقراء وجاهه يشهد له بانه الرجل الفريد بين اقرانهِ . وان قلت الشجاعة فهو ربها وان قلت المروءة فهو حليفها وان قلت الالفة فهو نذيرها وان قلت كرم الاخلاق فهو اهله وان قلت الحصافة والحماسة والنزاهة وعفة الذيل فهو من اربابها . وممن لم يكن محبوباً أَمِن ولي النعم جلالة مولانا السلطان المعظم فها صدره مرصع من تلك الدرر الفاخرة التي تدل على عظمة شانهِ وعلو مقامهِ . ام من حبر الاحبار فانهُ حباهُ مواهب عظيمة اكثر من ان تذكر . فيبكيك اذاً الوطن لانه فقد فيك فخرهُ . تبكيك المروءة لانها خسرت فيك رجلها . يبكيك مصف الاساقفة لانه خسر فيك عضداً وسنداً واماماً . تبكيك المجالس لانها حُرمت منك يا جوهرة كريمة . فمن بعدك يحن على اليتامى والمساكين ويبذل نفسهُ عن الرعية ويضحي ما عزَّ وهان

في سبيل الخير العام · آه من الدهر الخؤُون كيف انه عكر مجاري الهناء بعد صفائها · فاين هذه المظاهر من تلك حين وفودك من صربا يا حبرًا كريمًا هناك كانت قلوبهم نشوى من الفرح والسرور وهنا منكسرة من الاكدار والشجون فاين صوتك بالقوم واين تلك الالفاظ العسجدية فوحياتك لا ننساها وحبنا لك يتبعك في حياتك ومماتك ومجدك وفخرك وعزك متساوٍ في ارتقائك وفي سباتك

فها نحن كانا شاخصون لنسمع منك كلمة الوداع فما كنا نعهد بك هذا الجفآء · آه واأسفاه فها قد عم الاسى عموم المسيحيين وخصوصًا طائفتك المحبوبة منك فلله درك من بطريرك ابرّ خدمت ربك بالتقى وحب الفضيلة وها كل ما تركته من الاعمال المبرورة والآثار الخيرية يشيد بحسن ذكرك الى الابد وسوف يجازيك المتعال علانيةً انت الذي تركت كل شيءٍ وتبعت المسيح يابطرس الصخرة وحسبنا هذا على صدق ايمانك وحبك لله فنأسف على فقدك لاننا باحتياج كلي اليك وتأسف البطريركية لانها ما تهنأَت بك وفقدت بك منار العلم · فلتتوشح الكنائس اثواب الحداد ولتقطر الرُبى دموعًا ولنستنزف الدمع خيرًا من التأبين لانه مضى من كان عمود الشرق وركنه الكبير وتركنا هدف سهام الاحزان · آه واحرباه الخطب جسيم والمصيبة كبيرة · آه من الدهر المشؤُوم قد حرمنا من وجودك راتعًا في منصب الرئاسة وجرعنا مرارة الفراق · فلا تدعنا يتامى نقاسي الم البعد · ولا تنسَنا من دعاك امام الذي دعاك اليه الذي لما رآك امينًا على القليل اقامك على الكثير ادخل الى فرح ربك هناك اطلب لنا ما نحتاج فلاشك يعطيك سؤالك · فاطلب الصبر والعزآء لرعيتك الحزينة ولاولادك الحزانى الذين تفتتت قلوبهم حزنًا على كسوفك يا راعي الرعاة الصالح · فاذكر رعيتك واغنامك المحبوبين منك فانك كريم حنون · نأَيت عنا وعرجت نحو الله لتأخذ اجرة اتعابك الرسولية لانك

جاهدت الجهاد الحسن واي جهاد ومت شهيد الغيرة وا كملت السعي واي اكمال فمنذ الآن اكاليل المجد معدّة لك

وقد نظم حضرة الاكسرخوس يوحنا الحداد تاريخاً وهو

بالامس قد خُسف الهلالُ اشارةً لمصاب بطركنا الاناءِ المنتقى
واليوم بطرسُ قد دعاهُ لنزلهِ فاقامهُ في بيت سمعان الصفا
ولذلك التاريخ ابدى روايةً في جنة الفردوس قد حلَّ الصفا

١٩٠٢

وقال جناب ابرهيم افندي حبيب جبور

لوعة الاسيف

أَلبسْ طروسك للرثآء سوادا واجعلْ دموعكَ في الدواة مدادا
وابرِ اليراع كما برى سيف الردى بربوعنا الاحشآء والاكبادا

فقد فجعنا بفاجعة استنزفت المدامع وشقَّت الاضالع وأَدمت المحاجر ومزَّقت المرائر ولا بدع فالمصاب جلل

مصاب هزَّ اطراف البلادِ وذاب لهولهِ صلْد الجمادِ
مصاب فادح حجب الثريَّا كسا الارضين اثواب الحداد
مصاب دكَّ اطواد المعالي وزلزل وقعهُ ركن الرشادِ

فقد فقدنا والهفتاهُ عماد الفضل والتقوى وعروة الهدى الوثقى

ذياك بطرس بطريرك الشرق من حسناتهُ الجلَّى كنور زكاء

ننعاه ونبكيهِ و بدم الفؤاد نخطّ مراثيهِ وكيف لا نندبهُ وكيف لا نرثيهِ وهو الذي

تبكيهِ آلافٌ بنعمتهِ ربوا فكأَنهم كانوا له اولادا
يبكي الهدى والدين مصرع سيدٍ قد كان للحق الحقيق سنادا
والرشد يبكي طودهُ المدكوك من صرح المعالي والمفاخر شادا
تبكي الكنائس والمنابر سيداً للرشد والارشاد كان عتادا

يبكي الندى من كان حاتم عصرهِ وعلى ابن زائدةٍ نداهُ زادا
باي مناقبهِ الشريفة يذكر ولا يشكر واي فؤادٍ اذا ذكر منعاهُ لا يتفطر ألم يكن كسميهِ رسول الاصلاح وبشيرًا للبيعة بالتقدم والنجاح ألم تكن له حكمة سليمان ونقوى داود وغيرة ايليا وطهارة يوحنا وعفة يوسف وعلم الذهبي الفم أما كان

هماماً همهُ اصلاح شعبٍ بخدمتهِ لقد جافى رقادَهْ
تقياً يصرف الاغلاس يدعو الى المولى و يهتف بالعبادَهْ
كريماً حازماً في كل يومٍ يقيم على فضائلهِ شهادَهْ

أجل لعمري ان فقيدًا كفقيدنا يحقّ لنا ان نبكيهُ ذاكرين فضائلهُ السنية وآيات افضالهِ الجلية ومآتي غيرتهِ البطرسية العلية سائلين الله ان يعوض الكنيسة بخليفة له يكون خير خلف لخير سلف ضارعين اليه جلّ جلالهُ ان يتغمدهُ بالرحمة والرضوان و يسكنهُ فسيح الجنان

ولا زالت غيوث العفو جودًا تروّي رمسه حتى القيامهْ
وعنا ربنا خيرًا جزاهُ ومن عرش الرضى ادنى مقامهْ

وقال جناب عيسى افندي اسكندر معلوف

« لسان حال الوطن »

لفقدكَ أنّة تدمي الفؤادا وتذكارٌ نحاذرُ ان يعادا
الا ونرى المصيبة فيك عمّت جميع الناس واعترت الجمادا
فحين النزع غال البدر خسفٌ ومن خوف النوى غاب ار بدادا
وما كنا نعدّ الخسف الاّ ظواهرَ لا نرى فيها اعتقادا
ولكنا راينا فيه رمزًا ولا نخشى من العلما انتقادا
اما انوارُهُ عنا تناءت وكانت في العلى تجري امتدادا
كشخصك كان محجوبًا ضياهُ عن الدنيا وفي الفردوس زادا
فأبناء المواطن في اضطرابٍ وكلٌّ منهمُ افترش القتادا

أَليس يحق للوطن انتحابٌ ومذ منعاك لم يذق الرقادَا
جمعتَ وداعةً وصفاءَ قلبٍ وعزمـاً واعتلاءً واجتهادَا
وفيك الغيرةُ الشماءُ كانت مع الإِقدام والتقوى عتادَا
بذلتَ النفس تثقيفاً ونشراً لكل فضيلة حسنا جهادَا
وكم خاطرتَ في برٍّ وبحرٍ وسافرت انتجاعاً وارتيادَا
شهرتَ بهمةٍ شرقاً وغرباً وقدجبتَ الصحارى والوهادَا
وكم ناديتَ في الدنيا بحبٍّ فصرت اليوم في العليا منادَى
اما انت الذي مثل المعرّي تقول وطبتَ في هذا فؤَادَا
« ولو اني حُبيتُ الخلدَ فرداً لما أحببتُ بالخلد انفرادَا »
« فلا مطرت عليَّ ولا بارضٍ سحائب ليس تنتظم البلادَا »
فانتَ خطيبنا المشهور فينا وكم حرَّكتَ في وعظٍ جمادَا
وانتَ فخارنا حياً وميتاً ملكتَ قلوبنا ما الدين سادَا
وكاسمك كنتَ تثبتُ في ودادٍ فهل ننسى لك الدهر الودادَا
رايتُك مسرفاً في بذل خيرٍ ولكن في الورى عشت اقتصادَا
وذكرك لا يحيط به مديحٌ ففي تعداده يفني المدادَا
تطاوعنا بذكراك القوافي وتسبق في تجاريها الجيادَا
وتنفر عند ذكر سواك عنَّا فتأبى ان تطاوعنا انقيادَا
فلا نرضى بكا الخنساءِ صخراً فكان اخاً وكنتَ اباً جوادَا
فلبنانٌ وسوريا ومصرٌ قد اتخذت لمنعاك الحدادَا
وروميةُ رأتك رفيع قدرٍ تجلببتَ الطهارة والرشادَا
ودار سعادةٍ لم تنسَ يوماً به قد زرتَ مولانا افتقادا
دعوتَ له وكان اللفظ درًّا فقلدك الوسامات العدادَا
فرنسةُ قد رأتك وانت ساعٍ لكسب العلم مشهوراً سدادَا
كذلك اسقفاً مع بطريرك فهنأت المواطن والعبادَا

وزحلة قد رت مع بانياسٍ ما آترك الطريفة والتلادا
وحقق ثغر بيروت الامـاني بعرفة الجميل لذاك سادا
نحبك ايها الثغر المفدَّى ونحسد تربك الحاوي عمادا
ولا عجبٌ لمحسودٍ حبيب قد امتلكَ الارادة والقيادا
قد اجتمعت بمغنـاهُ الوفُ تشاطرنـا التفجع والسهادا
فسار المحفل المحشود سيلاً من الاحيـاء يمتد امتدادا
وقد حمل الازاهر وهو جارٍ اكاليلاً تكون لك الوسادا
اذا كانت اكاليل البرايـا احاطت فيك ازواجاً فرادى
فكيف اذاً اكاليل الاعالي ببهجتها وقد ابت النفادا
هنيئاً ايها الحبرُ المفدَّى لمثلك من أعدَّ البرَّ زادا
ولولا انَّ في الاخرى رجاءً وطيداً لم نطق عنك البعادا
لقد ادركت من دنياك حظاً ومن باري الورى نلت المرادا

« تأريخ »

مضى الحبر الجريجيريُّ عنـا ولكن ذكرهُ فينـا مقيمُ
رويدك بطرس المولى المفدَّي لفقدك فاض مدمعنا السجيمُ
عهدتك خير سلوى للحزانى لماذا الآن تنهكنا الهمومُ
سعيتَ مساعي البرّ اجتهاداً فطاب بحسن طلعتك النعيمُ
تركتَ بارضنا تاريخَ طُهرٍ فاجرك في السما العليا عظيمُ

١٩٠٢

وقال جناب بشاره افندي انطون عكاوي

عيون العلى سالت مدامعها سماً على سيدٍ قد كان يملأها حزما
وما هو الاَّ بطرس الرابع الذي لمنعاه ننعى الجود والفضل والحلما
سقتهُ المنايـا كأسهـا بيمينهـا فويلاهُ من كأسٍ تجرعها ظلما
فيالك من بحرٍ ثوى باطن الثرى ويالك من قبرٍ رحيب بما ضما

مضى غير مبقٍ بعده من مماثلٍ يحاكيه بالمعروف والهمة الشماَّ
اذا ما علا يوماً على عودِ منبرٍ يحرك في اقواله الصخرة الصماَّ
فلا لوم إن سالت مدامعنا دماً وكان لنا روحاً وكنا لهُ جسما
وانَّ زماناً ليس ينتج مثلهُ بكاهُ فابكى الزهد والغم والعلما
رمتنا صروف الحادثات باسهمٍ حدادٍ اصابتنا فلم تخطئ المرمى
فلم ترَ الا كل قلبٍ مبرَّح كأن الردى في كل قلب رمى سهما
درت كل اعواد المنابر بعده بان فقيد الشرق اورثها يتما
فقولوا لكرسيه أتدري بما جرى وان قد دهاها اليوم داهية دهما
فيا راحلاً لم يبقِ نوراً ينيرنا بجنح الدياجي المظلمات ولا نجما
هويت فخلنا ان لبنان قد هوى وان بياض الثلج فيه غدا فحما
وبيروت ماجت بالمواكب والاسى واهرام مصر صار من حزنه هرما
وأنهار ارض الشام جفت عيونها واعين اهل الشام قد هطلت غما
الى الله سر يا من فعلت بامره ففي ظله تسمو الى رتبةٍ اسمى
هناك ربيعٌ دائمٌ في جواره ولن ترى ضداً في حماه ولا خصما
عليك سلامٌ من قلوب كئيبةٍ ومن مبدع الاكوان رحمته العظمى

وقال جناب سليمان افندي مصوبع من قصيدة

« لسان الشرق »

قُضيَ الامر ليت طال العداۤءُ كان أولى من الرحيل البقاۤءُ
فتك الموت بين كنا نرجي ان يذل لدى الحياة الفناۤءُ
مُنيَ الشرق بالعزيز المفدى من بنيه فعزَّ فيه العزاۤءُ
قد عهدناه يزدري بالمنايا فرأيناه يزدريه العياۤءُ
كان للشرق عزةٌ وامتناعٌ في مواضي قرونه واعتلاۤءُ
شاخ وهو الصبور عند الرزايا ليس يشكو وان تمادى البلاۤءُ
ايهِ يا شرق اين تلك المعالي اين ذاك الضياۤءُ واللألاۤءُ

وعلامَ استطار لبك خطبٌ   ومتى كنت بالخطوب تساءُ
خلِّ عنك اذكار مافات ماالعمـ   ـرُ نعيمٌ فليس الاَّ شقآءُ
ودّع الهم والاسى او اجبنا   كيف هذا الخمود اين السنآءُ
قال ويك الوقارُ خلقي وصبري   في اتساعٍ يضيق عنه الفضآءُ
ما دهاني سوى ابن عشرين قرن   كتبت في جبينه الارزآءُ
فاجأتني صروفه بمصابٍ   قد اصاب الصفا فبان الصفآءُ
ندَّ عزيي هوى مثال شبابي   وامَّحت الف الكمال وياءُ
كنت ارجوه في الملمات ذخراً   يستعيد الشفآءَ ان طال داءُ
نازعتني به المنون ففات   ليت يوم القضآءِ دكَّ القضآءُ
يوم انبانا البرق منعاه خلنا   فارق الكون حسنه والروآءُ
يوم صح الصحيح والارض ناحت   واستردته من حماها السمآءُ
يوم ضج الخلوص وانشق قلب ال   حزم والعزم واستطال الريآءُ
يوم صاح اليقين ويلاه عادت   دولة الوهم اين ذاك الجلآءُ
يوم قال التقى اليفيَ ولى   قلَّ والله بعده النصرآءُ
يوم ضمَّ الترابُ بطرس ظلماً   واعتسافاً قضى الندى والولآءُ
هات صبراً او الهني عن فقيدي   انما الامر والمحال سوآءُ
كيف اسلو وذكره مستفيض   لا يطيق السلوَّ عنهُ الخفآءُ
ما وفته العيون ان لم تروّي   ترب ذاك الضريح منها الدمآءُ
لو يكون الجماد ذات شعورٍ   لافاض الدموع منه البكآءُ
لو جميع المؤلفات مراثٍ   حولها لقصَّر الشعرآءُ
لو بنفسي فديته كان نزراً   بل اقلُّ الحقوق هذا الفدآءُ
كم تمنى لدى الوداع فؤادٌ   ان يدنَّى من الوداع اللقآءُ
آهِ والامر معجزٌ فاعتذاري   لمليك الوفآءِ عني وفآءُ
رحم الله سيداً بطريركاً   كم شكت لطف طبعه الكبريآءُ

فعليه سلام ودٍّ قديمٍ ما توالى على الصباح المسآءُ
آب ربي اليك عبدٌ امينٌ صحب الفضل علمه والنقآءُ
فارضَ عنه وجازهِ بجزآءٍ ناله منك قبله الاوليآءُ
واسكب الصبر في قلوب ذويه فعسى فيه سلوة او عزاءُ

وقال جناب يوسف افندي الياس نجم

"شعائر الاسف"

ايُّ امرىءٍ في البرايا ليس يبكيكا دمـاً وودّ ولو بالنفس يفديكا
انت الفقيد الذي اشجيت طائفةً قد ابتغت كل نفع من مساعيكا
وانت خير فقيد في التراب ثوى هيهات ان تظفر الدنيا بثانيكا
فالشرق يبكي الجريجيريَّ منتحباً ولن يزال بدمع العين يرثيكا
يا افضل الناس في علم وفي عملٍ فمن بطيب السجايا كان يحكيكا
بالجد فقت رجالاً في الورى سلفوا واحيت الدين والدنيا مآتيكا
وكنت تاجاً على هام الزمان فلا بدعٌ اذا قامت الآفاق تنعيكا
من كان مثلك في عزمٍ وفي هممٍ ومن ومن من بني الدنيا يباريكا
ومن اتى بمساعيك التي اشتهرت في الخافقين واعمت عين شانيكا
انفقت عمرك في سبل الجهاد وقد بلغت ما تبتغي منه امانيكا
لك الفعال التي عزت نظائرها فانها ابدَ الايام تحييكا
اذا ذكرناك يوماً في الانام نرى مدامع العين تهمي اذ نسميكا
احييت للفضل آثاراً وكان على حب الفضيلة والتقوى تفانيكا
وكنت في خدمة الاوطان مشتغلاً فكلُّ مرءٍ كريمٍ يقتدي فيكا
وكان صيتك مثل الطيب منتشراً يسرُّ من قد تسوَّى في مباديكا
وحسب ما نلت من جاهٍ ومن ثقةٍ لدى العموم فهذا الفخر يكفيكا
يا ثاوياً في الثرى نمْ بالهناآء ولا يزلْ سحاب الرضى والعفو يسقيكا
رحلت عنا فاشجيت النفوس ولا تبرح تثير الاسى حتى نلاقيكا

صبراً انائحهُ فالصبر انجع ما ترجوه عند الرزايا في تأسيكا
وان طلبت على ذا الخطب تعزيةً فهو الاله الذي عنا يعزيكا
والكل يرحل عن هذي الديار فثق بأن لا امرءَ يبقى في اراضيكا

وقال جناب خليل افندي السبتي

قبلاً مدحتُ الصفا واليوم ارثيهِ وبالمدامع من عينيَّ ابكيهِ
ابكي على فقد طود الدين كيف هوى من اوج علياه واندكت مبانيهِ
ابكي على صخرة الايمان بطرسنا من لم يكن في التقى شخصٌ يساويهِ
ابكي على حبرنا راعي الرعاة الجريجيري م مدبر شعب الله هاديهِ
ابكي على بطريرك كاملٍ ورعٍ قويمةً حرةً كانت مباديهِ
ابكي على جهبذٍ في الكون مشتهرٍ لو كان يفدى بروحي كنت افديهِ
لكن هو الموتُ نقادٌ اخو طمعٍ لم يرضَ الا برب الفضل منشيهِ
كتاجرٍ حاذقٍ يبغي لهُ دررا اتى ففاز بدرٍّ منه اوتيهِ
ابكي كما بكت الخنساءَ من قدمٍ صخراً اخاها ولي حقَّ البكا فيهِ
ولستُ ابكيهِ وحدي بالمدامع بل كلٌّ من الناس يبكيهِ ويرثيهِ
بالامس كنَّا نرجي ان يعيش لنا فخاب ويلاهُ ما كنا نرجيهِ
ومات عنا فصرنا بعد موتتهِ كشعب موسى كليم الله في التيهِ

وقال جناب جرجي افندي بشاره يواكيم

„ رنَّةُ السهمِ في الفؤاد „

ريبُ المنيةِ في الورى قد مادا فأباد حبراً فاضلاً جوَّادا
فتحوَّل الشرقُ الانيسُ لمغربٍ لمَّا بهِ البدرُ الضريحَ ارتادا
وتصدَّعتْ كلُّ القلوبِ أسىً على فقدِ (الصفَّا) والأُنس عنها حادا
لا بدعَ إن ندَّ الصفا عن شرقنا فهوَ (الصفا) رام النعيمَ وسادا
للهِ كم باتَ الزمانُ مراقباً صفو الحياةِ وللصفا صيَّادا
نظرَ الخؤونُ الى علاهُ كحاسدٍ فرآهُ بالمجدِ التليد مصادا

وأَصابهُ لما رآهُ مفرداً ذا دأبهُ أَن ينتقي الافرادا

فعيونُ أُهل الشرقِ اجرَتْ ادمعاً تسقي الضرائح صيباً وعهادا

ماتَ الجريجيريُّ مع كلِّ الرَّجا هيهاتِ نلقى بعدهُ أَندادا

جاءَ انتخابُك بلسماً للجرح من غريغورسٍ اذ كنتَ انت عمادا

واليوم قد حصلت جروحٌ جمةٌ أَفهل نلاقي بلسماً ضمَّادا

فلقد مضى فخرٌ غداةَ مصابنا وَعقيبهُ اتشحَ القطينُ حدادا

لا يرجعنَّ الأُنسُ قطٌّ لارضنا فمصاب (بطرس) احكمَ الميعادا

تبكيك زَحلةُ في المغارب والضحى اذ كنتَ فيها للفخارِ مرادا

وتنوحُ مرجعيونُ من فرط الاسى اذ انها فقدت بك الاعضادا

كم من معالم قد رفعتَ لزهوِها كم للديانة قد رددْتَ عبادا

تبكيك طائفةٌ تفاقم خطبها من بعد فقدكَ شققت أَكبادا

لم تدرِ ما آلت اليهِ حالها لمَّا اضاعت في نواكَ رُشادا

ياحزنها لما رأَت بعض الاسا قف بالمنابر يندبون عتادا

قد كنتَ فيها خاطباً متوحداً وبها تبث الحبَّ والارشادا

تبكي الخطابةُ والمنابرُ بعدهُ كم قال فيها للورى انشادا

أَكفتك ياركنَ الكنيسةِ اربعٌ لتتمَّ سعيكَ بالخرافِ جهادا

كم من فؤادٍ رام فيك تفاخراً واليومَ فقدُكَ كم اذابَ فؤادا

وكنيسةُ الربِّ العليِّ لقد زهت لما رأَتكَ لمجدِها معضادا

تاهت ببطرسَ اربعاً لكنها ذا اليومَ قد لبستْ عليهِ سوادا

ان ينأَ عنها فخرُها طول المدى فالذكرُ يبقى لا يودُّ بعادا

يحيا كذا في روضِ ربِّك عاطراً وبارضنا لا يقطن الالحادا

صبَّ الإِله على ضريحك نعمةً وعليه لا زال الندى يتهادى

وقال جناب عبد المسيح افندي انطاكي من قصيدة

قد مات بطرس ذلك الحبر الذي ... كنا نعد له العلاء علاء
قد مات من كنا به نرجو المنى ... فقدت اماني القوم فيه هباء
قد مات من شاد المدارس والكنا ... أس فاندبوا يا أهل البلاد مضاء
قد مات من لا زال يسعى للعلى ... حتى قضى فيه القضاء قضاء
اسفاً عليه وكان اعظم سيد ... في موته ما يصدع الاحشاء
فاذا توشحت الكنائس بالسوا ... د فانها تبكي الامام بكاء
واذا ارتدت تلك المدارس بالحدا ... د ففقها تستعظم الارزاء
واذا المصيبة عمت الدنيا فلا ... عجب فقد تتجاوز الدنياء
فابكوا الفقيد بحرقة وتوجع ... وتفجع وتبادلوا البلواء
وتصبروا بالله وهو نصيركم ... والله يعطي الصابرين عزاء

وقال جناب سليم افندي اسعد الخوري العقاد

" آخر وداع "

تم عمري ولم يتم مرامي ... يا بني امتي عليكم سلامي
وقف الدهر دون اتمام نيا ... تي واودى بقوتي وقوامي
كنت جلداً لدى الخطوب فاوهت ... جلدي شدة الضنى والسقام
كان صوتي ملء القلوب فاضحى ... ملء آذانكم صدى آلامي
فلئن زلت عنكم فاذكروني ... وتواصوا ما بيننا من ذمام
مذهبي صحة العقيدة والنصح ... لقومي بالفعل قبل الكلام
مبدإي الحب والتعاضد والسعي ... بنشر الوفاق بين الانام
غايتي الجمع بين جارين قد ضمهما ... موطن بخير وئام
فرمتني يد الحوادث عن عمد ... فما اخطأت سهام الرامي
فوداعاً يا بانياس فقد كنت ... حديثي في رحلتي ومقامي

ووداعاً يا اهل ودّي في اقطار م مصرٍ وفي ثغور الشام
اهل بيروت فليباركم الله م ويحفظ جمهوركم بسلام
بينكم قد رفلت في ثوب مجدي ولديكم تبقى بقايا عظامي

...

في سبيل الرحمن يا خير راعٍ لم يمتع من سعيه بتمامِ
انت علمتنا التصبر لكن هل لنا في نواك صبر كرامِ
اكبرتْ خطبنا الانام وقالوا ايّ حبر قضى وايّ امامِ
قد فجعتم بسيدٍ ورئيسٍ واب صالحٍ وراعٍ همامِ
ذهب السيد الحميد المساعي والسديد الاراء في الاحكامِ
ذهب السيد العطوف على امته م والشديد عند الخصامِ
ذهب الواعظ المفوّه فلتحنَ م لديهِ مصاقع الاقوامِ
ايها ذا الفقيد مهلاً فقد اثكلتَ شعباً إِذ ذقتَ كاس الحمامِ
من يصون الضعيف بعدك ام من يتولى اعالة الايتامِ
كنتَ غوثاً لنا فلما توليت م استغثنا بعاثر الاوهامِ
كنتَ مشكاتنا لاتيان ما يحمدُ م في الناس واتقاء الذامِ
انّ آثاركَ الجليلةَ فينا خالدات تبقى على الايامِ
وسيبقى اسم بطرسٍ مثل الحزم م وذكرى الكمال والاقدامِ
فتوالت مراحم الله ترعى خير جسمٍ ثاوٍ بخير مقامِ
صانه الله عن مفاسد دنيا نا ليحظى بمجدهِ في الختامِ

وقال جناب الياس افندي فارس فاعور الدمشقي

ان المنية للاحياءِ تخترمُ منذ القديم واهل المجد ما سلموا
قد نفَّذتْ سهمها فيهم وما تركتْ شهماً كريماً ومن سادوا ومن عظموا
اين الإِمامُ الجليل السعي كيف مضى بالمجد والفخر اين المفردُ العلمُ
مات الرئيس وماتت بعد موتتهِ آمالنا ولذا اودى بنا الأَلمُ

فالراس في أَلمٍ والصدر في غممٍ | والاذن في صممٍ والدمع منسجمُ
والعين في أرقٍ والدمع في غرقٍ | والقلب في حرقٍ والجسم مضطرمُ
واسودَّ وجه الضحى من حزنه أسفاً | والشمس قد حجبت في الشرق تنكتمُ
قد خاننا الدهر في هذا الإمام فيا | تبّاً لدهرٍ خؤونٍ ما له ذممُ
قد مات حبرٌ غدا للبائسين رجاً | وعاش من لحقوق الناس يهتضمُ
حبرٌ تنزّهَ في ذا العصر عن شبهٍ | وفي النباهة مرفوعٌ له علمُ
قالوا له رجل الاصلاح عن ثقةٍ | حتى قضى فقضى الاصلاحُ والهممُ
نرى المنابر قد ناحت ولا عجبٌ | كم كان يرقصها من نطقه الكلمُ
فالشام تبكي وبيروتٌ كذا حلبٌ | والشرقُ والغربُ والاعرابُ والعجمُ
تركتَ دار الشقا يامن رحلتَ الى | دار السعادة حيث الابريا نعموا
ونلتَ فيها الجزا بالسعد مغتبطاً | إن لم تكن عندنا ترعى لك الذممُ

وقال جناب رشيد افندي حنا مصوبع

ايها الموت قد اخذت الرجالاَ | واخترمت الأُسود والابطالاَ
وارقُّ الخطوب ما ربهُ ابكى عليهِ الايتام والاطفالاَ
واجلُّ الخطوب ما ربه ابكى عليهِ كل الورى اجمالاَ
والذي كلُّ مقلةٍ قد بكته | بطرس ركننا الذي اليوم مالاَ
ازهدتني منون بطرس في الدنيا فمن بعدهِ اريد الزوالاَ
ومن الظلم ان يموت الجريجيري لو أن لم يشا الاله تعالى
فتنتني منه العزائم والتقوى كأني رأيتهنَّ جمالاَ
لست اهوى سواه في الارض من دو | ن مغالاة شاعر حين غالى
لست ابكي السربال لكنني ابكي الذي زان ذلك السربالاَ
انَّ مولى قد هزَّ حين انتخاب الشعب اياه سيداً اجبالاَ
لقليلٌ بان تسيل على مصرعه انفس كما الغيث سالاَ
وسلوا بانياس عنه وان كا | نت من الحزن لاتجيب سؤالاَ

ليس خوف على الخلاف فمن كا ن عليه الخلاف يعظم زالا
ايها الراحل العزيز علينا قف فما آن ان تزم الرحالا
ما حزناً ولن ننوح على مثا لك إذ كنت قد عدمت المثالا
انت احسنت في بلائك في دنيا ك حتى احسنت فيه فعالا
ارحم العين انها بالدم القا ني من الحزن اسبلت اسبالا
ارحم البائس الذي لم يجد غيـ رك عوناً يضفي عليه نوالا
ارحم الشعب انه لم يشا الا ك حبر الكنيسة المفضالا
من لهام الرهبان بعدك تاجاً او لخد الزمان يصبح خالا
وانتخاب كادت لاجلك فيه تعمل البيض في الحشا إعمالا
وبحار الدماء تجري ولم تحـ قن سوى ان عليهم نتعالى
كم قلوب الى الاله لتشفى ضرعت والمحب بطرس قالا
ان يوماً يشفى به بطرس نخطـ ـر فيه مثل الحسان دلالا
ايها التاج لا لبست على رأس سواه ولا كسوت قذالا
عجزوا عنك في الوغى فاستعانوا بالردى والمنون تقلو الرجالا
فانتقاك الحمام مثلما نحـ ـن انتقيناك والجدال استطالا
فالمنايا حنت اليك كما كـ ـل فؤاد اليك حن ومالا
مقلتي لم يمسح مجاريها بعـ ـدك حبر على السرير تعالى
فاعن مولاي عن قصوري واعذر ان في مقلتي وجسمي اعتلالا
والذي عنده على النقص عذر يجد النقص في الفروض كمالا

وقال يرثيه ايضاً ولم يشتف من رثائه

تحب العيش كيما ان تفيدا وتترك كل محسود حسودا
ولم ترغب بان تحيا لتلقى نعيم المجد والعيش الرغيدا
وتهوى المجد حتى الناس تدري بانك تستطيع بان تسودا
علمت بان غيرك ليس فيه م الكفاءة ان يسوس وان يقودا

وانكَ ان وُجدت فليس بدٌّ ... بانْ تلقى المسوَّد لا المسودا
وتولينا مآثر ليس تفنى ... وتملا الارض احساناً وجودا
فمن خلفتَ بعدكَ تستبينا ... عوارفه وتملكنا عبيدا
تقادمَ عهد بينكَ عن عيوني ... وذكركَ لم يزل عندي جديدا
اذا ما مرَّ ذكركَ لي بيومٍ ... كرهتُ بذلك اليوم الوجودا
كأَنكَ والدٌ لي اذ تولى ... لطمتُ عليه حين قضى الخدودا

وقال حزين لم يذكر اسمه

ادخلوا خشَّعاً وخرُّوا سجودا ... والثموا ساعدَ الندى الممدودا
واعدُّوا قلوبكم لوداعٍ ... واحذروا ان تطيرَ منكم شرودا
انما انتمُ تجاهَ رئيسٍ ... طا طأَتْ نحوهُ الرؤُوس عبيدا
ذاكَ منه جسمُ التقى فانظروهُ ... لابسَ المجدَ حلةً وبرودا
غير انَّ الروحَ الكريمة راحتْ ... صعُداً للعلى ترجّي الخلودا
سائلي عنه لا أُحيرُ جواباً ... فلساني قد لازمَ التعقيدا
هو مولى الأُلى تساموا قديماً ... وحديثاً ومن سيأْتي عتيدا
وهو قسٌّ ومن علا دونه الاعواد قد كانَ يطلبُ التقليدا
وهو فرْدٌ ولا نزيدُ عليه ... وكفاهُ ان قيلَ عزَّ نديدا
غررُ الاعمال العظائم قامتَ ... بيناتٍ لذكره وشهودا
ذلكم حبرنا الكبير الجريجيريُّ من عاش حامداً محمودا
وبشير السلام بين البرايا ... والذي أَعلى للسلام بنودا
والذي بين راحتيه عصاهُ ... أَنبعتْ حين شقّت الجلمودا
فقضى والاسى عليه عميمٌ ... شمل الخلق سيداً ومسودا
جلَّ خطبٌ بفقده ليس ينسى ... بل سيبقى بين الملا مشهودا
ضاع منا وضاع ما كان يرجى ... منهُ بعد الذي غدا موجودا
ويتمنا به أَباً ونصيرا ... حازماً عند شدَّة وشديدا

وفقدنا حبرًا غيورًا هماماً مصلحًا صالحًا صديقًا ودودَا
ووددنا لو عاش حينًا من الدهر فيغنينا أدهرًا وأبودَا
آهٍ لو كنا نفتديه لأنَّا لم نعد شيئًا بعده معدودَا
غني الموت بالذي اغتال منا فليعش من بقي أمينًا رغيدَا
حسبه أن يقال كان عزيزًا وسعيدًا حيي ومات فقيدَا
عوَّدَ النفس عزَّةً من صباه فتعلَّى حتى أرادَ المزيدَا
وسعى يقصد الالهَ حثيثاً واستقلَّ البقا هنا والوجودَا

ولقد طال بنا نفَس الكلام فوقفنا عند هذا الحدّ و بسطنا للقرآء الكرام يدًا نلتمس بها التجاوز عما فاتنا ذكره وقصرت دونه اليد وهم أدرى منا بما هنالك من دواعي الوصف مما لا يبلى ولا ينفد ولا يخضع للحصر والعدّ . وغاية ما نقوله عن فقيدنا العزيز اننا فقدناه كما يفقد البصير عينيه اللتين كان بهما يبصر فيستنير بل كما يفقد الجسم روحه التي كان بها يحيا ويستنير . رفعه الله الى علياه ومتعه برضاه بين سائر اولياه ونفعنا به في أُخراه كما نفعنا في أُولاه . انه السميع المجيب



انتهى

تصحيح خطأ

صفحة	سطر	غلط	صوابه
٢	١٦	الصياغة	الصباغة
٤	١٨	فأجابهدا	فأجاباهما
١٦	٤	اثنايوس	اثناسيوس
١٩	٢٢	ليتنافس	ليتنانس
٢١	١	مضاف	ومضاف
٢٦	٣	من	في
٢٨	١٧	الكرسي	الكرسي
٣٠	١	فيها أحد	فيها احد عليهِ
٣٠	٢	لم	لا
٣١	٣	هذا	هذه
٣١	١٢	التئامهُ	التئامهِ
٣٩	١١	تؤدي	تودي
٤٠	٥	فحواه	فحوآء
٤٢	٢١	زمام	ذمام
٤٦	١٢	وتعلق المحبوب	وتعلق المحب بالمحبوب
٥٠	٤	للجمهور	لجمهور
٥٠	٢٠	شفيعهِ	لشفيعهِ
٥٨	١٩	ناحية	ناصية
٥٩	١٣	خُلق	خُلقت

صفحة	سطر	غلط	صوابهُ
٦٢	٦	الوضآء	الوضآءة
٦٤	٧	عنده	عند
٨٣	١١	امتدح فيه من السيد —	امتدح فيه السيد
٨٧	٢٢	مبارحته الى الشام	مبارحتهِ الشام
٩٦	٢٤	يوسمهُ	يُوسَم
١٤٢	٢٩	باجنخة	باجنحة
١٥١	٢٤	نعم	بلى
١٨٢	٢٢	رزوه	رزؤُهُ



والمرجو ممن اطلع على هذا الكتاب ان يسبل ستر المعذرة على ما يجد فيه من الغلط غير الذي ذكرناه والعصمة لله وحده